

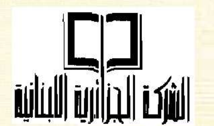
خطب أبي يعلى الزواوي

للفقير الضعيف الراجي عفو ربه اللطيف
السعيد بن محمد الشريف
الشهير بأبي يعلى الزواوي
(١٨٦٦ - ١٩٥٢)
إمام مسجد سيدي رمضان بالجزائر العاصمة

ويليه
على الأسلوب السلفي
ومقالات أخرى متنوعة

بقلم
أبي يعلى الزواوي

اعتنى بها
عادل بن الحاج همال الجزائري



دار ابن حزم


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة التعريف بالتراث الجزائري ١

خطب أبي يعلى الزواوي

للفقير الضعيف الراجي عفو ربه اللطيف
السعيد بن محمد الشريف
الشهير بأبي يعلى الزواوي
(١٨٦٦ - ١٩٥٢)
إمام مسجد سيدي رمضان بالجزائر العاصمة

ويليه

على الأسلوب السلفي
ومقالات أخرى متنوعة

بقلم
أبي يعلى الزواوي

اعتنى بها
عادل بن الحاج جمال الجزائري



دار ابن حزم



حُقُوقُ الطَّبعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

ISBN 978-9953-81-561-9

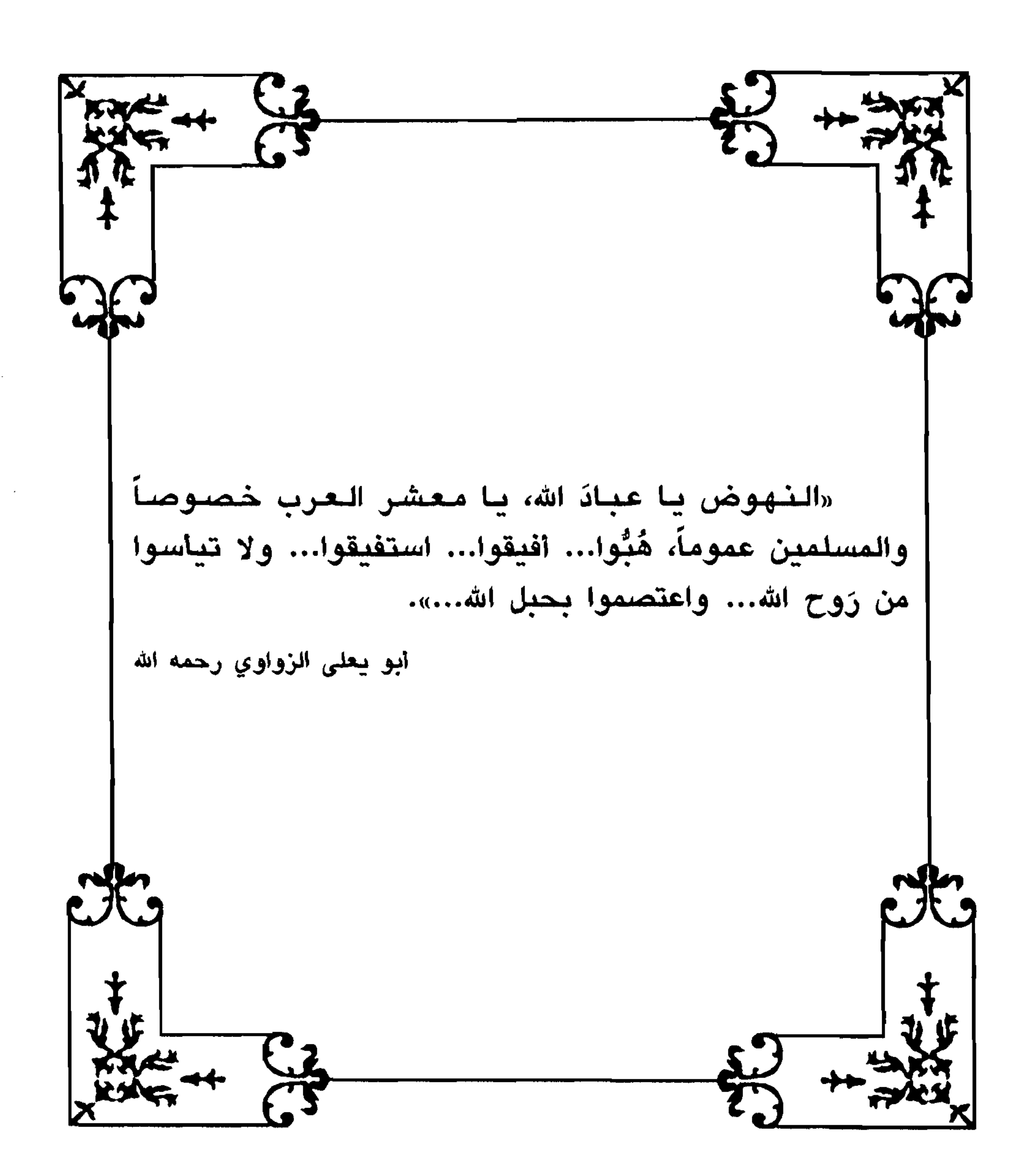
الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها



SOCIETE ALGEROLIBANAISE

4 شارع الهواء الجميل، باش جراح - الجزائر العاصمة
هاتف: 266016 - 267152 (021)
فاكس: 267165 (021)

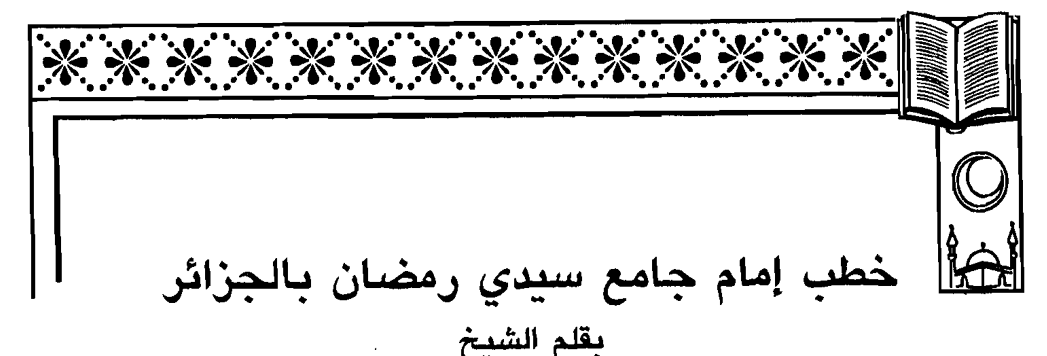
دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb



«الـنـهوض يـا عبـادَ الله، يـا مـعـشـر الـعـرب خـصـوصـاً والـمسلمين عموماً، هُبُّوا... أفيقوا... استـفيقوا... ولا تيأسوا من رَوح الله... واعتصموا بحبل الله...».

أبو يعلى الزواوي رحمه الله





خطب إمام جامع سيدي رمضان بالجزائر

بقلم الشيخ

عبدالحميد بن باديس

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

ـ رحمه الله ـ

الشيخ السعيد الزواوي علّامةٌ سلفي، داعيةٌ إلى الإصلاح بالكتاب والسنة وعمل السلف الصالح، كان من محاسن أعماله لما ولي الخطابة بجامع سيدي رمضان بالجزائر أن أخذ يخطب على الناس خُطباً حيّة، مناسبةً للمكان والزمان والحال، على طريقة السلف المتقدمين ثم جمع بعضاً من تلك الخطب وقدّم لها مقدمةً نفيسة، وطبع الجميع في مجموع واحد سنة 1342.

وقد أهدانا نسخة فألفيناها كما يشاء النُّصح وتقتضيه الإفادة، فشكر الله صُنعه وأحسن جزاءه، ووددنا لو ذكر مآخذ أحاديثه وزاد تحرياً في تخريجها فإن فيها قليلاً من الضعيف الذي يُغني عنه الحسن والصحيح . . .

قسنطينة: **21** ذو الحجة **1344**

الموافق لـ **1** جويلية **1926**

الشهاب عدد **(34)** ص **(11)**

«أشهد أنه قد كان لتلك الخطب الأثر الفعّال في النفوس...».

الأستاذ أحمد توفيق المدني رحمه الله





مقدمة المعتني

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد، «فالظاهر أن القطر الجزائريَّ قد اجتهد قديماً في طلب العلم بجميع أسبابِه، وأتاه من سائر أبوابِه، ووقف على معقولِه ومنقولِه، فتمكّن من أصولِه وفصولِه، وكان لعلوم وقته جامعاً، ولرايتها رافعاً، مثل أخَوَيه المغربين الأقصى والأدنى، فظهر في الأقاليم بدرُه، واشتهر في التاريخ قدرُه، بعلماءَ بنَوا تآليفهم على أركان التحقيق، وحصّنوها بأسوار التدقيق، فكانوا في عصورهم نجوم اهتداء، وأئمة اقتداء، ولكن طواهم وأضرابُهم فلَكُ الإنقلاب في مغارب الأفول فذهبوا ولسان حالهم يقول:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار»[1]

وصار الحال بعدهم:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمَر بمكة سامرُ

لذلك فقد عزمت بعد استخارة الله ـ جلّ وعلا ـ على إحياء تلك

(1) تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (5/1).

الرسوم، بالقيام بنشر جملةٍ من كتب التراث الجزائري في سائر العلوم، ضمن هذه السلسلة التي سميتها: «**التعريف بالتراث الجزائري**» أو: «**تعريف الخلف بتراث السلف**»، متمثلاً قول القائل:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف اللّيالي والجدود العواثرُ

ومقصودي في ذلك أمور منها:

أولاً: التعريف بعلماء الجزائر وأعلامها وبجهودهم وجهادهم في تحصيل العلم ونشره والدفاع عن مقومات الأمة، وبيان صفحات مشرقة من مساهمة القطر الجزائري أو المغرب الأوسط في إثراء الحضارة الإسلامية.

ثانياً: الرقابة على التراث والتصدي لهجمات المستشرقين والكتّاب الفرنسيين المستعمرين الذين أعملوا معاول أفكارهم لهدم تراثنا الإسلامي أو تطويعه بما يوافق مشاربهم ومصالحهم على حين غفلة من أهله.

ثالثاً: محاولة التمهيد لتوفير المادة العلمية للتراث الجزائري الأصيل نقيّاً من تحريف الغالين وانتحال المبطلين بالرجوع إلى مصادره الأصيلة مع استفراغ الوسع في البحث قدر الطاقة.

رابعاً: محاولة الربط بين الماضي والحاضر لاستخلاص الدروس والعبر من التاريخ ـ وتلك فائدته ـ.

➢ منهجي في أعداد هذه السلسلة:

وقد كان المنهج المتبع غالباً في العناية بأعداد هذه السلسلة هو كالتالي:

1 ـ تقسيم الكتاب إلى جانبين:

الأول: **الدراسة**، وتحوي:

ـ مدخل: للتعريف بالموضوع مع الإشارة إلى ارتباطه بالتراث الإسلامي.

ـ تطور الموضوع في التراث الجزائري: واعتنيت فيه بذكر تطورات موضوع العدد عبر مراحل التاريخ الجزائري وهي فترة ما قبل الاستعمار، فترة الاستعمار، والفترة الحالية أي: ما بعد استقلال الجزائر ـ إن أمكن ـ وللقارئ المقارنة بين مختلف الفترات المذكورة.

ـ التعريف بالكتاب.

ـ شرح المنهج المتّبع في خدمة الكتاب.

ـ ترجمة صاحب التأليف.

الثاني: **النص محققاً**: مع التعليق والتخريج والعزو وصنع الفهارس العلمية الممكنة.

2 ـ في بعض الأعداد أردف الموضوع بموضوع آخر يكون مكمّلاً له، واخترت لها المواضيع التي كتبها جزائريون في فترة الاحتلال وتصنف ضمن المخططات الاستعمارية لمواجهة التراث ـ أو الثقافة الوطنية كما يسميه الأستاذ أبو القاسم القماري ـ. ولعلها هي التي اصطُلح عليها فيما بعد باسم «**التّركة الاستعمارية**» ـ إن صحّ التعبير ـ وليس التراث، ولاختياري أسباب وهي:

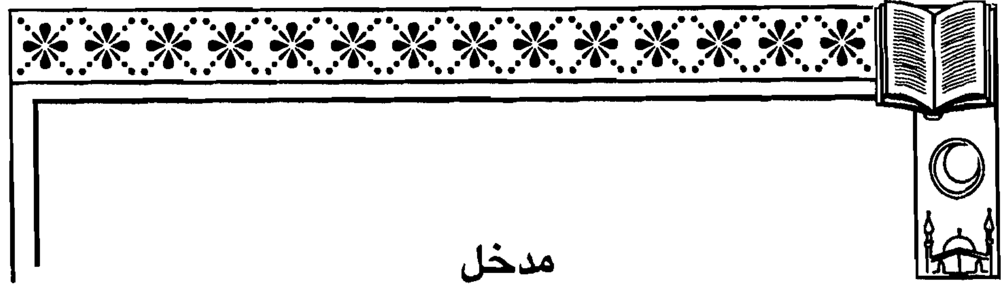
ـ تمييز التراث الأصيل من الدخيل وعقد المقارنة والمناظرة بينهما، وبيان مدى صمود التراث الإسلامي في المواجهة إلى اليوم.

ـ تنبيه القارئ بنوع الأساليب التي يستعملها الاستعمار لمواجهة تراث المسلمين اليوم.

وهذا أوان الشروع في المقصود فالله أسأل أن يعينني فيما أؤمل وأرتجي إنه ولي ذلك والقادر عليه...







مدخل

الخطابة في الإسلام جزءٌ لا يتجزّأ من كيان الأمة الشامخ، ولسانها الناطق، وحبر قلمها السيال، وحركات بنانها الحثيثة، لها شأنٌ جليل، ومقصدٌ نبيل، وأثرٌ ليس بالقليل، هي منبرُ الواعظ، ومُتّكأ الناهض، وسلوان مَن هو على دينه كالقابض، لا يُعرف وسيلةٌ في الدعوة أقرب إلى التأثير منها، ولا وقعٌ أشدّ من وقعها، وهي مهنة النبيّ ﷺ ومنبرُه، ومبتدؤه وخبرُه صلوات الله وسلامه عليه، كما أنها ميدان الدعاة الرحب، ومنهل الظامئين العذب، وسهل الواطئين الرطب.

وبالنظر إلى ما لهذا الأمر من عظم، فإن التهاون بشأنه لخطب جلل، ولأنك إذا أردت الحكم على أمةٍ من الأمم في ثقافتها ووعيها، وفي صحتها وعيّها، فانظر إلى خطبائها وما تحويه خطبهم، وإلى منابرها وأين منها هم.

هذا وقد حرصت الشريعة الإسلامية على ربط منابر الخطابة بجمهور الناس فبعد فرض صلاة الجمعة وخطبتها أصبحت تلك الصلة تتكرر نهاية كل أسبوع، مما أضفى على الخطبة شيئاً من الأهمية والمكانة؛ لأنها منبر التوجيه والإرشاد، فضلاً عن الأعياد والمناسبات العامة كالكسوف والاستسقاء.

وكانت خطابة النبيّ ﷺ من أهم الحوادث وأعظم البواعث للدعوة الجهرية التي أطلقت الألسن من عقالها، وأثارت الخطابة في الإسلام من مكمنها، وأغرت العقول بأحكامها والتفنن فيها، واختلاب الألباب بسحر

بيانها فوق ما كانت عليه في جاهليتها، وهو القائل: «**إن من البيان لسحراً**»[1].

ثم ورثها من بعده خلفاؤه الراشدون، وهم أركان البلاغة، ودعائم البيان، وسادات الفصاحة، ثم من بعدهم ملوك بني أمية وعمالهم، ثم خلفاء بني العباس، ثم اتسعت حتى أصبحت في العلماء والمشايخ، إلى أن اتسع نطاقها لما هو أبعد من ذلك حتى أصبح في مصرٍ واحدٍ في هذا العصر أكثر من ألفي جامع، ولله الحمد والمِنَّة.

وقد اشتهر في أمة الإسلام خطباء كثيرون يصعب حصرهم، غير أن من أشهرهم: علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم، وهو الذي قالوا عنه: إنّ ابن عباس خطب بمكة وعثمان رضي الله عنه محاصر خطبةً لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا.

وقال الحسن: كان عبدالله بن عباس رضي الله عنه أول مَن عُرف بالبصرة، صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران، ففسَّرهما حرفاً حرفاً. وكان والله مِثجّاً يسيل غرباً، وكان من الخطباء أيضاً عطارد بن حاجب بن زرارة، وقد قال فيه الفرزدق بن غالب:

ومنا خطيب لا يُعاب وحاملٌ ... أغرُّ إذا التفَّت عليه المجامع[2]

وكان من الخطباء المشاهير أيضاً: عبدالله بن عروة بن الزبير، وزيد بن علي بن الحسين، والفضل بن عيسى الرقاشي، وقس بن ساعدة، وعمرو بن سعيد الأشدق، وأبو الأسود الدؤلي، ومنهم أيضاً: شبيب بن أبي شيبة، والحسن البصري، وبكر بن عبدالله المزني، ومالك بن دينار، ويزيد الرقاشي، ومحمد بن واسع الأزدي، وغيرهم.

ونختم هذا المدخل بكلام جميل لطيف للشيخ علي الطنطاوي

---

(1) أخرجه البخاري برقم (5146) ومسلم برقم (869).

(2) ملخص باختصار وتصرف من مقدمة كتاب الشامل في فقه الخطيب والخطبة للشيخ سعود بن إبراهيم الشريم.

رحمه الله يصور فيه أهمية الخطبة ودورها في إيقاظ الهمم والتأثير في النفوس.

قال: «إني أحاول أن ألقي اليوم خطبة، فلا تقولوا: قد شبعنا من الخطب، إنكم قد شبعتم من الكلام الفارغ، الذي يلقيه أمثالي من مساكين الأدباء، أما الخطب فلم تسمعوها إلا قليلاً، الخطب العبقريات الخالدات التي لا تنسج من حروف، ولا تؤلف من كلمات، ولكنها تنسج من خيوط النور الذي يضيء طريق الحق لكل قلب، وتحاك من أسلاك النار التي تبعث لهب الحماسة في كل نفس.

ولا تقولوا: وماذا تصنع الخطب؟ إنّ الخطب ديموسثين صبّت الحياة في عروق أمة كادت تفقد الحياة، وهي كلماتٌ وقفت سدّاً منيعاً في وجه أعظم قائد عرفته القرون الأولى «الإسكندر»، ووجه أبيه من قبله «فيليب». وخطبة طارق هي التي فتحت الأندلس، وخطبة الحجّاج أخضعت يوماً العراق، وأطفأت نار الفتن التي كانت مشتعلة فيه، ثم وجهته إلى المعركة الماجدة، ففتح واحد من قواد الحجاج أكثر مما فتحت فرنسا في عصورها كلها، وبلغ الصين وحمل الإسلام إلى هذه البلاد كلها، فاستقر فيها إلى يوم القيامة، ذلك هو قتيبة بن مسلم.

ولما اجتاح نابليون بروسيا، ما أعاد لها حريتها، ولا ردَّ عليها عزمها، إلا خطب (فِختِه) التي صارت لقومه كالمعلقات يحفظها في المدارس الطلاب...»[1].

➤ مسيرة الخطابة والخطباء في القطر الجزائري:

عرف الجزائريون الخطابة في أزهى عصورها أيام كانت سوق العلم نافقة بتوفر كبرى مراكز العلم، بجاية وتلمسان التي عمَّرها الأندلسيون النازحون فنشروا فيها علومهم وصنائعهم ومدنيتهم، يومها كان الساسة

---

(1) هتاف المجد للشيخ علي الطنطاوي ص(23).

والعلماء يحذقون العربية ويمارسونها منذ نعومة الأظفار فإذا ارتجلوا القول بها أجادوا مع رباطة جأش وفصاحة لسان وقوة كلمة، قال أبو يعلى الزواوي: «المصريون والشاميون أنجب منا ـ أي: في الخطابة ـ ولكن بعد سقوط الأندلس والقيروان وبجاية وتلمسان وفاس»[1].

➢ الخطابة في العهد التركي:

ومع مجيء الأتراك الأعاجم في القرن العاشر انحصرت الخطبة في العلماء وأئمة الجوامع، فاشتهر من الخطباء الشيخ سعيد قدورة، وسعيد المقري، وأحمد المقري، وعبدالكريم الفكون وأحمد بن عمار وغيرهم من علماء الوقت، وكان الناس إذا أرادوا أن يمدحوا شخصاً بالبراعة مدحوه بجودة الخطبة والبراعة فيها وذلاقة اللسان وحسن السّمت، وإذا سخطوا عليه عابوا عليه النقص في ذلك فهذا الشيخ مصطفى بن عبدالله البوني قد اشتهر بحذق الخطابة وإتقانها حتى وصفه محمد بن ميمون فقال: «له في الخطب الساعد المشتد. . .» والإلقاء الذي لا تميل إليه الهوادي وتمتد، والسكينة التي تُحدِّق إليها الأبصار فلا ترتدّ، لم أر منذ عقلت بسنّي، وعلقت خطابته بذهني، أحقُّ منه في طريقة الوعظ والخطابة والإمامة، ولا رأيت من شيوخنا مَن يتقدم أمامه. . .»[2].

ومن خطب هذا العصر المدونة خطب أحمد المقري، ومجموع خطب لعبدالكريم الفكون[3].

➢ عهد الأمير عبدالقادر وزعماء الجهاد:

وبنهاية العهد العثماني الذي تميز بتراجع مستوى العربية والتعليم واندراس المدارس بسبب إهمال الأتراك وجهلهم، اتصلت الخطابة بزعماء

---

(1) خطب الزواوي ص(64).
(2) التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ص(235، 236).
(3) تاريخ الجزائر الثقافي للأستاذ أبي القاسم سعد الله القماري (205/2)

الجهاد وعلى رأسهم الأمير عبدالقادر الجزائري فكان خطيب الأمة وخطيب الجهاد وخطيب الصلوات، وكانت أول خطبة ألقاها تتمثل في قبول البيعة والحث على الجهاد والطاعة ثم توالت خطبه في المؤتمرات وجموع القبائل وحشود العساكر، ذكر جملة منها ابن الأمير في (تحفة الزائر) وقال واصفاً لها: «تحتوي على وعظٍ ووعدٍ ووعيد وأمرٍ ونهيٍ وحثٍّ على الجهاد»[1].

ومن خطب عهد الأمير خطبة عمه علي بن أبي طالب في إقناع الناس بمعاهدة التافنة التي عقدها الأمير مع الجنرال الفرنسي «بوجو»، قال ـ بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على النبيّ ﷺ ـ: «قد علمتم أيها السادة أنه لما تكاثرت المظالم، وتواطأ العمال ـ أي: الأتراك ـ ومَن وافقهم على ارتكاب المآثم، انتقم الرّب تعالى منهم وعمّنا ذلك منهم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: 25]، فسلّط الله علينا عدوّ ديننا فتكالب على بلادنا، واستولى على مراسينا، واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس، وأخلاها من المدرّس والدارس. . . فمرج لذلك أهل قطرنا، وضاقت بهم أرض مغربنا، واستبدلوا القصور المشيدة بخيام الشعر ومضارب الوبر، وتفرقوا أوزاعاً في المواطن، وتباينوا في الموارد والمعاطن. . . إلى أن طالت القِصّة، وعزّ ما ندفع به عن هذه الغُصّة، ومالت شمس الاتفاق إلى الأفول، وتهيأ جند التناصر والتعاضد للرواح والقفول. . .»[2].

وبعد الأمير رفع لواء الخطابة الجهادية الأشراف والمرابطون فكانوا يظهرون بين الفينة والأخرى فيهزون المجتمع هزّاً عنيفاً، فيدعون إلى الجهاد وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف والطاعة في عبارات قصيرة ولكن بحماس وغيرة على الدين والوطن، ومنهم: الشريف المجاهد بوبغلة، والشريف بوزيان، والمقراني ومحي الدين ابن الأمير، والمرابط الحداد وابنه عبدالعزيز، وبوعمامة، والأجواد من عائلة أولاد سيدي الشيخ. . . وخطبهم غير مدوّنة لأنهم كانوا يلقونها في الجموع ثم يفترقون استعداداً للجهاد،

(1) تحفة الزائر لابن الأمير ص(97/1).

(2) المصدر نفسه ص(175/1 ـ 176).

وذُكر عن الشيخ أبي القاسم البوجلّيلي الزواوي أنه كان يخطب في الجمعة ويعلن ولاءه للسلطان عبدالحميد العثماني الذي كان يجاهد الكفار آنذاك، فكان أثناء جهاد **1871** يدعو فيقول: «اللَّهمَّ انصر خليفتك الإمام، الناشر لواء الإسلام... اللَّهمَّ انصره نصراً تُعزّ به الدين، وتُذل به رقاب الكافرين، اللَّهمَّ أهلك الكفرة وما ابتدعوا، وشتّت شملهم وما جمعوا، ووهِّن كيدهم وما صنعوا، واجعلهم فيئاً للمسلمين، وغنيمةً للموحِّدين، وانصرنا عليهم يا خير الناصرين»[1].

وكلامه فحلٌ كما ترى.

➢ حال الخطب والخطباء تحت الحكم الفرنسي الاستعماري:

في هذه الأثناء كانت الخطابة في المدن التي سيطر عليها الفرنسيون قد ضعف مستواها جدّاً بسبب هجرة العلماء الأكفاء أو التحاقهم بالجهاد، وصارت وظيفة الخطبة في الجوامع لمن سألها لا لمن استحقّها، بل لمن رضيت عنه فرنسا، وكانت الإدارة الاستعمارية هي التي تعدّ الخطبة وتصوغها وتقدمها للخطيب فلا يخرج عنها إلاّ للأدعية والأذكار إذا شاء، أما موضوعاتها فكانت مواضيع العبادات وأحوال الآخرة والأموات وعذاب القبر، وكانت أي كلمة إضافية خارجة عن نطاق الورقة المكتوبة يحاسب عليها صاحبها، حتى الدعاء للخلفاء الراشدين ونصرة الدين قد غيَّر صيغته الفرنسيون منذ بداية الاحتلال، ولم يعد في استطاعة الخطيب في الجمعة الدعاء حتى باتباع السلف الصالح، بل إن الإدارة الفرنسية جعلت الخطباء ينوهون بأعياد فرنسا والدعاء لحكامها، إضافة إلى ضعف اللغة العربية.

ومن الأسماء التي اشتهرت بالخطابة في المساجد الرسمية في هذه الفترة: مصطفى الكبابطي، حميدة العمالي، وعلي بن الحفاف وغيرهم. وهم إمّا من بقايا الفترة التركية أو من خريجي المدارس السلطانية (العربية ـ الفرنسية) التي أعدّها الاستعمار لتخريج الأئمة والقضاة.

---

(1) تاريخ الجزائر الثقافي (112/8).

أما في غير المساجد الرسمية التابعة للزوايا[1] مثلاً فقد كان الخطيب فيها مستقلاً عن الإدارة الفرنسية، ولكن كان مراقباً عن طريق المكاتب العربية الرسمية التي وضعها الفرنسيون عند كل نقطة احتلّوها لمراقبة الجزائريين، وهكذا فقد كان التجسس على الأئمة على قدم وساق بين المصلّين والمستمعين، وكذلك عن طريق القياد وشيوخ الأعراش وأعوانهم[2].

واشتهر في هذا الوقت أيضاً ما سُمي بالخطب التأبينية والتعليمية، وكلها لا تخرج عن سياسة الاستعمار التي رسمها للخطباء والمعلمين، ومن أمثلتها خطبة الحاج أحمد المبارك صاحب كتاب «تاريخ حاضرة قسنطينة» وكان أحد مدرسي المدرسة السلطانية الاستعمارية ومفتياً أيضاً ومن أعيان المتصوفة، دعا فيها بطول العمر لنابليون الثالث!! وقال عنه أيضاً: «مولانا ووليُّ نعمتنا السلطان الأعظم والملك الأفخم!!... إنّ من عظيم النعم الإلٰهية على هذه الأمة الإسلامية، أن تكلّفتها ولاية هذا السلطان الكريم الشفيق الحليم!!...» إلى أن قال: «ومن الألطاف الخفية استيلاؤه على هاته الأرض الجزائرية!!!...»[3] إلى آخر هرائه.

➢ الخطبة في زمن الحركة الإصلاحية بالجزائر[4]:

ولا زال الحال كذلك إلى بدور بوادر الحركة الإصلاحية في بداية القرن العشرين التي رفع لواءها خفّاقاً جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فأزالوا الغمّة، وأحيَوا الأمة، وتصدَّوا لسياسة الاستعمار وعناده، وجاهدوا في الله حق جهاده...

(1) المقصود بالزوايا هنا زوايا العلم والقرآن والجهاد لا زوايا الرقص والخرافة. راجع كتاب زوايا العلم والقرآن بالجزائر للأستاذ محمد نسيب.

(2) التاريخ الثقافي (107/8 وما بعدها) باختصار وتصرف.

(3) جريدة المبشر عدد 12 غشت 1869.

(4) ملخص بتصرف من التاريخ الثقافي (107/8 وما بعدها).

لم يترك علماء الجمعية ثغراً من الثغور ولا منفذاً من منافذ التعبير الحرّ - كما يقال - إلا سدّوه، وقد توسعت الخطبة الإصلاحية في عهدهم وكثر استعمالها في التعليم والوعظ والإرشاد وتعميمها في كامل القطر... في المساجد والمدارس الحرة والنوادي ودور الحفلات والملاعب وغيرها... وفي مناسبات عديدة مختلفة مثل الحفلات السنوية والزيارات والمحاضرات والمسامرات و... و...

وكانت مواضيع الخطبة إلى جانب موضوع النهضة ومحاربة مظاهر الشرك والبدع تعالج مواضيع اجتماعية أخرى كالفقر والغنى والتكافل والتضامن الاجتماعي وأحوال المرأة والتعليم والموضوعات الوطنية كتاريخ الجزائر والعرب والإسلام والاستعمار واستقلال الشعوب وحريتها.

واشتهر من الخطباء الكثيرون من أمثال العربي التبسي، ومبارك الميلي، وأبي يعلى الزواوي، وأحمد سحنون وغيرهم إلى جانب العقبي وابن باديس والإبراهيمي الذين كانوا من فرسان هذا الميدان، ولعل أسلوب الخطابة في الجزائر بعدهم لا يخرج عما تميَّز به هؤلاء الثلاثة، ولنقصر الحديث عليهم الآن.

أما العقبي - رحمه الله - فكان مندفعاً في خطبه كالتيار، من أخطب الخطباء ارتجالاً وأفصحهم لساناً محركاً للجماهير وموقظاً للنفوس بطريقةٍ مؤثرة، قال عنه تلميذه الشيخ أبو بكر جابر الجزائري: «دروس الشيخ الطيب العقبي ما عرفت الدنيا نظيرها، ولا اكتحلت عينٌ في الوجود بعالم كالعقبي»[1].

وأما ابن باديس - رحمه الله - فقد قال الأستاذ أبو القاسم القماري: «كان مخلصاً في كلامه، صادقاً في تعابيره، حاضر البديهة، كثير الاستشهاد بالشواهد، ومع ذلك كان محافظاً على توازن القول فلا يميل إلى الهجوم ولا يغالي في التقريع فكان اعتداله من خصائص شخصيته ومن أسرار نجاحه

(1) من شريط له مسموع بعنوان: «هم عظماء الرجال».

وتأثيره، وربما على النقيض منه الطيب العقبي»[1].

وأما محمد البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ فتميزت خطبه بالطابع الأدبي والبلاغي واستحضار المحفوظات والشواهد، فكان مؤثراً في الخاصة قبل العامة.

كما شرعت الجمعية في إعداد مناهج تربوية في مدارسها لتكوين الخطباء، فألزمت المعلمين بتعليم الأطفال فن الخطابة من الصغر وتشجيعهم على الإلقاء أمام زملائهم وفي الحفلات العامة وارتجال الكلمات المناسبة، وهم الذين سيحملون مشعل الخطابة بعدهم ويكون لهم دور بعد الاستقلال.

واشتهر من الخطباء في هذا الوقت أيضاً خطباء الأحزاب السياسية بدءاً بالأمير خالد إلى حزب الشعب وحزب البيان وغيرهم ولكنهم كانوا ضعافاً في العربية إلاّ القليل منهم فعوضوها بالفرنسية التي كانوا يتقنونها.

وباندلاع الجهاد الجزائري في أول نوفمبر **1954**، تُرجمت تلك الخطب من صيغتها القولية إلى صيغةٍ فعلية، ولم تمض سنوات حتى صارت الجزائر تنعم بالاستقلال.

➢ بعد الاستقلال[2]:

بعد الاستقلال ألقى الشيخ البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ أول خطبة في مسجد كتشاوة وكانت قد عطلت فيه أكثر من **132** سنة، وعاد للجزائريين مساجدهم التي حولت إلى كنائس للنصارى.

واشتهر في فترة الستينات إلى السبعينات خطباء مميزون من أبناء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان لهم دورٌ في استكمال مهمتها ـ بعد حلّها ـ من أمثال: الشيخ عبداللطيف سلطاني في القبة، والشيخ عمر

---

(1) التاريخ الثقافي (8/108 ـ 109).

(2) ملخص بتصرف من: محطات في تاريخ الحركة الإسلامية بالجزائر (1962 ـ 1988) لأوصديق فوزي بن الهاشمي، ص(124 وما بعدها).

العرباوي في الحراش، والشيخ أحمد سحنون في الكونكورد (بئر مراد رايس) وغيرهم.

ومع نهاية السبعينات إلى بداية الثمانينات وتنامي ظاهرة السفر للحج والعمرة وطلب العلم واللقاء بالمشايخ بسبب تسهيل إجراءات السفر، وتفاعل الشباب مع أحداث العالم الإسلامي، وظهور معارض الكتاب الإسلامي وملتقيات الفكر الإسلامي وانتشار الحلقات المسجدية، وانتشار أشرطة الشيخ عبدالحميد كشك التي كانت تبتدئ بقوله: هنا مدرسة الرسول ﷺ يقول فيها الحبيب المصطفى: «**الشرّ لا يبقى والذنب لا يُنسى والديّان لا يموت، اعمل ما شئت فكما تدين تُدان**»، ويقول أيضاً: «**كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون. . .**».

فكان الجزائريون يتنافسون على حفظها باللّفظ والإيقاع، وظهر منهم جيلٌ من الخطباء المميّزين كان لهم دورٌ كبيرٌ جدّاً في تطور الخطابة وتنوع أساليبها بالجزائر. . .

➢ خطب أبي يعلى الزواوي:

كتب الأستاذ أحمد توفيق المدني سنة **1931** متحدثاً عن الخطابة عند الشيخ أبي يعلى الزواوي فقال: «أخرج الخطب المنبرية من صيغتها التقليدية العتيقة. . . فهو يخطب للعامة ارتجالاً في مواضيع إسلامية محلية مفيدة ويعتبر خطابه درساً بحيث لا ينتهي منه إلا وقد اعتقد أن كل مَن بمسجد سيدي رمضان من رجال ونسوة قد فهموا جيِّدَ الفهم خطابَه، وأشهد أنه قد كان لتلك الخطب الأثر الفعال في النفوس»[1].

وفي سنة **1343** (**1924**) صدر كتاب «الخطب» لأبي يعلى الزواوي عن مطبعة باستيد ـ جوردان سابقاً ـ بالجزائر[2] في **78** صفحة، وقد تحدث فيه

---

(1) التاريخ الثقافي (**8/121 ـ 122**).

(2) وكانت مطبعة جوردان تتواجد بحي المسمكة (لابيشري ـ سابقاً). أما الكتاب فقد صدر بتصحيح خادم العلم الشريف بالجامع الأعظم ـ آنذاك ـ الشيخ عبدالرحمٰن الجيلالي حفظه الله.

الشيخ أبو يعلى بعد ديباجة مسجّعة عن تعيينه خطيباً في مسجد سيدي رمضان، وكيف عمل بعدها على تجديد طريقة السلف في الخطابة فالتزم أن تكون الخطبة من إنشائه هو لا من إنشاء الآخرين. ثم قسّم كتابه إلى قسمين:

1 ـ **مقدمة**: ويمكن بدورها أن تقسّم إلى جانبين:

ـ **جانب أدبي**: ويحوي مجموعة معلومات مفيدة حول تطور الخطابة والخطباء عبر العصور، فبعد تعريفه الخطبة لغةً، تحدث عن الخطابة قبل الإسلام كخطبة قس بن ساعدة في الجاهلية، ثم الخطابة في الإسلام ابتداءً بخطبة النبي ﷺ في حجة الوداع وخطب الصحابة ومَن جاء من بعدهم من أهل القرون الخيرية الثلاثة الأولى ثم من بعدهم إلى خطب المتأخرين، ومصادره في ذلك كتب الأدب والتاريخ المشهورة كالعِقد الفريد لابن عبد ربه الذي أكثر النقل منه، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وسيرة ابن هشام، ومقدمة ابن خلدون.

ـ **جانب شرعي إصلاحي**: وعادة ما يأتي به استطراداً، وقد تكلّم فيه على أركان الخطبة وشروطها في الفقه المالكي، ومسائل أخرى تتعلق بفقه الخطبة والخطيب كالحكم الشرعي للخطابة بورقة والخطابة بغير العربية، وأنواع الخطب الشرعية، كما انتقد بدع المتأخرين مثل التزام الدعاء للسلاطين في الخطب وبناء الخطب على الأحاديث الإسرائيليات أو الضعيفة في فضائل رجب وشعبان والتصرف في السجع على حساب المعنى. . . وكلها من المواضيع التي كان يدندن حولها الإصلاحيون في ذلك الزمان، وعلى رأسهم السيد محمد رشيد رضا رحمه الله من خلال مجلته «المنار» كما سيظهر في تعليقنا عليها، ولا شك أن الشيخ أبا يعلى قد استفاد منها كثيراً في تكوين قناعاته الإصلاحية كما استفاد منها غيره من أهل عصره.

وفي مقدمته هذه تطرق الشيخ أبو يعلى ـ استطراداً ـ إلى مواضيع محاربة البدع والاهتمام بتوحيد التربية والتعليم والتمسك بالكتاب والسنَّة

الصحيحة، وهي من جملة آرائه الإصلاحية التي فصّلنا الحديث عنها في فصل «دعوته ومواقفه» من ترجمته الآتية.

2 ـ **ديوان الخطب**: وهو القسم الثاني من الكتاب، وتحوي نماذج من مختلف موضوعات خطب أبي يعلى، وهي تدور حول الأمراض الاجتماعية والجهل وفساد الأخلاق وفساد التربية والتعليم، والحاجة إلى الإصلاح، ثم الوعظ والإرشاد وأحاديث عن الزكاة والصوم والحج والمعاملات الأخرى إضافة إلى مواضيع أخرى تقليدية كالمولد النبوي وفضل صوم رجب سيأتي الحديث عنها[1]. وكلها جاءت في شكل مختصرات كتبت بعبارات مسجّعة تتخللها أحاديث وآيات.

➢ ملاحظات على ديوان الخطب:

ولي على ديوان خطبه ملاحظات أدَع تفصيلها في التعليق على الكتاب، وأجملها فيما يلي:

أولاً: إكثاره من السجع المتكلّف على حساب المعنى في كثير من الأحيان.

ثانياً: إيراده للأحاديث الضعيفة والموضوعة أحياناً مع أن في الأحاديث الصحيحة الواردة في الصحيحين وغيرهما ما يغني عنها[2]، ومصادره في ذلك غالباً كتاب الإحياء للغزالي وهو مليءٌ بالموضوعات والأحاديث التي لا أصل لها كما لا يخفى على مَن له عناية بهذا الشأن، وكذا جامع السيوطي وهو لا يخلو من الضعيف والموضوع، وغيرها من كتب الأدب والسير مما ليست مضاناً للحديث.

---

(1) بعد سنوات من نشر ديوان الخطب استدرك الشيخ الزواوي خطبتي عيدي الأضحى في مقال نشره بالشهاب سنورده في الملحق آخر الكتاب.

(2) وبعد كتابة ما تقدم وقفت على كلام الشيخ ابن باديس الذي أثبته في المقدمة معرفاً بخطب الزواوي وقد أبدى الملاحظات نفسها حول أحاديث الكتاب.

ثالثاً: تطرقه إلى مواضيع مبنية على أصول ضعيفة أو لا أصل لها من الدين كفضائل رجب والمولد النبوي... مع أنه كان قد نبّه في المقدمة على وقوع المتأخرين في هذه الأخطاء، ونعى عليهم ذلك فقال: «خطب المتأخرين إلى عصرنا هذا خطب المتصوفة أكثرها في فضائل رجب وشعبان... وطرز ذلك بالسجعات المثناة والمثلثات والدعاء للسلاطين آل عثمان... وبعضهم يحاول الكذب على الله ورسوله...»[1].

رابعاً: إكثاره من الاستشهاد بالآيات القرآنية مع قوة تصرف واستحضار، وهو شيء يدل على تمكنه من حفظ كتاب الله وممارسة علومه، ولا عجب في ذلك فالزواوي خرّيج زوايا القرآن ببلاد القبائل.

➢ عملي في الكتاب:

هذا وقد كان عملي في الكتاب على النهج الآتي:

1 ـ نسخ الكتاب بعناية مع تصحيح الأخطاء المطبعية عادة، واستدراك السقط وتصويب التصحيف في الآيات والأحاديث وذلك بالرجوع إلى الأصول، ولم أنبّه على ذلك في الهامش لكثرته وعدم فائدته مع ما يتبعه من إثقال الحواشي وتشويش ذهن القارئ.

2 ـ عزو الآيات القرآنية بذكر السور ورقم الآي، وجعلت ذلك في المتن دون الحاشية.

3 ـ تخريج الأحاديث النبوية بعزوها إلى مصادرها من كتب السنّة، معتمداً في ذكر مراتبها على اجتهاد علماء الحديث القدامى والمعاصرين، وإلا فبحسب ما تسمح به القريحة من خلال مخالطتي للكتب الحديثية.

4 ـ التعليق على بعض مواطن الكتاب حسب الطاقة.

---

(1) خطب الزواوي ص(55 ـ 56).

5 ـ التقديم بمقدمة في التعريف بالخطبة ومكانتها في الإسلام، والتعريف بمسيرة الخطب والخطباء في القطر الجزائري. والتعريف بكتاب الخطب ومنهج مؤلفه فيه.

6 ـ ترجمة المصنف بالاعتماد على المصادر المتاحة.

7 ـ وضع الفهارس العلمية المعينة للقارئ.







ترجمة الشيخ أبي يعلى الزواوي[1]

تمهيد:

في الوقت الذي كان فيه الجيش الفرنسي يقوم بدوره في حرب الجزائريين وتشريدهم وإخضاعهم بكل وسائل القهر كالقتل والسجن والنفي إلى الجزر البعيدة وفرض القوانين الصارمة، كان آلاف المستوطنين (الكولون) القادمين من أنحاء أوروبا يسعون سعياً حثيثاً في اغتصاب الأراضي والديار ثم فرض نمط العيش الأوروبي على الجزائري المسلم المغلوب على أمره. وكانت الكنيسة الكاثوليكية أيضاً قد جاءت برهبانها وقساوستها في مهمة تدعيم جيش الاحتلال بنشر التنصير بين الجزائريين في المناطق النائية والفقيرة وفي تحويل المساجد إلى كنائس واستغلال الأزمات الاقتصادية بجمع الأطفال واليتامى وتنصيرهم.

---

(1) قد استعنت في جمع هذه الترجمة بالمراجع التالية:
- تاريخ الجزائر الثقافي للأستاذ أبي القاسم سعد الله.
- آزفون تاريخ وثقافة للأستاذ محمد أرزقي فراد ص(111 - 121).
- الشيخ أبو يعلى الزواوي مقال للأستاذ عز الدين رمضاني بمجلة منابر الهدى عدد (07) ص(73 - 81).
- كتاب الخطب لأبي يعلى الزواوي.
- مقالات الزواوي بمجلة صوت المسجد.
- مجلة الشهاب.

ومن جهة أخرى كان المهندسون والمعماريون والحرفيون قد حوّلوا مدناً بأكملها من وجهها الإسلامي الشرقي إلى وجه أوروبي غربي غريب لتمتد فوق المساجد والمدارس والزوايا والقبور والبيوت والأزقة التي أتت عليها آلة الهدم لتحلَّ محلها المسارح والنوادي والكنائس والفنادق ودور الأوبرا... وكان المفكرون والصحافيون بما فيهم والفنانون قد جاؤوا بخيلهم ورَجلهم لمحاربة الجزائريين أيضاً ولكن... بسلاح الأفكار المدمّر...

في هذا الجو المدْلَهِمّ بليل الاستعمار الغاشم وُلد مترجمنا السعيد بن محمد الذي سيشتهر فيما بعد بأبي يعلى الزواوي ويكون له شأنٌ في عالم الدعوة والإصلاح.

1) مولده ونشاته:

ولد أبو يعلى الزواوي سنة **1866** في قرية «إغيل انزكري» وهي قريةٌ جميلة لها موقعٌ جغرافيٌّ عجيب مستقبلةَ القبلة لا تغيب عنها الشمس من مطلعها إلى غروبها وحولها قرى القبيلة، وكان رحمه الله إذا سُئل عنها أجاب بما أجاب به الحريري:

مسقَط الرأس سروجُ ... وبه كنت أموجُ
بلدةٌ يوجد فيها ... كلُّ شيءٍ ويروجُ
وردها من سلسبيل ... وصحاريها مُروجُ

وهذه القرية غير قريته الأصلية، وإنما انتقل إليها أبوه بعد أن عيّن إماماً لمسجدها وبها تزوج، فوالدته منهم وكانوا من الشرفاء ومن أهل الخير والكرم.

وأما قرية أبيه وجدّه فتسمى: «تفريث نبث الحاج» وتقع على سفح جبل «تامقوت» الشامخ في دائرة «عزازقة» بـ «تيزي وزو» ومعناها بالعربية كما شرحها هو في كتابه: «جماعة المسلمين» (ص: **34**) «عرين ذوي الحاج»، قال أبو يعلى: والعرين هو مأوى الأسد.

2) نشأته العلمية:

تتلمذ الزواوي على يد والده، فأخذ عنه الفقه والقراءات والنحو، ثم زاول تعليمه بزاوية عبدالرحمٰن الأيلولي الكائنة بمنطقة «عزازقة»، ولم يكن راضياً عن طريقة ونوعية التعليم فيها مؤيداً في ذلك رأي صديقه وشيخه محمد بن زكري صاحب كتاب «أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل»، ولكن الشيخ لم يكتف بما تلقاه من علوم في الزاوية بل بذل جهداً كبيراً في تحصيل العلم وبناء ثقافته من خلال مطالعاته لكتب كثيرة ذكرها في ثنايا تآليفه.

ومن الفنون التي ورثها على يد والده ثم برع فيها فن الخط، فقد كان من مجوديه حتى عرف أنه كان ينسخ المصاحف ويخطها بيده.

ومن علماء بلده الذين تأثر بهم:

ـ الشيخ محمد بن سعيد بن زكري خطيب مسجد «سيدي رمضان» بالجزائر العاصمة سنة **1896**، ثم المفتي المالكي بالجامع الأعظم (الجامع الكبير)، والمدرس بالمدرسة الثعالبية.

ـ الشيخ محمد بن بلقاسم البوجلِّيلي: وهو أبرز مصلحي بلاد الزواوة، قال الشيخ ابن زكري وهو تلميذه: «كان من المصلحين ودعاة القضاء على البدع...»، وقد أثنى عليه الشيخ البشير الإبراهيمي.

وكان الشيخ أبو يعلى إلى جانب ثقافته العربية وشغفه بلغة العرب وآدابهم واعتزازه بعلوم الشريعة من فقه وتوحيد وحديث وتفسير، شديد الاهتمام بلغة بلده الزواوة، وقد كتب بعد ذلك وهو بمصر مقالات في التعريف بلغة البربر وقواعد نحوها ونشرها في المجلة السلفية بمصر بطلب من الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله. وكان قبل ذلك قد أرّخ للمنطقة كلّها في كتابه المنشور بدمشق سنة **1924** «تاريخ الزواوة»(1)، وخلص فيه إلى أن لغة البربر حميرية الأصل واستدل على ذلك بأدلة لغوية وتاريخية.

---

(1) طبع مؤخراً بالجزائر.

إلى جانب هذا كان الشيخ أبو يعلى عارفاً باللغة الفرنسية تعلّمها على يد مدير السجن الذي كان أبو يعلى يعلمه اللغة العربية، وقد مكث فيه ثلاث سنوات.

3) نشاطه:

بحكم ثقافته المزدوجة ـ إن صحّ التعبير ـ فقد استعان به الفرنسيون للترجمة فعيّن كاتباً في القنصلية الفرنسية بدمشق التي كانت تحت الحماية والانتداب الفرنسي وعمل بها إلى حوالي **1915**، ثم انتقل إلى القاهرة بسبب وقوع الحرب العالمية الأولى.

أثناء إقامته بسوريا ثم مصر واحتكاكه بالحركة العلمية الإصلاحية التحررية التي نشطت في المشرق آنذاك ازداد الشيخ أبو يعلى تمكناً وتبصراً بأحوال أمته الدينية والسياسية والاجتماعية، وأدرك حينئذٍ حقيقة الصراع والمواجهة مع الاستعمار فاتصل بالعديد من الشخصيات العلمية والكُتّاب والأدباء والسياسيين والصحفيين وأقام علاقاتٍ معهم ومن أبرزهم: العلاّمة المحدّث الشيخ طاهر الجزائري، والعلاّمة المصلح الشيخ محمد رشيد رضا، والعلاّمة الكاتب محمد الخضر الطولقي الجزائري الأصل، ووزير المعارف السوري وصاحب مجلة المقتبس محمد أفندي كرد علي وغيرهم. وهناك سما بفكره إلى الاشتغال بقضايا وطنه والتعريف بها فكتب في ذلك المقالات الكثيرة، وألّف الكتب وكان يعتب على إخوانه المشارقة قلّة اهتمامهم بأحوال المغرب الإسلامي وألّف في ذلك أيضاً.

ففي سوريا: ساهم بمقالاته في بعض الصحف والمجلات، وطبع أحد كتبه وهو «تاريخ الزواوة» في المطبعة السلفية لمحب الدين الخطيب الذي كانت له علاقاتٌ طيبة وصلاتٌ حميدة بينه وبين إخوانه من الجزائريين كالعقبي وابن باديس والإبراهيمي وغيرهم.

وفي مصر: كثّف الشيخ الزواوي نشاطه والتقى بالعديد من إخوانه الطلبة الجزائريين وواصل مشاركاته في تحرير المقالات معرفاً بالجزائر

وتاريخها ووصف أحوالها المزرية، ومن الجرائد والمجلات التي كان يكتب فيها جريدة «البرهان» التي كان يصدرها الشيخ عبدالقادر المغربي، والمجلة السلفية بمصر.

العودة إلى الجزائر: عاد الشيخ الزواوي إلى الجزائر، ونزل ضيفاً على صديقه وابن بلده الشيخ محمد بن زكري، ثم استأجر شقة بشارع لوني أرزقي حاليّاً غير بعيد عن مسجد سيدي رمضان الذي عُين فيه إماماً وتولّى فيه الخطابة والتدريس أكثر من ثلاثين سنة.

مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: ومن الأعمال العظيمة والوظائف الشريفة التي لم يفوّتها الشيخ الزواوي على نفسه رئاسته لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين حيث عُيِّن رئيساً مؤقتاً للجمعية العمومية المكلفة بوضع القانون الأساسي للجمعية وقد حضرها اثنان وسبعون من علماء القطر الجزائري وطلبة العلم، اجتمعوا بنادي الترقي بعاصمة الجزائر لتعيين الأعضاء الأساسيين المكونين لجمعية العلماء الجزائريين، كما عيَّنه الشيخ الرئيس عبدالحميد بن باديس - رحمه الله - فور تأسيس الجمعية للفصل في النوازل الفقهية وقد ظلّ مفتيها مدة عامين إلاّ أن مرضاً حدث له بعد ذلك منعه من الاستمرار على الفتوى[1].

وفي هذه الأثناء ظل الشيخ الزواوي بنفس الهمة العالية يكتب وينتقد وينافح بقلمه وفكره، فكتب في صحيفة «صدى الصحراء» التي كانت تصدر ببسكرة (جنوب الجزائر) وكان من كتّابها أيضاً الشيخ الطيب العقبي، والشاعر محمد العيد، ومحمد الأمين العمودي.

وكتب أيضاً في جريدة «الإصلاح» وكان يديرها الشيخ الطيب العقبي الذي كان يثني على الزواوي في أبياتٍ مطلعها:

أبو يعلى إمامُ الحقّ فينا وشيخٌ في شبابنا المصلحينا

---

(1) صوت المسجد عدد (17) ص(17).

وكتب أيضاً في جريدة «البصائر» المقالات الكثيرة، وشارك بالكتابة أيضاً في جريدة «الثمرة الأولى» التي أصدرها طلبة الجزائر في تونس.

ومن مقالاته ما كتبه في مجلة «صوت المسجد» التي كان يترأسها الشيخ محمد العاصمي المفتي الحنفي بالجزائر العاصمة بطلب منه باعتباره من الموظفين، وقد سلك فيها الشيخ الزواوي مسلكاً وسطاً من دون تعصّب ـ كما ذكر هو عن نفسه ـ «لمذهب أو لحزب أو لزيد أو لعمرو أو لرأي أو للعبة شيطانية أو لدنيا يصيبها أو لدولة يخدمها ولو بالباطل».

وفاته: وظل كذلك حاله بين الكتابة والخطابة والتدريس بمسجده الذي مكث فيه دون ترقية بسبب مواقفه الصلبة تجاه الاستعمار وسياسته، إلى أن توفي في **2** جوان **1952** إثر مرض عضال، ودفن بزاوية الشيخ عبدالرحمٰن الثعالبي بجوار صديق عمره الشيخ محمد السعيد بن زكري... رحمه الله رحمةً واسعة.

4) دعوته ومواقفه:

وقد عاش رحمه الله لدينه، مشفقاً على حال أمته وبني وطنه، مؤمناً بطريق الإصلاح سبيلاً وحيداً لتخليص الأمة من مأزقها.

وتتلخص مجمل آراء الزواوي الإصلاحية فيما يلي:

*** محاربة خرافات منحرفي الطرقية وتبركهم بالأولياء والأموات:**

قال: «ثم هم السادة المتصوفة اعتاضوا عن بناء المدارس ببناء القبب لمن مات منهم واتخاذ قبورهم مساجد ومزارات، والاعتكاف حولها وجعل الصناديق فيها لإلقاء الدراهم لدفين القبة ونذر النذور له، والانتظار لما يصدر منه وسائر الحوادث الأرضية والسماوية وما نزل بالمريدين فإنها منه إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرٌّ من المريد السيِّئ الظنّ، اللّهمّ إنّي أتبرأ إليك من هذه الأعمال...»[1].

---

(1) الخطب ص(64).

*** الدعوة إلى تحكيم الشريعة والقضاء الإسلاميين وإحياء وظيفة الحسبة مع إنكار التحاكم إلى العوائد:**

قال: «بسبب أن الخلافة غير موجودة والقضاء تابعٌ لها ومن شرطه أن يوليه الخليفة، وكذلك سقوط الحسبة واستيلاء الإفرنج على تسعة أعشار وزيادة من المسلمين، لم يبق لنا إلا جماعة المسلمين لنعمل لها وعليها إلى أن ينصّب الخليفة ويرجع القضاء والحسبة على نصابها وإلا فالعالم الإسلامي كلّه مسؤول بأنهم عاملون على غير نظام الشريعة الغرَّاء»[1].

وقال أيضاً: «تعطيل الخلافة والقضاء التابع لها كما تقدم وفقدان الحسبة تعطيل للإسلام وخروج عنه والعياذ بالله، وبقي العمل لجماعة المسلمين وهو في نظرنا آخر منزع بقي في قوس المسلمين، وإلا فهم مسلمون بلا إسلام عياذاً بالله»[2].

وقال أيضاً: «لا تزال تجري في الزواوة إلى اليوم بدعٌ ومنكرات مثل منع الإناث من الميراث وعدم وجود القضاء فإن هذين الأمرين ليسا مما يستخف به»[3].

وقال أيضاً: «إن بلدةً عربية إسلامية سُنيَّة لا ميراث فيها للإناث ولا قضاء شرعي بشرطه والحكم والتحاكم إلى العرف والعادات وكل تحاكم إلى غير شريعته فهو تحاكم إلى طاغوت وهو ردة»[4].

*** الدعوة إلى تعلم اللغة العربية وإصلاح طرق التعليم الذي اتخذه الاستعمار أحد أفتك أسلحته لمحاربة الجزائريين. والتصدّي لدعوات الإدماج:**

قال: «ولم أر في عصرنا هذا موضوعاً آكدَ من التربية والتعليم

(1) على الأسلوب السلفي ومقالات أخرى متنوعة ص(193).
(2) جماعة المسلمين ص(06).
(3) على الأسلوب السلفي ص(178).
(4) على الأسلوب السلفي ص(178).

وإصلاح طرقهما وشؤونهما والحثّ عليها والعناية التامة باللسان العربي المبين لسان الكتاب والسنَّة لسان الأمة. . .»[1].

وقال: «كلما اختلفت التربية والتعليم اختلفت الطباع والأخلاق وتباينت، وإذا تباينت تنافرت، وإذا تنافرت تشاجرت وتقاتلت، ومن هذا القبيل عدم توحيد التربية والتعليم»[2].

وقال أيضاً: «قد تقدم لي القول في الجرائد وفي خطبي الجمعية أن الذي يقدم على تعليم إفرنجي وهو عربي مسلم ويترك التعليم العربي الإسلامي فهو ليس بعربي ولا بمسلم، فمن قال بغير هذا فليس أيضاً بعربي ولا مسلم أو راضٍ بتسليم لسانه وقرآنه وإسلامه»[3].

*** الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام الصحيح المصفّى من كلّ دخيل:**

قال: «الإسلام الصحيح هو ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه، إذا أردنا العمل وكنا مصدقين بذلك فما علينا إلا مراجعة الكتاب السماوي والكلام النبوي من الأوامر والنواهي ثم سيرة النبيّ ﷺ وأصحابه، وقرنهم خير القرون فنعمل بما ثبت وصح من ذلك كله، إذ لا نكلف غير ذلك ونعبد الله إلٰهاً واحداً، ولا نشرك به أحداً ونقلّل من المذاهب والمشارب ومن الطرق والسبل»[4].

*** فضح سياسة الاستعمار، والدعوة إلى النهضة:**

قال: «وتدَّعي فرنسا أنها دولة إسلامية!!![5] وبالأخص عند الاحتفال بتجهيز مركبٍ واحدٍ للحج وتنفخ الأبواق وتضرب الطنابير ويزمر أصحاب

(1) الخطب ص(60).
(2) الخطب ص(61).
(3) جماعة المسلمين ص(33).
(4) الإسلام الصحيح ص(116).
(5) تأمل واعجب أيها اللبيب!!.

الجرائد وتكتب بالخط العريض وينادي المنادون... وعملها ذلك سخرية عند العارفين من المسلمين المؤمنين»[1].

وصرخ في قومه مدوياً فقال: «النهوض يا عبادَ الله، يا معشر العرب خصوصاً والمسلمين عموماً، هُبُّوا، أفيقوا، استفيقوا، ولا تيأسوا من روح الله، واعتصموا بحبل الله...»[2].

ومن مواقفه المشرفة التي جلبت له مشاكل عديدة مع الإدارة الاستعمارية: صموده أمام ضغوط فرنسا الهادفة إلى إجباره على توقيع العريضة التي قدَّمها خصوم الحركة الإصلاحية للسلطات الفرنسية يطلبون فيها إبقاء الشؤون الدينية تحت إشراف فرنسا مخالفين بذلك أهداف جمعية المسلمين الجزائريين المتمثلة في فصل الدين عن الدولة[3].

5) عقيدته ومذهبه:

نشأ الشيخ الزواوي ككلِّ أهل زمانه على مدرسة متأخري أهل المغرب، التي يقول فيها قائلهم:

في عقْد الأشعريِّ وفقه مالكِ   وفي طريقة الجُنَيد السّالكِ

ورغم أنه ظلّ وفيّاً لمذهبه المالكي في الفقه، لهجاً بذكر أقوال المتأخرين أصحاب المختصرات كخليل رحمه الله والدردير وغيرهم حتى عرفه الناس بذلك، استطاع الزواوي أن يتخلص من عقيدة الأشاعرة المخالفة لمذهب السلف[4] في كثير من مسائل الأصول، فصار لا يؤوّل ولا يعوّل

(1) جماعة المسلمين ص(55).
(2) جماعة المسلمين ص(19).
(3) أي: دولة فرنسا التي كانت تحتكره لتمرير أهدافها الاستعمارية. راجع مقدمة كتاب «على الأسلوب السلفي».
(4) وكذلك كان حال مالكية القيروان والمغرب والأندلس الأوائل على مذهب السلف إلى زمان ابن تومرت الذي نشر مذهب الأشعري.

على كتبهم، حريصاً على بث عقائد السلف في درسه وخطبه وكتبه، رجّاعاً إليها ما ظهر له دليل.

فمن ذلك ما ذكره في مقال بعنوان: (درسي) نشره بالبصائر أنه كان يتبع طريقة صاحبه ابن زكري في تدريس أم البراهين وتعاليق السنوسي عليها وشروح وحواشي الدسوقي والباجوري عليها أيضاً وهي من كتب متأخري الأشاعرة، ثم ترك ذلك كله إلى كتب السلف فقال: «وأعجبني في ذلك كلام الحنابلة الذين منهم أسد العلماء ابن تيمية فإنهم قالوا: نصف الله بما وصف به نفسه لا غير، وهو صواب»[1].

وقال أيضاً: «إنّ خير طريقة في العقيدة التوحيدية طريقة السلف التي هي اتباع ما ثبت عن الله وعن رسوله من غير كثرة التأويل والدخول في الأخذ والرد من الجدل في المتشابه وإيراد الشبه والرد عليها»[2].

وصار يقول: «أما أنا ومَن على شاكلتي من إخواني الكثيرين فلا شريعة لنا ولا دين ولا ديوان إلا الكتاب والسنَّة وما عليه محمد وأصحابه ﷺ وعقيدة السلف الصالح أي: فلا اعتزال ولا ماتريدي ولا أشعري، وذلك أن الأشاعرة تفرقوا واختلفوا أي: المتقدمون منهم والمتأخرون ووقعوا في ارتباك من التأويل والحيرة في مسائل يطول شرحها لم تصفُ بعد فعلامَ، وقل: آمنتُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ. . .﴾[3].

❋ ❋ ❋

قضيتان هامتان في حياة الزواوي جديرتان بالذكر

أولاً: علاقته بالعلاوي والعليويين:

العليوية نسبة إلى مؤسسها أحمد بن عليوة المستغانمي، أحد الطرق

---

(1) على الأسلوب السلفي ص(216).

(2) الإسلام الصحيح ص(04).

(3) الإسلام الصحيح ص(94).

الصوفية التي تأسست بالجزائر في الفترة الاستعمارية وكان لها امتدادٌ واسع ونشاطٌ كبير في الجزائر وخارجها، بسبب الدعاية الواسعة التي كان من ورائها الاستعمار كما قيل، وتميزت باعتناقها لمذهب الحلول والقول بوحدة الوجود.

يقول الشيخ أحمد حماني ـ رحمه الله ـ: «وفي عام **1920**م نشر ابن عليوة ديوانه المطبوع في تونس، وأعلن فيه مذهبه الحلولي، وكرر المعنى في كثير من أشعاره العامية كما جاء فيها أقوال مما يؤذي رسول الله ﷺ بإساءة الأدب معه في مخاطبته له، ولما سُئل ابن عليوة عنها اعتذر بأنه رأى رسول الله ﷺ وهو في سكرة من سكراته، وتقدم منه في ذلةٍ وخضوع، فوجد منه ترفّعاً فقال فيه تلك الأبيات وفيها يتهدّد رسول الله ﷺ ويتوعده!! . . . ورفعت هذه الأبيات إلى الشيخ عبدالحميد بن باديس فكتب في الرد على صاحبها رسالة (جواب سؤال عن سوء مقال) . . . وكانت هذه الرسالة صدمةً عنيفة أصابت العليوية فقرّروا الانتقام والسطو على ابن باديس واغتياله . . .»[1].

وكان العليويون قبلها قد حضروا إلى الجزائر العاصمة من مستغانم، واتخذوا من مسجد سيدي رمضان ـ أين كان الزواوي إماماً وخطيباً ـ مأوًى يجتمعون فيه لعقد مجالسهم، وهكذا فقد تعرف الزواوي على شيخهم ابن عليوة وحصلت بينهما محاورات فعلاقات ودية اغتر بها الزواوي فصار بعدها يثني على العلاوي وأتباعه ويدافع على طريقته ويلتمس لها شتى الأعذار[2].

---

(1) مقدمة تحقيق رسالة «جواب سؤال عن سوء مقال» لابن باديس بتصرف، اعتنى بها أبو عبدالرحمٰن محمود ص(**9**، **10**).

(2) يقول الزواوي: «الشيخ أحمد بن عليوة يقول: مروا جميع رؤساء الطرق لنجتمع ونتفق على الموافق للكتاب والسنّة وللأمة». وأجابه ابن باديس: «إن كان هذا الرجل صادقاً فيما يزعم فليبادر إلى الإعلان بالأمر بإحراق ديوانه المملوء بالعقائد الباطنية والحلولية والتهجم الصريح على مقام الربوبية ومقام الرسالة، وبالتوبة من جميع ما فيه وإلا فإن المُصر على ذلك الباطل لا يكون زعمه الرجوع إلى الكتاب والسنّة إلا من باب التمويه الذي لا ينطلي على بسطاء العقول». اهـ من الشهاب مقال عدد (**83**) ص(**8** ـ **12**).

وقد نال هذا الموقف من الزواوي غضباً من الإصلاحيين أو السلفيين كُتاب مجلة الشهاب، اتُهم فيه الزواوي بالتناقض العجيب[1]، فكان ملزماً بالدفاع عن نفسه من على صفحات الشهاب، وبعد محاولة اغتيال ابن باديس التي دبرها العليويون كان موقف الزواوي يزداد تعقّداً وحرجاً.

يقول ابن باديس ردّاً على شبهات الزواوي: «يا أبا يعلى! إن إخوانك السلفيين لم ينكروا عليك معرفتك بصاحبك ولا معاشرتك لأتباعه ولا إتيانك لمجامعهم فهم يعلمون أن النبيّ ﷺ عاشر الكفار والمنافقين وكان يغشى يهود المدينة في مجالسهم[2]، وإنما أنكروا عليك مدحَك وثناءك على شيخ هذه الطائفة وسكوتك عمّا في ديوانه المطبوع[3] بإذنه الرائج بين أتباعه بتقريره، المملوء عقائدَ حلولية صريحة وتهجُّمات على مقام الربوبية ومقام النبوة سخيفة، وإغضاؤك عما في الكتب المنسوبة إليه من أحاديث موضوعة وتحريفاتٍ باطنية لكلام الله وكلام رسوله، وأنت الرجُل المعروف بشدة الإنكار على السيوطي وابن العربي والشعراني وغيرهم، هذا هو الأمر الغريب منك والأمر المنكر عليك، ومحل الريبة فيك. فإذا استطعت أن تخصص شيئاً من وقتك النفيس لنقد ديوان الضلال وكتب التحريف والتخريف نقداً علميّاً نزيهاً كما أنفقت كثيراً من وقتك في نقد أولئك الشيوخ المذكورين فإنك تكون قد برهنت على صدقك وإخلاصك ونزاهتك وبرّأت ساحتك من قولة كل قائلٍ فيك وإن لم تفعل فإنك إذن من الظالمين»[4].

وكتب الشيخ الطيب العقبي يدافع عن الزواوي ويبرؤه من أن يقصد الدفاع عن العليويين لولا أنه ما عرف حقيقتهم فقال: «أبو يعلى ـ فيما أرى وأحسب ـ مؤمن هيّنٌ ليّن، ولعله تخدعه الظواهر أحياناً فينخدع لها ويغترّ،

(1) راجع الشهاب أعداد: 71، 73، 81، 83، 84، 90، 92.
(2) ليس ذلك على إطلاقه بل هو متعلق بمصلحة شرعية راجحة.
(3) يقول الزواوي: «أحلف أنني ما جاء بيدي ولا طالعته ولا عرفته ولا سألت عنه...». الشهاب عدد (83).
(4) الشهاب عدد (90) ص(12).

وما هو أولُ سارٍ غرَّه قمر. . . ولعلّ له عذراً لم نطّلع حتى الساعة عليه، أما أنا فما كنت لأرضى منه كل ما عمل وما كنت لأسيء به الظن إلى درجة أن أخرجه من مذهبنا السلفي وألحقه بمذهب طرق (القوم) الذين تعلمون ويعلم الناس مَن هم اليوم. . .»[1].

ثانياً: علاقته بالعاصمي ومجلته «صوت المسجد»[2].

6) مؤلفاته:

ترك الشيخ الزواوي آثاراً علميةً نافعة هي خلاصة ما يؤمن به من أفكار، وما كان يطمح إليه من مشاريع تخدم بالدرجة الأولى دينه وأمته، وقد جاءت جل هذه المؤلفات في شكل كتيبات أو رسائل مختصرة، وسبب ذلك هو ما بينه هو في مقال له بعنوان: (المطابع في الجزائر) شكا فيه فقدان المطابع وعزوف الناس عن القراءة وعن الاهتمام بنشر الكتب إلى تبذير الأموال في الأعراس والولائم فقال: «ما سمعنا وما علمنا ولا رأينا جزائريّاً طبع كتاباً على نفقته خدمة للعلم والعلماء ولا شجّع كاتباً مؤلّفاً بإمداد إلا السيد الحاج محمد المانصالي الذي أشار على كاتب هذه الفذلكة لتأليف كتابه الإسلام الصحيح الذي عرفه الإخوان وهو كتاب صغير الذي كان السبب في اختصاره خشية أن تكبر نفقته فطبعه رحمه الله في مصر».

وقال أيضاً: «انفرد الجزائريون بعدم تأسيس المطابع، وأبَوا أن يقتدوا بمصر بل ولا بتونس وبمراكش الجارتين فإنّ في تونس عشرات من المطابع والجرائد، وسكان تونس ثلث سكان الجزائر، إنما ينفق الجزائريون الأغنياء في الولائم والأعراس. . .».

وهذه نبذةٌ مختصرة عن مؤلفاته:

---

(1) الشهاب عدد (95) ص(2 ـ 11).

(2) راجع مقدمة «على الأسلوب السلفي» ومقالات أخرى متنوعة.

1) «**كتاب الإسلام الصحيح**»: وجعله في شكل سؤالٍ وجواب في **123** صفحة، وهو مطبوع بمطبعة المنار بمصر سنة **1345**هـ، على نفقة أحد أعيان الجزائر وتجارها الكبار وهو الحاج محمد المانصالي السلفي.

2) «**جماعة المسلمين**»: وهي رسالةٌ مطولة في شأن جماعة المسلمين ومعناها في الفقه المالكي وأصلها من الأحاديث الصحيحة، اختصرها في **75** صفحة وقرّظها الشيخ الطيب العقبي رحمه الله، وطُبعت بمطبعة الإرادة بتونس، ذكر أنه انتهى منها عام **1367**هـ.

3) «**تاريخ الزواوة**»: حدد خطوطه العريضة سنة **1912** وكتبه سنة **1918** وهو في القاهرة ونشره في دمشق سنة **1924**. أعيد طبعه مؤخراً بالجزائر.

4) «**أصل البربر بزواوة**»: ذكره ضمن كتبه، فإما أن يكون هو كتاب «تاريخ الزواوة» المار قريباً، أو هي مقالاته عن لهجات الزواوة التي نشرها بمصر ولعله جمعها بعد ذلك في تأليف مستقل.

5) «**الخطب**»: وقد سبق الحديث عنه.

6) «**فصول في الإصلاح**»: ذكره ضمن كتابه «الخطب وتاريخ الزواوة».

7) «**ذبائح أهل الكتاب**»: ذكره ضمن كتابه «الخطب».

8) «**تعدد الزوجات في الإسلام**» ذكره في مقاله المطابع في الجزائر.

9) «**الأمة العربية**» ذكره في مقال له بعنوان: «الإصلاح».

10) «**الخلافة قرشية**».

11) «**الفرق بين المشارقة والمغاربة في اللغة العربية وغيرها**».

12) «**أسلوب الحكيم في التعليم**».

13) «**مرآة المرأة المسلمة**».

14) «**الكلام في علم الكلام**».

ذكرها بمجموعها الشيخ المؤرخ عبدالرحمٰن بن عبدالقادر الجيلالي - حفظه الله - في خاتمة تصحيحه لكتاب الخطب هذا وهي غير مطبوعة إلا السابع منها فذكر أنه تحت الطبع ولم أره، وبالجملة فبقية كتب الزواوي هي مُفصّل ما أجمله في مقالاته المنشورة التي سنتطرق لبعضها في كتابنا الثاني.

وإلى هنا ينتهي بنا الحديث عن الإمام المصلح المجاهد بقلمه وخطبه الشيخ أبي يعلى الزواوي رحمه الله، وبه تنتهي هذه المقدمة.

وها هو كتاب الخطب الذي اجتهدت في خدمته بقدر الطاقة والوقت المتاح، أزفه إلى عشاق التراث الجزائري بعد أكثر من ثمانين سنة على ظهوره لأول مرة، وقد آثرت إلا أن أستفتح به هذه السلسلة في إشارة إلى فئة معدودة من العلماء والمصلحين العاملين الذين لم يسعفهم الوقت لتأليف الكتب لاشتغالهم بتأليف الرجال... فللّه درّهم، ما أحسن أثرهم على الناس. هذا وما كان من صواب فمن الله وحده وما كان من خطأ فمنّي ومن الشيطان.

اللَّهمَّ علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً وفقهاً في الدين يا ربَّ العالمين، اللَّهمَّ لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت ربي تجعل الحزن إذا شئت سهلا فسهِّل يا ربِّ سهِّل... وسبحانك اللَّهمَّ وبحمدك نشهد أن لا إلٰه إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه بالجزائر وقاها اللّه سوء الدوائر

ليلة الأحد 3 رجب 1427هـ

الموافق لـ 29 جويلية 2006م

عادل بن الحاج جمال الجزائري

- أحد طلبة العلم -



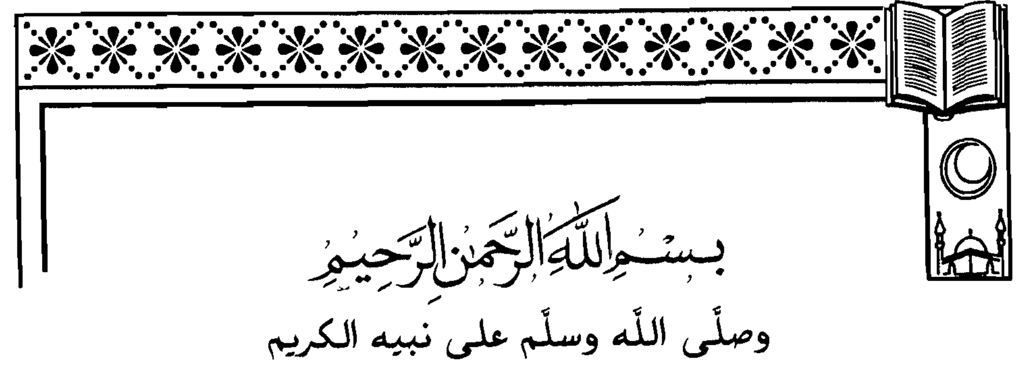
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خطب أبي يعلى الزواوي

للفقير الضعيف الراجي عفو ربه اللطيف
السعيد بن محمد الشريف
الشهير بأبي يعلى الزواوي
(١٨٦٦ - ١٩٥٢)
إمام مسجد سيدي رمضان بالجزائر العاصمة

اعتنى بها
عادل بن الحاج همال الجزائري





وصلّى اللّه وسلّم على نبيه الكريم

الحمد لله الذي أنطق الخطباء بالكلام الفصيح، وسهَّل لهم الارتجال بالقول الصريح، وجعلهم أئمةً يهدون بأمره في كتابه الصحيح، يدعون العباد إلى دينه السميح، بألفاظ البيان والمعاني والبديع والتوضيح، وجمَّل المواعظ والأوامر والنواهي والتلميح، والصلاة والسلام على أفصح مَن نطق بالضّاد، وأخطب مَن خطب سواءً في سوق عُكاظ أو في غيره من النواد، أو بعده إلى يوم التناد، وعلى آله وصِحبه الذين هداهم سبيل الرّشاد، فاجتمعوا له في الحواضر والبَواد، فصلّى بهم الجُمَع والجَماعة فتزوَّدوا التقوى خير الزّاد، فأضحَوا من خِيرة العباد في كل بلاد.

أما بعد، فإنّ جُلّ أو كلّ أحوالنا معشر المسلمين طرأ عليها التغيُّر والفساد، في مشارق الأرض ومغاربها وسائر البلاد، في الماديات والأدبيات، إذ قلّت الحسنات وكثُرت السيئات، ومن جملة ذلك الخطابة في مساجد الجُمُعات، فقد توقّفت كسائر الحركات، وأسباب ذلك لا تخفى على العارفين، المُلمّين بأحوال المسلمين، إذ ترجع إلى الترَقّي والتدَنّي في أدوار أحوال الأمة وأطوارها، ممّا ينشأ عن ذلك من ارتفاعها وانحطاطها، وليس دور سوق عُكاظ في الأدبيات اللغوية كالذي قبله، فعصرُ عكاظ الذي عُدَّ إرهاصاً لعصر القرآن أرقى مما قبله، كما أن دور التنزيل والحديث أرقى وأعلى من شأن عُكاظ وما بعده، فذاك نهاية ما وصلت إليه اللغة الحِمْيَرية فصارت قُرَشية، وهذا نهاية ما بلغت إليه اللغة القرشية فصارت قرآنية، إذ

كُتب بها القرآن الكريم، والذّكر الحكيم، ذو التحدي والإعجاز، وقد أجمع أرباب الفنّ على أن القرآن والحديث زادا في الفصاحة والبلاغة في اللّسان العربي المبين لأنه حجةٌ من جميع الوجوه، حتى اشترطوهما ـ أي: القرآن والحديث ـ في الخطب، وإنّ الاقتباس منهما أو التلميح إلى قضاياهما يجعل كلام الخطيب والمتكلم أو الكاتب قمراً بين النجوم، ولقد أجاد الشاعر المفلِق البُوصَيْري[1] في المعنى إذ قال:

أعجز الإنس آيةً منه والجن ... فهلاّ تأتي بها البُلغاءُ
كل يومٍ يهدي إلى سامعيه ... معجزاتٍ من لفظه القراءُ
تتجلى به المسامع والأفـ ... ـواه فهو الحُليُّ والحَلواءُ
رقَّ لفظاً ورقَّ معنًى فجاءت ... في حُلاها وحُلِيِّها الخنساءُ

ومن أحسن التلميح والتورية قصيدة ابن أبي حفصة التي أنشدها لدى الخليفة المهدي العباسي ومطلعها:

طَرَقتْك زائرةٌ فحيِّ خيالها ... بيضاءَ تخلِط بالجمال دلالَها
قادت فؤادك فاستقادَ ومثلُها ... قاد القلوبَ إلى الصبا فأمالها

ولما وصل إلى قوله:

هل تطمسون من السماء نجومَها ... بأكفِّكم أو تسترون هلالَها
أو تجحدون مقالةً من ربكم ... جبريلُ بلّغها النبيَّ فقالَها
شهدت من الأنفال آخر آيةٍ ... بتراثكم فأردتّمُ إبطالَها

تحرّك المهدي.

قال صاحب كتاب «الأغاني» أبو الفرج الأصبهاني: «كان متّكئاً فتأثر لهذا التلميح العجيب فزحف عن مُصلاّه، وجعل يسأل الشاعر كم بيتٍ في

(1) صاحب القصائد المشهورة في المديح النبوي كالبردة والهمزية، وفيهما استغاثات وتوسلات أنكرها أهل العلم.

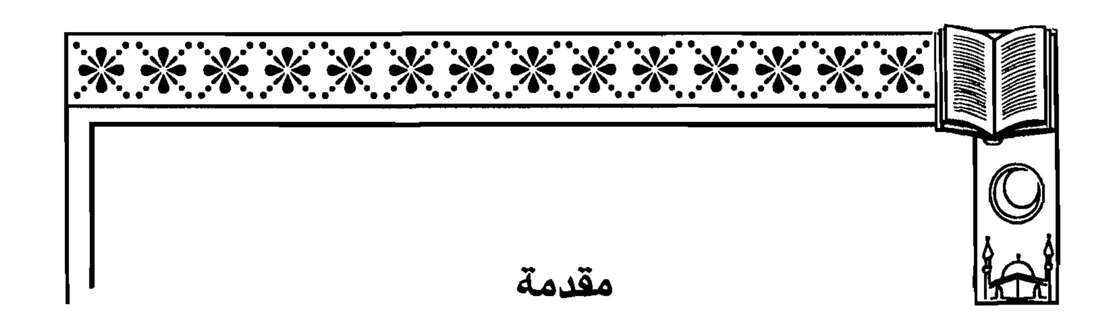
قصيدته؟ فأجاب أنها مائة بيت، فأعطى له مائة ألف درهم، فكانت أول مائة ألف أعطيت لشاعر». وآخر آية في الأنفال هي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿75﴾﴾ [الأنفال: 75]. وذلك أنّ النبيّ ﷺ لما آخى بين المهاجرين والأنصار جعلهم يتوارثون بسبب الآية التي قبلها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ﴾. قال المفسّر أبو حيّان في تفسيره «البحر المحيط»: «قسَم الله المؤمنين إلى المهاجرين والأنصار والذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وأول مَن استجاب لله فهاجروا، قومٌ إلى المدينة وقومٌ إلى الحبشة وقومٌ إلى ابن ذي يزن ثم هاجروا إلى المدينة». انتهى. ونُسخت الآية والعمل القاضيان بالتوارث بالآية: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [الأنفال: 75] وأشار الشاعر أيضاً إلى مسألة سياسية بين بني العباس الذين منهم الخليفة المخاطَب بالقصيدة، فقد أسرفوا في الانتقام من بني أمية، وأرشد الشاعر إلى الرَّحم والصِّلة بينهم مما تضمّنته الآية، فلذلك استحسن الخليفة هذا التلميح والإشارة إلى ما فيه الصلاح فأعطاه الجائزة وكان قد طرده في السنة التي قبلها ولم يعطِهِ شيئاً بين الشعراء، فجدَّد العزيمة وشحَذ القريحة ففاز بالجائزة والإجادة ومَن جدَّ وجد.

هذا ولـمَّا منّ الله عليّ بتعييني إماماً وخطيباً بجامع «سيدي رمضان» بمدينة الجزائر[1]، أردتُ تجديد طريقة السّلف في إلقاء الخُطب والرجوع إلى الأصل في ذلك، وإحياء ما هنالك، فالتزمتُ أن تكون الخطبة من إنشائي وكلامي حسب الأصول المعتبرة في ذلك، ولو لم يكن لي من الأهلية إلا إحياء تلك السُنّة ـ وأيُّ سُنّة ـ لكفى، ورجاء أن أكون ممن أرشد إلى تعليم، وهدى إلى صراط مستقيم، إذِ الأصل في الخطبة أن تكون من إنشاء الخطيب وتُلقى بدون ورقة، ولما أتممتُ سنةً أردت تقييدها لكيلا

(1) أي: المدينة الأثرية القديمة المعروفة بالقَصَبة. ومسجد سيدي رمضان هو أحد أقدم مساجدها.

يُقال: نقلها عن الغير وحفظها وسرقها ليست من إنشائه، ولا من مَلكته فنضحى كأن لم نعمل شيئاً يُذكر فيُشكر، والحال أنّي لم أرد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.





مقدمة

دواوينُ الخطب كثيرة إلا أنهم أخَلُّوا بالتنبيه إلى الأصول وإلى أمورٍ كثيرة، إذ هم يقتصرون على تقييد خُطَبهم فقط، الأمر الذي حدا بي إلى سدّ ذلك الفراغ الذي لم أقف على أنّ أحداً سبقني إليه، وهو ما أثبتُّه في مقدمتي هذه ـ ولا كمقدمة ابن خلدون رحمه الله ـ فأقول:

➢ الخطبةُ، لغةً:

الخطبة، لغةً هي: أقوال خطيبٍ طَلب أو طُلِب للخطابة في مَجْمَع أو مسجد. وفي «القاموس المحيط»[1]: «وخَطَب الخاطِب على المنبر خَطابةً ـ بالفتح ـ وخُطبةً ـ بالضم ـ وذلك الكلام خُطبةٌ أيضاً أو هي الكلام المنثور المُسَجَّع ونحوه».

➢ الخطبة قبل الإسلام:

الخطبة قبل الإسلام هي الكلام المسجّع المختار المنقَّى، والخطيب بمثابة الشاعر وقد يكون خطيباً وشاعراً وقد يكون خطيباً فقط كما يكون شاعراً لا خطيباً، مواهب وملكات، وكان لكلِّ قبيلةٍ من العرب خطيب كما كان لها شاعر يُجيب عنها ويجادل مثل الجرائد في هذا العصر، ولا يتقدم إلى ذلك إلاّ الفُحول والنُّجباء المبرّزون مثل: قِسّ بن ساعدة، وأكثم بن

---

(1) القاموس المحيط (63/1).

أبي صيفي، وذو الأصبع، وعمرو بن كلثوم، وقيس بن زهير، وسحبان وائل، ولم نقف على أنهم اشترطوا للخطبة شيئاً في جاهليتهم غير أنهم استحسنوا أن يكون الخطيب جَهُوريَّ الصوت ولذلك مدحوا فيه سَعةَ الفم.

➢ خطبة قِسّ بن ساعدة في الجاهلية:

أُثبتُ هنا خطبة قسّ بن ساعدة الإيادي في الجاهلية مختارة، لكون النبيّ ﷺ استحسنها وأقرّها وحضر لها وهو ﷺ يافعٌ وشاب، لهذه المنقبة، ولا أثبتُ غيرَها من الخطب إذ الكتب الأدبية مشحونةٌ بها، وكذلك أثبتُ أول خطبة خطبها النبيّ ﷺ تبرُّكاً وتحكيماً، وخطبة الوداع المشهورة وهي آخر خطبةٍ له في المجتمع العام بالحجّ.

لمثل هذه الفوائد يلزم التحرير والتأليف لا للجمع والحشو ليُقال: ألّف وما أكثرهم، قلّل الله منهم في الإسلام، وقال العلاّمة ابن خلدون: «إن كثرة التأليف عائقةٌ عن التعليم». انتهى. وزيادة ضياع الوقت والورَق والورِق.

رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ وَفْد إياد لما قدِموا على رسول الله ﷺ قال لهم: «**أيُّكم يعرف قسَّ بن ساعدة الإيادي؟**» قالوا: كلُّنا يعرفه. قال: «**فما فعل؟**» قالوا: هلَك. قال: «**ما أنساه بسوق عُكاظ في الشّهر الحرام على جملٍ أحمر وهو يخطُب الناس ويقول: اسمعوا وَعُوا، مَن عاش مات، ومَن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، إنّ في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعِبَراً، سحائبُ تمور، ونجومٌ تغور، في فلكٍ يدور، ويُقسم قسٌّ قسماً إنّ لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا**»، ثم قال: «**ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرَضُوا بالإقامة فأقاموا؟! أم تُركوا فناموا؟! أيُّكم يروي من شعره؟**» فأنشد بعضهم:

فــي الــذّاهــبــيــنَ الأوّلــيــنَ ... مِــنَ الــقُــرونِ لــنــا بَــصــائــر
لــمَّــا رأيــتُ مــوارداً ... لــلــمــوت لــيــس لــهــا مــصــادر
ورأيــت قــومــي نــحــوهــا ... تَــمــضــي الأكــابــرُ والأصــاغــر
لا يــرجــع الــمــاضــي ولا ... يــبــقــى مــن الــبــاقــيــنَ غــابــر

أيـقـنـتُ أنّـي لا مـحـالـةَ حـيـثُ صـار الـقـومُ صـائـر[1]

➢ الخطبة في الإسلام:

الخطبة في الإسلام أرقى من الخطبة في الجاهليّة أدباً وعلماً وحلاوةً

---

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (12561/69/12) والبيهقي في دلائل النبوَّة (102/2 ـ 113) وابن درستويه في جزء في أخبار قس كما في تاريخ ابن كثير (195/2) من طريق مجالد عن الشعبي عن ابن عباس، وفي إسناده محمد بن الحجاج اللخمي الواسطي، قال البخاري: «منكر الحديث»، وقال ابن عدي: «هو واضع حديث الهريسة»، وقال الدارقطني: «كذاب». (اللسان: 132/5 ـ 133).

وورد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوّة (103/1 ـ 104)، وابن درستويه في الجزء المذكور. والكلبي هو محمد بن السائب متروك كما قال الدارقطني وغيره. (تهذيب التهذيب: 567/3 ـ 568).

وأخرجه أبو نعيم في الدلائل (103/1 ـ 104) أيضاً من طريق محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس، وابن إسحاق مدلس وقد عنعنه.

والقصة وردت من طرق أخرى:

الأول: عن عبادة بن الصامت: أخرجه الخرائطي في «هواتف الجان» كما في البداية لابن كثير (194/2)، وفي إسناده أبو الحارث الوراق: متروك الحديث كما في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (240/8).

الثاني: عن أنس بن مالك: أخرجه البيهقي في الدلائل (101/2 ـ 102)، وفي إسناده سعيد بن هبيرة هو المروزي، قال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات، وقال أبو حاتم: روى أحاديث أنكرها أهل العلم كما في اللسان (59/3) وغيره.

الثالث: عن ابن مسعود: أخرجه أبو نعيم في الدلائل كما في تاريخ ابن كثير (200/2)، وفي إسناده طريف بن عبيدالله الموصلي، قال الدارقطني: ضعيف، وقال أبو زكريا الموصلي: لم يكن من أهل الحديث، وقال ابن حجر: ومن مناكيره روايته حديث قس بن ساعدة، قال شيخنا العراقي: والواهم فيه فيما أعلم طريف. (اللسان: 257/3 ـ 258).

ورُوي من أوجه أخرى من حديث أبي هريرة أخرجه الأزدي في الضعفاء كما في الكنز للمتقي الهندي (34072)، ومن حديث سعد بن أبي وقاص قال السيوطي: أخرجه الإمام محمد بن داود الظاهري في كتاب الزهرة له وساق إسناده كما في الخصائص وهو واه، ومن رواية الحسن البصري مرسلاً أسنده ابن كثير في تاريخه من طريق ابن درستويه، وقال ابن كثير (199/2): «وهذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات القصة». قلت: وفي ذلك نظر.

وطلاوة، للأسباب التي قدّمناها في الفصل الأول من هذا الكتاب، من أنّ القرآن والحديث زادا في العربية فصاحةً وبلاغة، واشترطوا في الإسلام أن تكون مبدوءةً بالحمد لله في الجمعة، وبالتكبير في العيدين، وبالاستغفار في الاستسقاء، وأن تتضمّن شيئاً من القرآن العظيم ومن حديث النبيّ الكريم.
وذكر صاحبُ «العقد الفريد»[1] أن زياد بن أبي سفيان ترك في خطبة له الحمدلة والتصلية فلقّبوا خطبتَه تلك بالخطبة البتراء وهو خطيب مُصْقِع، وناهيك أن علياً رضي الله عنه يُعجَب به إذ يخطب.

➢ أول خطبة خطبها النبيّ ﷺ:

في سيرة ابن هشام[2] ما لفظُه: وكانت أول خطبةٍ خطبها النبيُّ ﷺ فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن ـ نعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل ـ أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: **«أمّا بعد أيها الناس، فقدّموا لأنفسكم تعلمُنّ، والله ليُصعقَنَّ أحدكم ثم ليَدعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ ثم ليقولَنَّ له ربُّه وليس له تُرْجُمان ولا حاجبٌ يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلّغك وآتيتك مالاً وأفضلتُ عليك، فما قدمت لنفسك؟ فلينظرَنَّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ثم لينظرَنَّ قُدَّامه فلا يرى غير جهنّم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقّ من تمرةٍ فليفعل، ومَن لم يجد فبكلمة طيّبة فإنّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته».**

➢ خطبته ﷺ في حجّة الوَداع:

لفظها حسبما في «العقد الفريد»[3]: «**إنّ الحمدُ لله**» ـ قال السُّهَيلي في

---

(1) العقد الفريد (111/4).
(2) سيرة ابن هشام (146/2)، والحديث أخرجه البيهقي كما في السيرة لابن كثير (301/2 ـ 302) وقال ابن كثير: «وهذه الطريق مرسلة».
(3) العقد الفريد (66/4 ـ 67)، وأصل الحديث عند مسلم (1218) من حديث جابر مختصراً، وقد اعتنى الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ بجمع طرقه في كتابه «حجة النبيّ ﷺ كما رواها عنه جابر ورواها عنه ثقات أصحابه الأكابر».

الروض الأنُف: هكذا برفع الدّال من قوله: «**الحمدُ لله**» ـ وجدته مُقيَّداً مصحّحاً عليه وإعرابه ليس على الحكاية ولكن على إضمار الأمر ـ **نحمدُه ونستغفرُه ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهْد الله فلا مُضلَّ له ومن يُضلِل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبدُه ورسوله.**

أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله، وأحثُّكم على طاعة الله[1] وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد: أيها النَّاس، اسمعوا منيّ أُبيّن لكم فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربّكم، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلّغت، اللّهمّ اشهد. فمن كان عنده أمانةٌ فليؤَدّها إلى الذي ائتمنه عليها، وإنّ ربا الجاهلية موضوع، وإنّ أول رباً أبدأ به ربا عمّي العبّاس بن عبد المطلب، وإنّ دماء الجاهلية موضوعة، وإنَّ أول دم أبدأ به دمُ عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإنّ مآثر الجاهلّية موضوعة غير السِّقاية والسّدانة، والعَمْدُ قَود، وشبه العمد ما قتلَ بالعصا والحجر ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيّها الناس، إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ولكنّه رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك ممّا تُحقّرون من أعمالكم. أيّها النّاس، إنّما النّسيء زيادةٌ في الكفر يُضَلّ به الذين كفروا يُحلّونه عاماً ويحرّمونه عاما ليُواطئوا عِدّة ما حرّم الله، وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض منها أربعةٌ حُرُم ثلاثةٌ متواليات وواحدٌ فرد، ذو القِعدة وذو الحِجّة ومحرّم ورجب الفرد الذي بين جُمادى وشعبان، ألا هل بلّغت، اللّهمّ فاشهد. أيها الناس، إنّ لنسائكم عليكم حقّا وإنّ لكم عليهنّ حقّاً، عليهنّ أن لا يوطِئنَ فَرشَكم غيركم، ولا يُدخلنَ أحداً تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم، ولا يأتينَ بفاحشة، فإن فعلنَ فإنّ الله أذن لكم أن تعِظوهنّ

(1) ورد في العقد الفريد: «**طاعته**».

وتهجُروهنَّ في المضاجع وتضربوهنَّ ضرباً غير مبرِّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، إنَّما النساء عندكم عَوان لا يملِكن لأنفسهنّ شيئاً، أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنَّ خيراً. أيّها النّاس، إنّما المؤمنون إخوة فلا يحلُّ لامرئٍ مال أخيه إلاّ عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللَّهمَّ اشهد. فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فإنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا كتاب الله وأهل بيتي[1]، ألا هل بلغت، اللَّهمَّ اشهد. أيها الناس، إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد كلُّكم لآدم وآدمُ من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربيٍّ على عجميٍّ فضلٌ إلاّ بالتقوى، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «**فليبلغِ الشّاهدُ منكم الغائب. أيّها الناس، إنّ الله قسَم لكل وارثٍ نصيبَه من الميراث، ولا يجوز لوارثٍ وصيةٌ في أكثرَ من الثُلُث، والولد للفراش وللعاهر الحجَر، مَن ادُّعي إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صَرفاً ولا عَدلاً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته**» انتهى.

➢ خطب الصحابة ومَن بعدهم من الثلاثة القرون:

خطب الصحابة رضي الله عنهم ومَن بعدهم من الثلاثة القرون الأولى التي هي خيرُ القرون يجدُها المتأمّل الفطِن خاليةً من التكلُّف وكثرة السَّجع والاعتناء به، بل يجدها أمراً ونهياً ووعظاً وغالبُها سياسيَّة وتولية وتجهيز الجيوش والأمراء، ويَعتبرون الحكمة وفصلَ الخِطاب، بيْدَ أنّهم أغنياءٌ من حيث الألفاظُ والمعاني سجيَّةً ومَلَكة ولا يلحنون، ولهجاتهم عربيةٌ صِرفة، ثم هم متفاوتون في الفصاحة والبلاغة على حسَب درجاتهم وجِبِلاَّتهم وملَكاتهم، وليس الخلفاء الأربعة المشهورون سواء، وإنّ عليّاً أفصح منهم وأخطب، وكلهم رضوان الله عليهم حكماءُ عُدول، عاشروا النبيَّ ﷺ، واقتبسوا من نوره وورثوا من حِكَمه.

---

(1) زيادة «**أهل بيتي**» لا توجد في النسخة المطبوعة وهي ثابتة في الأحاديث.

وفي «العقد الفريد»[1]: أنّ عثمان رضي الله عنه ارتَجَّ به المنبر ـ أي: انغلق عليه الكلام أول مرة ـ وكذلك معاوية.

ولم يشترطوا شيئاً في خطبهم سوى الافتتاح بالحمدلة كما تقدم وهو المراد بالثناء على الله والصلاة والسلام على رسول الله.

➢ خطب القرون الوسطى[2]:

خطب القرون الوسطى أعني بها ما بعد الثلاثة القرون الأولى إلى القرن السابع والثامن، حين تمّ الدَّسْتُ[3] على الخلافة العربية والبغدادية والأندلسية بسبب فتنة التتار ومصيبته، والإسبان وغلبته، فجاءت الخلافة والحِسبة تانك الخِطَّتان العظيمتان بيد العجم فاستعجمت الأمة وجَمدت، فتحولت الخطب إلى التهجي في الأوراق والتلقين للخطباء والضبط بالقلم، وانحصرت في الترغيب والترهيب في الصلاة والصيام والحج والزكاة، وأكثرها في التوحيد كخطب شيخ الإسلام ابن الجوزي[4] وهو من أبناء القرن السادس تولّى مَشْيخة الإسلام في بغداد، وكلّها في الاعتبار بخلق الله وقدرته ووحدانيته والإشارة إلى القَصص القرآنية وبعضها إسرائيلية، وهي جافة وغايتها التصرف في السّجع والتلاعب به كيف شاء لا غير.

➢ خطب المتأخرين:

خطب المتأخرين أي: من القرن الثامن إلى عصرنا هذا خطب المتصوِّفة، أكثرها في فضائل رجب وشعبان ورمضان وصيامها والذكر والاستغفار، وطَرْز ذلك بالسّجعات المثناة والمثلثات والدعاء لسلاطين

---

(1) (4/142 ـ 143).

(2) هذا الوصف لتلك الحقبة من تاريخ المسلمين لم يعرفه المؤرخون المسلمون وإنما هو من تقسيم المستشرقين المغرض فتنبه.

(3) الدَّسْت، يقال لمن غُلب: تم عليه الدست، راجع تاج القاموس للمرتضى الزبيدي (3/50).

(4) طالع وصفاً عجيباً لخطب ابن الجوزي ضمن رحلة ابن جُبَير ص(193 ـ 197).

آل عثمان وإسناد الخلافة إليهم، وبعضهم - أي: مؤلفو تلك الخطب - يحاول الكذب على الله ورسوله ليلحق آل عثمان بالعرب والقرشية[1]، ليصحح له الخلافة البعيدة عنهم بشهادة رسول الله ﷺ كما في الصحيحين: **«إنّ هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدِّين»**[2]، **«لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»**[3].

---

(1) جاء في مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله (**616/9** وما بعدها) وصف لخطبة جمعة بتركيا مركز الخلافة العثمانية يقول الخطيب فيها: «الحمد لله ثم الحمد لله. الحمد لله الذي أيّد دين حبيبه بدوام سلطة ملوك آل عثمان الغازي عبدالحميد خان، وأبقى شريعة نبيه ببقاء عبدالحميد خان. فسبحان الذي أخذ انتقامه من عدوه بعدالة ملوك آل عثمان الغازي عبدالحميد خان، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له منحَ الأمن والراحة على عباده بمحافظة ملوك آل عثمان الغازي عبدالحميد خان. ونشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذي بنى نصرة الله على عباده بإطاعة عساكر ملوك آل عثمان الغازي عبدالحميد خان!! صلّى الله عليه وعلى آله.

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل نبيٍّ رفيقٌ في الجنة، ورفيقي فيها آل عثمان الغازي عبدالحميد خان»**!!! صدق رسول الله!! الذي مدح في الحديث جنود المنتسبين بملوك آل عثمان الغازي عبدالحميد خان»!! انتهى كلام الخطيب.

ثم قال الشيخ محمد رشيد رضا معلّقاً على ما مضى ذكره: «اضحك أيها القارئ أضحَك الله سِنَّك، كأنّي بك وقد ارتبت في هذه الخطبة وحسبتها من أوضاع كاتب السطور أو تماجنه، لكني أحلف لك بكل ما تكلّفني الحَلِف به أن هذه الخطبة قُرئت مراتٍ متعددة في «أسكدار» في جامع رأس السوق في بني جشمة. وبعض الذي يفهمون نهضوا حالاً، وانخزلوا عن الجماعة وخرجوا من الجامع، وقرئت أيضاً في جوامع أُخر، وأجيز واضعها بمائة ليرة، وسمعها شيخ الإسلام!! وغيره من العلماء!! وسكتوا!! فمن أمعن نظره فيما قلنا ونقلناه يأسف لحال الأمة الإسلامية كيف إن سادَتها وكُبراءها في العصور المتأخرة أساؤوا في إدارة شؤونها وتربية أبنائها واستدرجوها في الاستكانة والاستخذاء حتى نُزعت منها روح الحريّة، وفقدت النعرة والحميّة، وحلّ محل ذلك الضعف والخمول وعدم المبالاة بحفظ الحوزة وحماية الحقيقة». اهـ بواسطة الشامل في فقه الخطيب. وانظر عن خطب المتأخرين: المنار (**671/8** و**29/15** و**417/12** و**186/26**).

(2) أخرجه البخاري (**3500** و**7139**) وغيره من حديث عبدالله بن عمرو.

(3) أخرجه البخاري (**3501** و**7140**) ومسلم (**3/7**) من حديث ابن عمر.

والفقه وعلم الكلام (التوحيد)[1] ينادیان أنّ الخلافة في قريش، والأثر كذلك فإنّ أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً وأصحابَ السقيفة حاجّوا الأنصار بالحديث: «**الأئمة من قريش**»[2]، والحالُ أن الأنصار عربٌ نزل فيهم القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا﴾ [الأنفال: 72]، وجاء في فضلهم عدّة أحاديث، ومناقبهم في الفضل كمناقب قريش، ولم تجُز الخلافة لهم وهم عرب وإنما ليسوا بقريش فقط، فكيف تصح لغيرهم من العجم!! أيُّ دليل؟! وأيُّ كتاب؟! لولا ضلال المسلمين الذين غيَّروا ما بأنفسهم فغيَّر الله ما بهم، هذه مدّة ثمانمائة سنة منذ سقطت الخلافة العربية وسقطت الحسبة بسقوطها، والإسلام والعربية وكتاب الله وعَتْرة الرسول وحمَلة القرآن والمدارس في الخراب والتدهور، والعرب في الذلّ والهوان وخراب ما لهم من العمران، نعم إنّ الأتراك إخواننا في الدِّين، وإنَّهم رجالٌ عظماء لهم مدنيَّة وأخلاق وفضائلُ إسلامية شرقية، ولكن الخلافة التي لم تجز ولم تصحَّ للأنصار وهم كما نوَّهنا فلا تصحُّ للأتراك من باب أولى، وكذلك لا تصحُّ للبربر، وقضية ابن تاشفين ذلك الرجل العظيم في الإسلام مشهورة، أنه حاول أن يسمَّى أمير المؤمنين فرجع إلى الوراء وعدَل عن إمارة المسلمين[3].

والحال أن البربر وفارس خدموا العربية والعترة النبوية خدمةً جليلة تشهد بها دفاتر التاريخ ومحابرها، وأما إخواننا الترك فلم يخدموا قطُّ العربية بل خرَّبوها وسعَوا في خرابها، وتلك الدولة العثمانية كلها بطُولها وعَرضها

---

(1) علم الكلام ليس مرادفاً للتوحيد عند أهل السنّة، بل هو من إطلاقات الفِرق المتكلمة كالمعتزلة والأشاعرة التي لم يعرفها السلف بل حذَّروا منها كما هو مسطرٌ في كتبهم، وعندهم ما يرادف التوحيد هي الكتب التي سميت بكتب العقيدة، والسنّة، وأصول الديانة، والشريعة، والفقه الأكبر والإيمان... والمؤلف الزواوي ـ رحمه الله ـ كتب هذا في بداية أمره وقد تراجع عنه كما ورد في ترجمته فانظرها ص(23، 24).

(2) أخرجه أحمد (129/3) وغيره من حديث أنس، وإسناده حسن ولكنه بمجموع طرقه صحيح. راجع الإرواء للألباني (520).

(3) طالع أيضاً فصلاً نفيساً حول ألقاب الأمراء العرب والعجم والبربر في التراتيب الإدارية لعبدالحي الكتاني المغربي (81/1 ـ 85).

وأُبَّهتها وفخفخَتها الباطلة لم تؤسِّس مدرسةً واحدةً عربية حجرت عن المصريين والشاميين أصحاب غديري الضاد أن يتولَّوا القضاء، وكذلك في الحرمين الشَّريفين. واجتمعت بقاضيين في الشام لم يعرفا ولم يستطيعا أن يتفوَّها بكلمةٍ عربية، ولكنّهما تركيان فاضلان ولا يوجد مثلهما في الشَّام ومصر. وآخراً عزَم الأتراك الاتحاديون المشهورون أن يعتبروا الأوطان العربية مستعمرات ويترجموا القرآن، وفريقٌ منهم يقولون أنَّهم متبرؤون من الإسلام، وهو الذي أخّرهم!! وبه تسلّط عليهم دُول أوروبا!! وهلم جرّا، وحسبُنا الله ونعم الوكيل، بل سوّلت لهم أنفسهم أمراً فصبرٌ جميل.

◄ الخطبة الشرعية للجمعة:

خطبة الجمعة هي على ما حرّر فقهاء المذاهب الأربعة المعتبرة، والخلافُ فيها عندهم طفيف، وأنا هنا أجري على مذهب مالك رحمه الله، قال الفقهاء: «إنّ الخطبة هي ما يسميه العرب خطبة، وأركانها ثلاثة: أن تكون بكلام مسجّع، وتشتمل على ترغيبٍ وترهيب، ثالثاً: أن تكون عربية».

تنبيه:

ذكرَت الجرائد العربية في هذه السنة **1341** أن الخطب في الأستانة خطبَ بها خطيبٌ في جامع الجمعة بمحضر السلطان بالتركية، والخطبُ بغير العربية لَغو ـ أي: مُلغاة لا عمل عليها ـ وتبطل الجمعة ببطلانها، إذ هي شرط في الجمعة[1]، وقيل: أنها بمثابة ركعتين، وأن يكون الخطيب هو

(1) اختلف أهل العلم في حكم إلقاء الخطبة بغير العربية على أقوال، والذي ذهب إليه الزواوي هو الذي اختاره الشيخ رشيد رضا صاحب المنار وهو مذهب الأئمة الأربعة. لكن الصحيح أن القول بشرطيتها محل نظر إذ لا دليل على الشرطية، وأن أحسن الأقوال وأعدلها قول مَن قال: إن الأفضل أداء مقدمات الخطبة وما تضمنته من آيات قرآنية باللغة العربية، لتعويد غير العرب على سماع العربية والقرآن، مما يسهل تعلمها، وقراءة القرآن باللغة التي نزل بها، ثم يتابع الخطيب ما يعظهم به بلغتهم التي يفهمونها. وراجع كتاب «الشامل في فقه الخطيب والخطبة» ص(**115** ـ وما بعدها) فإنه اعتنى بسرد الأقوال بأدلتها.

الذي يصلي العارض، ويلزم القيامُ لهما ـ أي: الخطبتين ـ وفيه جواز القُعود لهما أي: يُلقيهما الخطيب جالساً، والدعاء للسلاطين بدعة، وأن تُقدم الخطبة على الصلاة واتصالها بها.

والعجيب جوازهما ـ الخطبتين ـ بلا وضوء، والحال أنه قيل: أنهما بمثابة ركعتين من ركعات الظهر، وفيه إشكال[1]، وجاز للخطيب أن يكلِّم بعض مَن بالمسجد أمراً ونهياً، ويجوز الجوابُ له، ويستحبُّ فيها آيات القرآن، إذ كان ﷺ يقرأ في غالب خطبه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ إلى ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70 ـ 71]، وكانت الخطبة بعد الصلاة ولما نزلت الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجمعة: 11]، نهاهم الله ثم صارت قبل الصلاة.

وفي تفسير «البحر المحيط» لأبي حيّان: «أول مَن استراحَ في الخطبة عثمان وأول مَن خطبَ جالساً معاوية». انتهى.

قلت: هذا تيسير وتوسّع.

◄ الخطبة المحكية من كتاب أو ورقة:

الخطبة المحكية من كتاب أو ورقة منقولةً محفوظةً من مَقُول الغير لا تليق غالباً، وقد لا تناسب إلاّ إذا كانت محرّرة لموضوعٍ خاص كفضل الصلاة والزكاة والصوم والحج فرضاً أو تطوّعاً، وما ورد في ذلك من الوعد للعامل والوعيد للتارك، أو تحرّرت جديداً قبل الإلقاء بقليل، هذا فلا بأس به. وكيفما كان الحال يلزم أن تكون الخطبة على أصلها عند السلف الصالح، وإنما غَلَب الجُمود والجبن أو العجز والحصر عند المتأخرين،

(1) أي: في كونهما تصحان بلا طهارة مع اعتبارهما بمثابة الركعتين اللتين يشترط فيهما الطهارة، ولا إشكال إن شاء الله إن أسقطنا هذا الاعتبار وقلنا بمرجوحيته.

والحال أنهم نصُّوا على تقصير الخطبة وتطويل الصلاة، للحديث الوارد في ذلك: «من مِئِنَّة الرجل تقصيرُ الخطبة وتطويلُ الصلاة»[1] أو كما قال ﷺ.

هذا ويلزم الخطيبَ العارف النظر في مواضع الداء والدواء، وأن يكون حكيماً، عارفاً بالأمزجة والمنافع ممّا أصيب به الناس، وما يحتاجون إليه تخليةً وتحلية، وأن يكون محتسباً، ويعلم أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا بدّ من مراعاة الأحوال الجارية، والواقع والحاضر، ويجتهد في درء المفاسد والقبائح ومحاربة البدع والمنكرات، ويُرشد إلى التربية والتعليم والتمسك بالكتاب والسنَّة الصحيحة، ويتوخّى المواضع الآكدَ فالآكد، ولم أرَ في عصرنا هذا موضوعاً آكدَ من التربية والتعليم وإصلاح طرقهما وشؤونهما والحثّ عليها والعناية التامة باللسان العربي المبين لسانِ الكتاب والسنَّة لسان الأمة، وقد قال العارفون من أهل عصرنا: أن ليس طريقٌ للنجاح والفلاح مثلَ توحيد التربية والتعليم، وهذا معقول بشرط أن تكون التربية والتعليم على أصولٍ مناسبةٍ صالحةٍ للأمة، فإذا كان الأمر كذلك فغاية ما يُطلب ونهاية ما فيه يُرغب، إذ توحيد التربية والتعليم هو توحيد الأخلاق والطباع التي هي أسباب الاتفاق، فلذلك نجد جميع المتفقين ـ أي: المتقاربين في التربية والتعليم ـ أقرب إلى التفاهم والاجتماع والتعاون ونحو ذلك من التعارف والتآلف، وهذا هو السبب الأكبر في تفرق الأمة أعني عدم توحيد التربية والتعليم، والإنسان مُستمسِك بما نشأ عليه وما صيَّره إليه والداه وشيوخُه، مصداقَ الحديث: «**كل مولودٍ يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه**»[2]، فلتعتبر مثلاً في اختلاف المذاهب في الإسلام وإن كانت صحيحةً على الهدى، ولكنها مع ذلك نشأت عنها فتنةٌ بين الشافعية والحنفية حيَّرت العقلاء، حيث لو بقي الإسلام كما في عهد النبيّ ﷺ وأصحابه لكان خيراً وأقوم، وكذلك حدوث الفِرَق الضالّة المُضلّة،

(1) ورد بلفظ: «**إن طول الصلاة وقصر الخطبة مئنةٌ عن فقه الرجل فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة...**» (الحديث) أخرجه مسلم (869) عن عمار بن ياسر. والمئنة هي: العلامة.

(2) أخرجه البخاري (1385) ومسلم (2658) عن أبي هريرة.

وهي كما أشار إليها الحديث قبل طُرُوِّها، اثنتان وسبعون كلّها في النار إلا واحدة[1]، وهي التي تكون على ما عليه الرسول ﷺ وأصحابُه، وأسبابُ تلك الفرق التعاليم الفاسدة المختلفة، ابتدأت حين التشاجر الذي ورد، فتفرعت الشّيعة والخوارج. وإنّ فتنة التتار التي دمّرت بغداد، وديسَ الخليفة وأولادُه بحوافر الخيل، وامتلأت دجلة بالكتب التي رُميت فيها، وقُضي على الخلافة والرِّياسة الإسلامية ولم تقم لها قائمةٌ إلى اليوم إنما هي بسبب الشيعة لخيانة الوزير ابن العلقم الشيعي وهو الذي أوعز سرّاً إلى «تَيمورلَنك» لينتقم وانتقم وأيُّ انتقام!! وكذلك في الأندلس فإنّ الفتنة ناشئةٌ عن الخلافة بين القرشيين واليمنيين بسبب العصبية التي نهى عنها النبيّ ﷺ كما في الصحيح: «**دعوها فإنها خبيثة**»[2]. وكذلك في الشرق في عصرنا هذا، فإنّ العرب والتُّرك بينهما بَونٌ في الأخلاق والتربية والتعليم كما تقدم. وبالجملة كلّما اختلفت التربية والتعليم اختلفت الطباع والأخلاق وتباينت، وإذا تباينت تنافرت، وإذا تنافرت تشاجرت وتقاتلت، ومن هذا القبيل عدمُ توحيد التربية والتعليم وحدوث المذاهب وكثرتها طرق التصوّفية وكثرتها، وبلغت الآن نحو الستّين، وستخلُف الغرَق في العدد. والحال أن الفِرَق كادت تنقرض إلاّ ما لا يتجاوز عددَ الأنامل، وحركات العوامل من الشيعة والخوارج، فخلَفتها الفرق المتصوّفة وكثر الخلاف بينهم، وقد أمضى السلطان عبدالحميد عمرَه وأنفق أوقاتَه في التوفيق أو التفريق بين الطرق عموماً، والرِّفاعية والقادرية خصوصاً المدةَ التي نشأت فيها دولة اليابان وكبُرت، وقاتلت روسيا أكبر دولةٍ أوروبية وانتصرت عليها، وكذلك السلطان مولاهم الحسن بالمغرب

(1) هو حديث: «**إن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة**» وفي رواية: «**ما أنا عليه وأصحابي**» أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (**3993**) من حديث أنس بن مالك، وله طرقٌ وألفاظٌ عديدة صحّحها جمهور العلماء. وأكثر الناس اليوم وقبل اليوم يستشكلون معناه وبعض أهل العلم ضعف زيادة: «**ما أنا عليه وأصحابي**» بسبب ذلك. وللشيخ صالح المقبلي اليماني ـ رحمه الله ـ كلامٌ جيّد في توجيه معناه ضمن كتابه المسمى: «العلم الشامخ في إيثار الحق على سُنَّة الآباء والمشايخ»، انظره في السلسلة الصحيحة للألباني برقم: (**204**).

(2) أخرجه البخاري (**4907**) وغيره.

يدوّخ العصاة والخوارج من القبائل البربرية بالدعاء والإقسام عليهم بالأولياء والصالحين!! كمولاي إدريس، ثم لا ندري هل علم بأبي بكر الصديق كيف عمل مع المَرَقة أصحاب الرّدة؟! وكذلك عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه مع الخوارج، وكذلك عبدالملك بن مروان كيف دوَّخ العراق وجمع الأمة العربية، وهل قاس على أعمالهم أو رأى أنهم لا يعرفون الإقسام بمن مات من الصحابة والأولياء!؟! أو أقسم أبو بكر بالنبيّ ﷺ!؟!

هذا ومن المؤكَّد على الخطباء مداواة مرض الأمة الاجتماعي والسّعي في ردّها إلى الأصل ما أمكن، والحثّ على التسامح للاجتماع والاتفاق وطرح كثرة الفروع واعتبار الأصول فقط حسبما كان السلف في القرن الأول، وهذا ممّا ينفع ولا يضرّ إذا عمل الشيعي والخارجي والسُّنّي بالقواعد الإسلامية التي يعترفون بها ديناً رسمياً فلا يضرّهم ترك الفروع المختلف فيها[1]، وكذلك المتصوّفة. لمثل هذه الأمور ينتبه الخطيب ويتناول ما يراه مناسباً، وهذه الأمور كلها لا وجودَ لها في الخطب المحبَّرة. وكذلك يلزم الخطيبَ مراعاةُ فساد أخلاق الصبيان والشبّان وينبّه والدِيهم إلى ما فشا فيهم من السّباب والفُحش والبذَاءة واللّعن ونحو ذلك من أقوال الردّة والكفر والفسوق. وقد ندّدتُ بهذا الأمر فأفاد إفادةً محسوسة ولله الحمد، ذلك بأنّ جامع «سيدي رمضان» يحضرُ الجمعةَ فيه النساء وكثيراً ما أوجِّه الخطابَ إليهنّ فيما يتعلق بالتربية، ومن أين للخطب المحبّرة من هذه الأشياء؟! وكيف تستوعبها؟! ومن أين لها مما يقع في يوم الخطبة أو في حال الخطبة أو قبلها بقليل!؟!

لطيفة معتبرة تُناسبُ الخطب المكتوبة:

لعهدٍ بعيد أو قريب ذكر بعض الأدباء أنّه مرض صديقٌ لحامد بن العباس فأراد أن يُرسل إليه ابنه ليعُودَه فأوصاه وقال له: إذا دخلت فاجلس في أرفع مكان وقل للمريض: ما تشكو؟ فإذا قال لك: كذا وكذا، فقل:

---

(1) ليس الخلاف بين أهل السنّة وبين الشيعة والخوارج خلافاً في الفروع فحسب، بل هو خلافٌ في الأصول التي أجمع عليها السلف.

سليمٌ إن شاء الله. وقل له: مَن يجيئك من الأطباء؟ فإذا قال لك: فلان، فقل: مباركٌ ميمون. وقل له: ما غذاؤك؟ فإذا قال لك: كذا وكذا، فقل: طعامٌ محمود. فذهبَ الابن فدخل على العليل وكان بين يدي المريض منارة فجلس عليها لارتفاعه فسقطَت على صدر العليل فأوجعته، ثم جلس فقال: ما تشكو؟ فقال بضجر: أشكو عِلّة الموت، فقال: سليمٌ إن شاء الله. فقال: مَن يجيئُك من الأطباء؟ قال: ملَك الموت، قال: مباركٌ ميمون. قال: فما غذاؤك؟ قال: سُمُّ الموت، قال: طعامٌ محمودٌ طيِّب. انتهى.

وهكذا الذي يأخذ كتاب الخطب فإنّه يقول ما وصّوه به، وقد لا يكون على مقتضى الحال ولا يُصادف المطلوب، فلذلك ترى المصلّين يومَ الجمعة نُعوساً نُكوساً إلى وقتِ حضورِ الصلاة ولا يفهمون للخطبة مغزى ولا معنى.

➢ الخطب الشّرعية ـ أي: الدينية ـ عشرة:

الخطب الدينية أعني: الشَّرعية هي: خطبةُ الجمعة والعيدين والكسوفين والاستسقاء وخطبة يوم التّروية أي: يوم السابع لذي الحجة وخطبة الوقوف بعَرَفة وخطبة مِنًى يوم النّحر وخطبة يوم النَّفير الأول وكلُّها بعد الصلاة إلاّ خطبة الحجّ يوم عرفة وكلها يُشرع فيها خطبتان إلاّ الثلاث الباقية من الحجّ فهي فُرادى أي: واحدة.

➢ الخطب في مصر والشام:

الخطب في مصرَ والشّام في هذا العهد أكثرها بلا كتاب ولا ورقة سيما في المساجد العظام مثل الأزهر وجامع بني أميّة فإنّ لهذا الأخير أربعةَ خطباء أئمةً للجمعة، وهم متفاوتون في الإجادة والملَكة، واشتهر الشيخ خالد النَّقشَبَندي الدِّمشقي الأزهري[1] بسبب مراميه الإصلاحية وتعنيفه العامة

(1) هو حفيد خالد النقشبندي الصوفي الذي جلب الطريقة النقشبندية إلى دمشق، «وكان حفيده سلفيّاً، مدرساً في الجامع الأموي» أفاده صاحب كتاب «السلفيون وقضية فلسطين في واقعنا المعاصر» ص(250).

والخاصة على التقصير في شؤون الدين والاجتماع والعمران ويطالب بالإصلاح فصار خطيباً عامّاً في مصر والشام أي: يخطب في كل مسجدٍ نزلَ فيه، وحضرتُ له في مسجد «عابدين» بمصر، تخلف الإمام الشيخ منصور وهذا أيضاً خطيبٌ مصقِع، فطلبَ الشيخ خالد وكان جالساً بجنبي وكان حضوره بذلك المسجد لوعدي له لتناول طعام الغداء لا غير، وكان الوعد أن نصلي هناك فاتفق تخلف الشيخ منصور فقام الشيخ خالد وخطب وأجاد. وهكذا غالب خطباء وشعراء مصر والشام لتمرُّنهم وحُسن ملكاتهم. وعلى كل حال فالمصريون والشاميون أنجب منّا ولكن بعد سقوط الأندلس وقيروان وبجاية وتلمسان وفاس، وفاز المصريون والشاميون بالتجديد والإصلاح، وانخذلنا نحن بالرِّضا بكل حالة والزُّهد والقناعة، واكتفينا من العلوم كلها بالتصوف، ولا جامع ولا نادي ولا مدرسة ولا مطبعة ولا جُمَع ولا جَماعة إلا المتصوِّفة، ثم هم ـ السادة المتصوفة ـ اعتاضوا عن بناء المدارس ببناء القِبَب لمن مات منهم، واتخاذ قبورهم مساجد ومزارات والاعتكاف حولها وجعل الصناديق فيها لإلقاء الدراهم لدفين القبة[1]، ونَذر النُّذور له والانتظار لما يصدر منه وسائرِ الحوادث الأرضية والسماوية، وما نزل بالمريدين فإنها منه إن خيراً فخيرٌ من المريد، وإن شرّاً فشرٌّ من المريد السيِّئ الظنّ. اللَّهمَّ إنّي أتبرأ إليك من هذه الأعمال ومن وعيد لعن النبيّ ﷺ مَن اتخذ ذلك[2] ولا حول ولا قوة إلا بك، وكذلك أتعوذ بالله من أكل الدنيا بطريق الآخرة ومن تلك اللعنة النبوية.

➢ مَن ارتجَّ عليهم المنبر من الخطباء:

نذكر جملةً من الخطباء ارتجَّ عليهم المنبر أي: انغلق عليهم الكلام

---

(1) يقول الأستاذ أبو القاسم القماري تعليقاً على هذه العبارة من التاريخ الثقافي (124/8): «رأي أبي يعلى على العموم صحيح في وصف الظاهرة، ولكنه أهمل أسبابها، ولا سيما في العهد الاستعماري الذي قضى على التعليم وشجع التصوف الكاذب» اهـ.

(2) أي حديث: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** متفق عليه.

وهذا مما يدل على أن الخطب لا تُحبّر ولا تُحرّر لا في ورقة ولا في كتاب إلاّ بعد إلقائها تُحفظ أو تُكتب. وقال صاحب «العقد الفريد»[1]: «إنّ عثمان رضي الله عنه ارتجّ به المنبر فقال: أيها الناس، إنّ أول كل مركبٍ صعب، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسرٍ يسرا». ووقع مثل ذلك ليزيدَ بن أبي سفيان لما قدِم الشام والياً لأبي بكر رضي الله عنه فافتتح وقال: الحمد لله فارتجّ عليه، ثم قال: يا أهل الشام، عسى الله أن يجعل بعد عسرٍ يُسرا، وبعد عيٍّ بياناً، وأنتم إلى إمامٍ فاعل، أحوج منكم إلى إمامٍ قائل.

وكذلك ثابت القطنة في بلد سجستان فقال: الحمد لله، فارتجَّ عليه فنزل وهو يقول:

فإن لا أكون فيهم خطيباً فإنَّني   بسيفي إذا جدَّ الوَغى لخطيبُ

فقيل له: لو قلتها إذ كنت على المنبر لكنت أخطب الناس. ووقع لمعاويةَ بن أبي سفيان وخالد بن عبدالله القَسْري، وكلّ هؤلاء خطباء وإنَّما لم يُفتح عليهم في تلك الساعة، ولم يعتمدوا الورَق.

والعجب أنّنا في هذا الزمان مع عيوبنا الكثيرة لو يرتجُّ على أحد لشنّعوا عليه ولنبذوه وراء ظهورهم، فلذلك تستَّروا بالأوراق. وذكر صاحب «نفح الطيب» أنّ أبا عليٍّ البغدادي بلبل الخطابة وأمير الكلام لما وفَدَ على الأندلس انتدبوه للخطابة فارتجّ عليه ووقف ولم يُبد ولم يُعد. قلتُ: وهذا من أدبهم وصراحتهم وعدم زعامتهم وتكلُّفهم بما ليس فيهم.

هذا وقد خشيت أن يرتجّ عليّ، وقد حذّرني بعض الأصدقاء حين تعييني خطيباً فقال: إنّه مع الورقة فقد هاب واستحيى أن صار يرتعش، والحال أنّه لم يدرِ أنّ عزمي تجديد الطريقة والرجوع إلى الأصل بالرُّغم من أنّي في العقد الخامس بل السادس من العمر لم أقف خطيباً قطّ إلا مرّةً

(1) (142/4 وما بعدها).

واحدة حين عزمي على الانصراف من الشام بسبب فتنة الحرب وتكالب زبانية جمال باشا من لئام الحرب، وكل بلدٍ له لئام ولئامُ الجزائر من تكاثر الوِشايات وأقوال الزُّور. قمتُ في جمعٍ حضره جُملةٌ من أهل الشام وأهل الجزائر وتونس منهم الصادق بك القوميسير، فقمت وافتتحت الكلام بإيجاز وأنشدتُ قول الخطيب وزيرِ بني الأحمر الذي قتلوه وهو أي: قوله:

بعُدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظٍ ونحن سُكوتُ
وأنفاسُنا سكنَت دفعةً ... كجَهر الصلاة تلاه القُنوتُ
وكنَّا عظاماً فصرنا عظاماً ... وكنا نقوت فها نحن قوتُ... إلخ
فقل للعِدا ذهب ابن الخطيب ... وفات، ومَن ذا الذي لا يفوتُ

ولم أخطب عمري قطّ ولكنني اعتمدت الأصل في الخطبة على حسب ما قدَّمنا، والحال أنّي وقفتُ على ما ذكرَ الدَّردير في شرحه المختصر وهو: «فإذا قال: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: أوصيكم بتقوى الله وطاعته وأحذّركم من معصيته ومخالفته، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 ـ 8]، ثم يجلس ويقول بعد قيامه بعد الثناء والصلاة على النبي ﷺ: أما بعد: فاتقوا الله فيما أمر، وانتهوا عمّا نهى عنه وزجَر، يغفر الله لنا ولكم كان آتياً بها على الوجه الأكمل». فظهر لي اعتمادُ الأصل والإتيان بالمُستطاع لعلّي ألحق بسباق الغايات من المتقدمين الذين لهم الفضل، وممن اقتبسنا منهم من أهل مصر والشام، وأُنشد:

ونبَّه شوقي بعدما كان نائماً ... هُتوف الدُّجى مشغوفةً بالترنُّمِ
بكت شجوَها عند الضُّحى فتساجمت ... إليها دموعُ العين مِن كلِّ منسجمِ
فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسُعدي شفيت النفس قبل التندُّمِ
ولكن بكيت قبلي فهيّج لي البُكا ... بُكاها فقلتُ الفضل للمتقدِّمِ

➢ عجائب الخطب:

تقدم لنا أن الخطباء مختلفون في ملكاتهم وسَلائِقهم الفطرية، وقلنا:

أنّ سيدنا ومولانا وجدَّنا عليّاً بن أبي طالب[1] أخطب وأقضى من جميع الصحابة رضوان الله عليهم، وله سجيَّةٌ وبداهةٌ في ذلك مدهشة رضي الله عنه، ورُوي أنّه وقف على منبر الخطابة بالكوفة فسُئل عن مسألةٍ فرضية فأنشأ خطبةً ارتجالاً على رَوِيٍّ ما صارت إليه المسألة العائلة من ثمانية إلى تسعة فقال رضي الله عنه: «الحمد لله الذي يحكم بالحقّ قطعاً، ويُجزي كلّ نفسٍ بما تسعى، وإليه المعاد والرُّجعى، فسُئل هنا فأجاب: صار ثمنها تسعاً. . . (ومضى)»، وهذا من أعجب الخطب. وكذلك خطبة واصل بن عطاء الذي احترَز من حرف الرّاء، ومضى ولم يتوقّف، وذلك أنّ له رثّة في حرف وصار يتجنبها. والمعنى أنّ الأمة إذا قويَت وكثرَت ونفقَت فيها أسواق الأدب والمحابر والدفاتر يظهر منها النجباء ذَوُو الملكات المختلفة الحسنة. وإذا جمدت كنحن الآن فلا يظهر شيء، ولقد أجاد الرُّصافي حيث قال:

إذا أيــقــظــتــهــم زادوا رُقــادا　　وإن أنــهــضــتــهــم قــعــدوا وتــادا
فــســبــحــان الــذي خــلــق الــعــبــادا　　كــأنّ الــقــوم قــد خُــلــقــوا جــمــادا
وهــل يــخــلــو الــجــمــاد مــن الــجــمــود؟!

➤ تلحين العجم والمغاربة:

تلحين العجم والمغاربة في الخطبة والتكلف فيه والتغنّي مما يمجُّه الطبع والذوق السليمان، ولكن شأن اللّهجة اختلفت باختلاف الأقوام والأوطان إلاّ أنها يلزم أن تكون عربية بقدر الإمكان بلا تكلُّف ولا تصنُّع ولا تغنّي، وتكون جدِّيَةً قويّة من طبيعة الرجل الخطيب، ويلزم أن يؤخذ بالعربية المتوارثة، وقد تغيّرت بالاختلاط ولا يَحكم فيها إلاّ (الفونوغراف) لو وجد في ذلك الزمن السَّلفي الأول، وبالأخصّ لقراءة القرآن. وكيفما كان الحال فالتغنّي والتصنُّع ونحو ذلك مما ليس من السجيّة والملَكة يلزم أن يُنبذ، وقد طرحتُ بقدر الإمكان لهجةَ عُجمتنا الزوَاوَة وتغنّي حضرَ الجزائر المدينة راجياً أن يكون عملي من بين فرْثٍ ودَم لبناً خالصاً، والله وليُّ التوفيق.

(1) أي: باعتباره شريف النسب. وشرف النسب عند أهل زواوة هو من جهة الأم.

➢ ما يُعدّ في الخطبة لغواً:

ذكر فقهاؤنا المالكية أنّ الدعاء للسلاطين في الخطبة لغوٌ وبدعة، وكان السّلف إذا أخذ الخطيب في هذه الأدعية قاموا للنافلة وللكلام المشروع، وخصوصاً الدعاء بالشرّ أو ما هو ليس بعربية أو ما هو خارجٌ عن الخطبة.

ذكر بعض المؤرخين أن القائد العظيم الذي فتح إفريقية والأندلس موسى بن نُصير خطب في صلاة استسقاء بإفريقية ولم يدعُ للخليفة الوليد بن عبدالملك، فقيل له في ذلك، فقال: هذا مقامٌ لا يُدعى فيه غير الله فسُقوا. قلتُ: ربما كان ذلك سبباً لنكبته من بني أمية، والله أعلم، فإذا كان لذلك فهو وأهله وولده شهداء وضحايا الحق! فتلك مثالب بني أمية وما بنو العباس بأقل منهم في ذلك. ومن المأثور المستحسن في قضية موسى بن نصير أنّ بعض أصدقائه عاتبه لمَ لمْ يستقل بإفريقيةَ والأندلس ويخرج عن الخليفة الذي نكب به وأحضر له رأس ابنه بطلُ إفريقية، فأجابه: لا تلُمني كان الهدهد يرى الماء يجري تحت الأرض من حدقته وحذاقته ومع ذلك فقد وقع في فخّ، فقيل له في ذلك، فقال: إذا نزل القدر عمِيَ البصر. اهـ.

قلتُ: شبع العرب إذ ذاك الرجال واحتاجوا إليهم الآن. ما رفع الله شيئاً ولم يُشكر إلاّ خفَضَه.

➢ الخطب السياسيّة:

الخطب السياسية كما قال شيخُنا ابن خلدون رحمه الله في الأدب[1]: «لا موضوع له يُنظر في إثبات عوارضه» إلى أن قال: «وهو مجموع كلام العرب من نظم ونثرٍ عالي الطبقة». وعلى ذلك نقول: أنّ الخطب السياسية لا حدّ لها ولّا تعريف كما قيل: أن السياسة لا قلبَ لها ولا ثُبوت لمذاهبها، وإنّما نقول: أنها أقوال رؤساء الوزارات الدولية وسائر عظماء تلك الدول يسمع بعضهم بعضاً فتنشرها الجرائد ويؤخذ فيها بالأخذ والرد. وهذا

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص(553).

هو المقصود منها وغايتها الفصل أو الوصل، إما سلم وإما حرب، فالعبرة فيها بالقائل والمقُول لا الفصاحة ولا البلاغة، وإنما يلزم الخطيبَ أن يكون عارفاً بجميع ما يجري وبقوانين الدول وحقوقها.

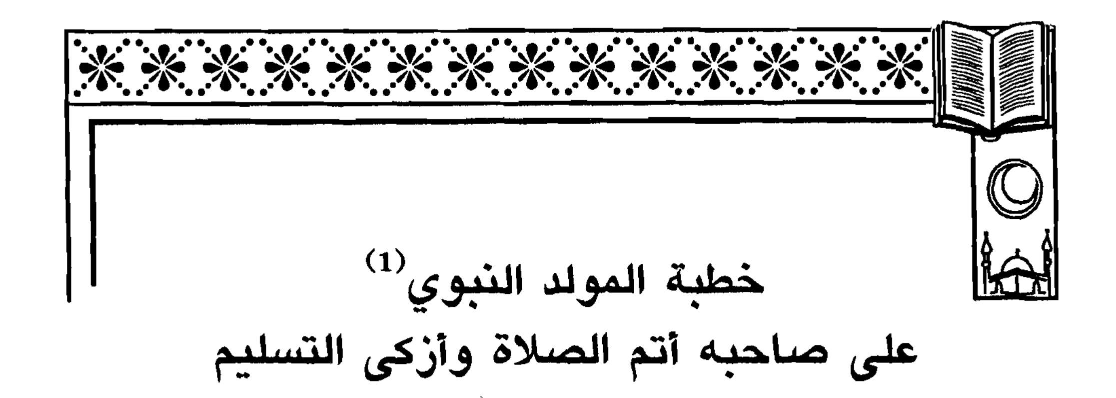
➤ جملةٌ من خطبي:

أُثبتُ هنا جملةً من خطبي مثالاً واعتباراً فقط، إذ لا يلزم أن أُثبتَ نحو الخمسين أي سنةً كاملة كما يعمل الخطباء، ويكون ذلك قاعدةً متّبعة بلا تبديل ولا تغيير ولا تقديم ولا تأخير الأمر الذي لا يليق ولا يناسب في الغالب ولو لعاجز، ذلك بأن الخطيب كالطبيب إنما يُعطي الدواء على حسب الأمراض والأحوال، إذ لا يمكن بحال أن يُعطي الدواء قبل نزول الدَّاء وإنما له أن يُبيّن أدويةً معروفة لأمراض معلومة، كما أنّ من الأمراض ما يتكرر، ومن الأدوية إذاً كذلك، كمرضنا الاجتماعي ودائنا الجاهلي وفساد الأخلاق وفساد التربية والتعليم وعدمها بالمرَّة، وحاجتنا إلى الإصلاح.

وهذا بروغرام[1] خطبي، وعليه سِرت وهو الذي أثبتُّ مع الخطب المهمة كالمولد النبوي على صاحبه عليه الصلاة والسلام والإسلام والهجرة وأعمال السلف الصالح وما ظهر لي مفيداً قديماً أو جديداً، وبالله أعتضد ومن فيضه أستملي وأستمد.



(1) كلمة أعجمية بمعنى: برنامج أو ثبَت.



خطبة المولد النبوي(1)
على صاحبه أتم الصلاة وأزكى التسليم

قدمت هذه الخطبة لشرفها بشرف متعلقها ولادة المرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً يخطب بها في الجمعة الأولى أمِ الثانية من الربيع الأول.

الحمد لله الذي اصطفى آدمَ ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذُريّةً بعضها من بعض، فكان ذروة سنام مجدها وتاجها سيِّدُ المرسلين محمدُ بن عبدالله رسول الله ابن إسماعيل الذبيح الأمين، الذي اصطفاه الله على جميع مَن اصطفى من خلقه، واختاره لأمانة وحيه، أن جعله خاتم النبيين، إذ انتخبه في الأزل، وطلع بدره في الثاني عشر من

---

(1) لم يثبت عن النبيّ ﷺ عمل المولد، ولا عن الصحابة الكرام ومَن بعدهم من أهل القرون الخيرية الثلاثة الأولى، بل قيل: أنه من مخترعات الفاطميين الشيعة مضاهاةً للنصارى في احتفالهم بمولد المسيح، ثم راجت على أهل السنّة من طريق طوائف من الصوفية. وقد نص أكابر علماء المالكية على بدعيّة المولد، وهو الذي عليه المحققون من سائر المذاهب. انظر: المعيار المعرب للونشريسي (**7/100 ـ 101 و114 و8/255 و9/255 و12/48 ـ 49**). والمورد في الكلام على المولد للفاكهاني. والمدخل لابن الحاج (**2/229** وما بعدها)، وغيرها.
وقد اضطرب موقف علماء الجمعية حول مسألة المولد، ولكن الظاهر أن موقف أكثرهم حول هذه القضية هو سياسي لا عقدي وفق قاعدة المصالح والمفاسد المترتبة والأخذ بالأولى، والأمر نفسُه يقال حول مسألة درس الجمعة وغيرها وهو اجتهادٌ دائرٌ بين الخطأ والصواب، لا الحق والضلال، والله تعالى أعلم.

ربيع الأول، في سنةٍ هي أنور السنين، فجاء للشرائع مُجدِّداً ومصلحاً وأُرسل رحمةً للعالمين. وأشهد أن الله جلَّ شأنه يصطفي مَن يشاء ويجتبي إليه مَن يريد، وأشهد أن محمداً رسول الله لم يولد مثله ولن يولد، ومولده أفضل الموالد صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه مذ كان في الوجود[1] إلى اليوم الذي هو فيه مولود، وإلى اليوم الموعود.

أما بعد، فيا أيُّها المسلم، إنَّ من سعادتك وأفضليتك أن جعلك الله من أمة هذا النبيّ الذي شرَّفك به وأرسله إليك رحمةً بك، ونعمةً به عليك، فاعرف ذلك واشكره، وآمن به ولا تكفره، وتأمّل بعثته وشرعه وكيف خفض جناحه لمن اتبعه فأحدث انقلاباً وإصلاحاً في الهيئة الاجتماعية العامة، وفي الأمة العربية الخاصة التي كانت على شفى حفرة من النار فأنقذها منها، فاعترفت بفضله ونعمة الله به عليها.

إلخ ما يناسب المقام من الكلام في مولده ﷺ بالإيجاز.

الحديث: «**إن الله تعالى اختار خلقه فاختار منهم بني آدم ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب ثم اختار العرب فاختار منهم قريشاً ثم اختار قريشاً فاختار منهم بني هاشم ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم فلم أزل خياراً من خيار، ألا مَن أحب العرب فبحبي أحبهم ومَن أبغض العرب فببغضي أبغضهم**»[2].

---

(1) يقصد ما ورد في كون النبيّ ﷺ كان موجوداً قبل ولادته وقبل أن يخلق الله آدم، وفي ذلك أحاديث موضوعة كالحديث المنسوب إلى مصنف عبدالرزاق بلفظ: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر...» وحديث: «كنت نبيّاً ولا آدم ولا ماء ولا طين». وغيرها مما يلهج بها خرافيو الصوفية وليس هو من حب النبيّ ﷺ بل هو الغلو الذي نهى أمته عنه.

قال الشيخ تقي الدين ـ رحمه الله ـ في رده على البكري: «هؤلاء الضلال يتوهمون أن النبيّ ﷺ كان حينئذٍ موجوداً، وأن ذاته خُلقت قبل الذوات، ويستشهدون على ذلك بأحاديث مفتراة...» انظر بقيته في السلسلة الضعيفة **(316/1)**.

(2) أخرجه الحاكم **(73/4)** بلفظ مختصر من حديث عبدالله بن عمرو، وفي إسناده حماد بن واقد وشيخه محمد بن ذكوان وهما ضعيفان.



في الإسلام والاعتصام به

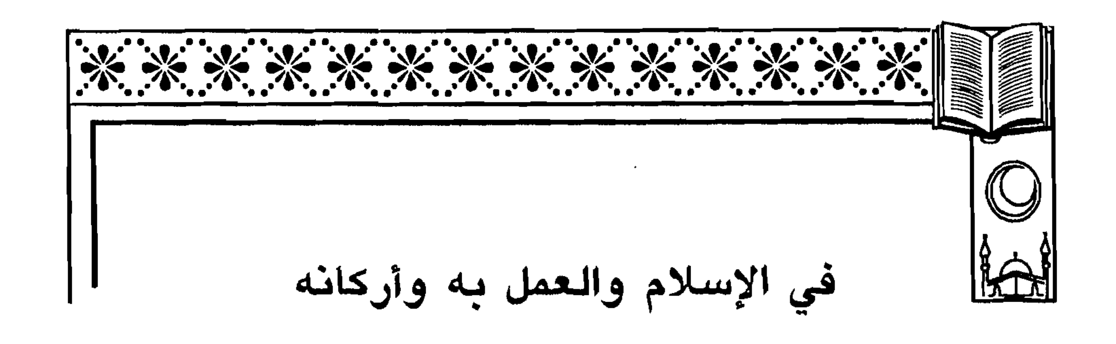
الحمد لله الذي أنقذنا بالإسلام من عبادة الأوثان والأصنام، وعصَمنا بميزان الشريعة من الخطأ والزَّيغ في الأحكام، وحفظنا من الشيطان الرجيم وجنوده أصحاب الإقدام على الآثام، إذ أمرنا أن نستعيذ به تعالى من نَزَغاتهم في اليقظة والمنام، وجعلنا من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان وهم خِيرَة الأنام، لا يخافون الضلال وفيهم ورثةُ نور النبوة العلماء الأعلام، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له القائل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]، وأشهد أنّ محمداً رسول الله خاتم الأنبياء العظام، وصلّى الله عليه وعلى صحبه البررة الكرام.

أما بعد، فإنّ الإسلام دين الله الذي لا يرضى أن يُدان إلاّ به، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85]، وأنه يعصم في الدنيا المال والنفس، ويورث في الآخرة جنّة الفردوس، دينُ الفطرة الذي رضيه الله للمؤمنين، ملّةُ أبيكم إبراهيم هو الذي سماكم المسلمين.

(إلخ) ما يناسب من ذكر نعمة الإيمان والإسلام.

الحديث: في صحيحي البخاري ومسلم: «**مَن شهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل**»[1].

(1) أخرجه البخاري (3038) ومسلم (28).



في الإسلام والعمل به وأركانه

الحمد لله الذي شرح للإسلام صدور الصالحين من عباده، وأعلى شأن العاملين منهم وَفق ما أنزله في كتابه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: 22]، وهذَّب أخلاق مَن أراد بهم خيراً من خلقه، ورفع ذكر مَن كمُلت فضائل الإنسانية فيه، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الدهر: 1 ـ 2]، والشُّكر له تعالى على ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة يعضنا به وهو الحكيم الخبير في شؤون عباده، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: 173]، والصلاة والسلام على محمد نبيِّه وعبده، وعلى آله وصحبه وحزبه ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: 128].

أما بعد، فإنَّ من علامات الهداية ودلائل السعادة انشراح الصدر للعبادة وفق ما في الكتاب والسنَّة من خلق القرآن والنبوَّة، والتزام ذلك كالعقدة والعهدة، إذ المسلم مَن أراد الخروج وأعدَّ له عُدَّة، والمنافق مَن تهاون وخدع الله وخان عهده، وفي الحقيقة لم يَخدع ولم يَخن إلاَّ نفسه، إذ الإسلام أقوالٌ وأعمال وأركانٌ وأحوال، أمر بها الكبير المتعال، الإيمان ثم الصلاة والزكاة أفضل النوال، والصوم والحج من خير الفعال، وما زاد على ذلك فمن الأنفال.

. . . إلخ ما يناسب المقام.

الحديث: «**إن للإسلام صُوًى ومناراً كمنار الطريق**»[1].

في صحيح البخاري: «**المسلم مَن سلِم المسلمون من لسانه ويده**»[2].



(1) أخرجه الحاكم (52/64/1) في المستدرك من حديث أبي هريرة، وفي إسناده محمد بن أبي السري العسقلاني، قال الحافظ في التقريب: «صدوقٌ عارفٌ له أوهامٌ كثيرة». قلت: لكنه لم يتفرد به بل تابعه عليه جماعة يرتقي الحديث بهم إلى درجة الصحة. راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رحمه الله (330).

(2) أخرجه البخاري (11) وغيره من حديث جابر.



• في العلم والعلماء

الحمد لله الذي رفع الذين آمنوا مِنّا والذين أوتوا العلم درجات، وميّزهم في جميع الملل بأنواع الفضائل والشمائل المحسنات، وجعلهم سعادة الأقوام ونور الأيام فكانوا نجوم الاهتداء وعلامات، إذ رفعوا منار العلم وملكوا ينابيع الحكم فأنقذوا الخلق من ظلمة الجهل وسائر الظلمات، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات كانوا أصحاب الدرجات، وأشهد أنّ الله جلّ شأنه قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]، وأشهد أنّ محمداً رسول الله جاء بالعلم وحثَّ عليه وأمر به، وما قصّر قطّ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه، الذين اتبعوه في تلك الخِطط، وعلى مَن اقتدى بهم وسار على ذلك النّمط.

أما بعد، فإنَّ فضل العلم مسلَّم، وطلبُه فريضةٌ على كل مسلم، ويكفي أنه به يُعرف الله جلّ جلاله، وبه سعادة الإنسان وحياته الطيبة وجماله، إذ لا دار له غير دارين، ولا سعادة له سوى سعادتين، ولا سبيل إليهما والحصول عليهما إلاّ بالعلم والشهادتين، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152] فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم. وبالضرورة أن ما نشاهد من رِفعة الأمم وقوتها ووفور العمران لديها وما كان من العزّ والمنعة لها بل طلبت غيرها من الأمم الضعيفة بسبب الجهل فملكتها كان بالعلم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا

﴿عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 105] لها[1]، ومن جملة آيات العلم العصرية طيرانُ المراكب الجوية، وغوص المراكب البحرية، واستخراج المواد الأرضية، وكنوزها الكيماوية، مثل الأحجار الفحمية، والكهرباء الهوائية، وتقريب البعيد بالخطاب باللاسلكية، إن في ذلك لعبرة... إلخ.

إنَّ عفريت سليمان الذي عنده علمٌ من الكتاب أقوى وأسرع من العفريت الذي لا علم عنده[2].

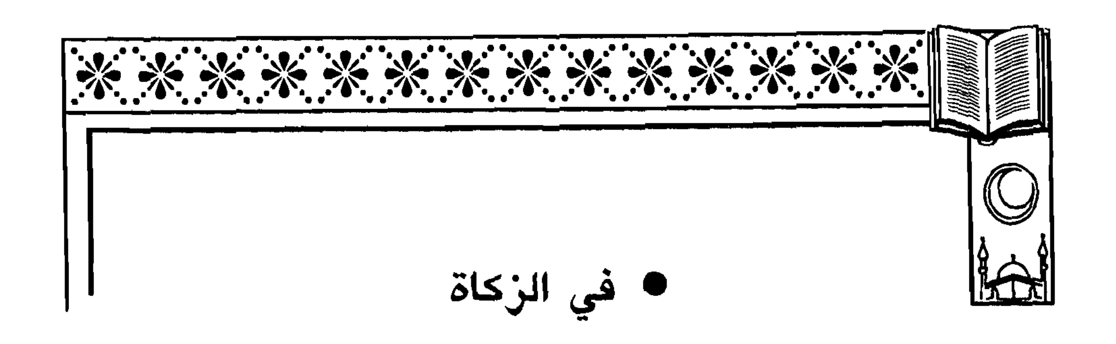
الحديث: «**فضلُ العالم على العابد كفضلي على أدنى رجلٍ من أصحابي**»[3].



(1) وهم أهل الإيمان والعمل الصالح من سائر الأمم من أتباع الرسل عامة كما في كتب التفسير، لا الكفار. راجع أيسر التفاسير لأبي بكر جابر الجزائري (447/3).

(2) دليله قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40].

(3) أخرجه الترمذي (2685) عن أبي أمامة بإسناد صحيح. وفي الباب عن أبي سعيد الخدري بأسانيد واهية.



• في الزكاة

الحمد لله الذي جعلنا في سابق علمه مسلمين، وبكتابه العزيز وسُنَّة رسوله عاملين، وعلى إقامة الصلاة المفروضة والمسنونة محافظين، وبالحقّ المعلوم للسائل والمحروم في أموالنا معترفين، وللزكاة على شروطها وآدابها فاعلين، وبوقوفنا لدى الله يوم الدين مصدّقين. وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، مالك يوم الدين، وأشهد أن محمداً رسول الله خاتم النبيين، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

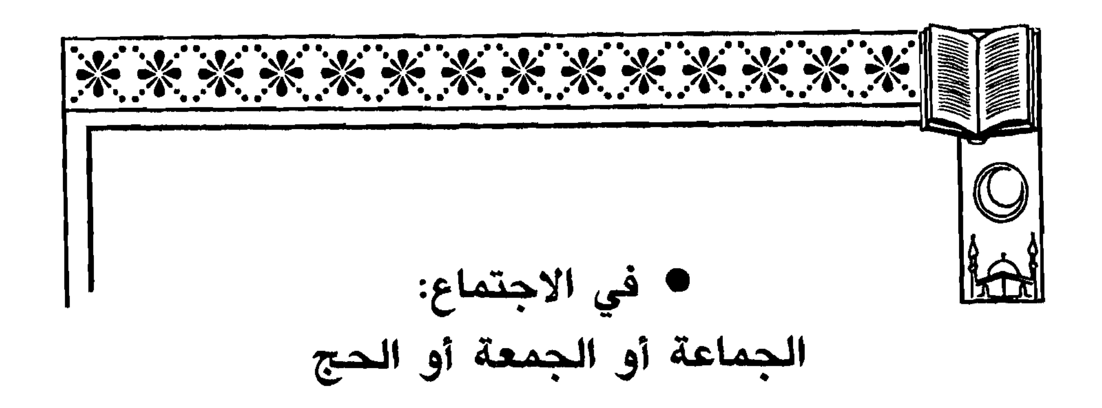
أما بعد، فإنّ الزكاة من أركان الإسلام الواجبة فإن أداءها تطهيرٌ وتنمية، وتركها عصيانٌ ومُروقٌ من أفعال أصحاب الردة يقاتلون عليها إلى أن يرجعوا إلى الطاعة، وذلك بأن في أموال الأغنياء حقوقاً لفقراء الأمة ليسود الأمن والنظام وتقلّ المجاعة، ولو أتى الأغنياء الزكاة ونظّمتها الدولة والحكومة لقلَّ العائل والسائل، ولكن حبُّ العاجلة وتسوُّلات النفوس الأمارة سبب الخراب والعداوة. والحال أنَّ الله جلَّ شأنه قال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿268﴾﴾ [البقرة: **268**]، إنّ مضرّة ترك الزكاة تعود على الهيئة الاجتماعية فهي إذاً مظلمة عامة واعتداءٌ على حقوق الأمة، فلذلك كثُرت الطوائف المطالبة عند غيرنا من الأمم الإفرنجية، فحدثت عندهم القولة بالاشتراكية، وهي مشكلةٌ قلبت روسيا ذات القياصرة وذلك لاحتكار الذهب والفضة والاحتواء على الأراضي الزراعية، فاشتدّ الضغط على الأمة فانفجرت دفعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿34﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿35﴾﴾ [التوبة: 34، 35].

وفي صحيح البخاري[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرَع له زبيبتان يُطوّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلِهزمَتَيه** - يعني: شِدْقَيه ثم يقول: **أنا مالُك أنا كنزُك**، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ [آل عمران: 180] الآية.



(1) البخاري (1403 و4565).



• في الاجتماع:
الجماعة أو الجمعة أو الحج

الحمد لله الذي جمع أوائلنا على الهدى وكانوا ضالين، وجعلنا من ذرِّيَّتهم ومن أهل ديانتهم فصرنا من المهتدين، وجمع شملنا المتفرق بفضل سيد المرسلين، وسنَّ لنا الجماعة وافترض علينا الجُمعة لنكون من المدنيين، ودعانا إلى الوقوف بعرفة ليُتمّ علينا نعمته ويكمّل لنا الدين، ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 3]، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: 2]، وأشهد أنّ محمداً رسول الله بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح في الدِّين، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين جاهدوا بمعيَّته ونزل في حقّهم: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: 138 ـ 139].

أما بعد، فإن كلّ عربيٍّ بالخصوص وكلّ مسلم بالعموم يعلم إذا كان من أهل العلم كيف كان العرب وكيف كانت الأمم قَبل الإسلام، أما العرب فكانوا على ما أخبرنا أصدق القائلين: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: 103]، وبقوله في حقّ نبيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: 107]، أي: كانوا متفرقين مختلفين متنابذين متعادين متخاذلين ومتحاربين لا دنيا ولا دين، فلا نظام ولا اجتماع ولا قوانين،

ففريقٌ منهم تحت الأكاسرة، وفريقٌ تحت القياصرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: 16]. ثم لما أرسل الله إليهم أخاهم محمداً ﷺ جبر كَسرهم، وكسر أصنامهم فآخى بينهم، ونظَّمهم بفضل الله وبرحمته ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 63]، فجعلهم أمةً خيرَ الأمم ذات مدنية عالية، وذات أحكام قرآنية ربانية وذات أخلاق فاضلة، ولما كان الإنسان مدنيّاً بالطبع ـ أي: يجتمع كما يقول الحكماء ـ جاء محمدٌ ﷺ بما ليس فوقه مطمَع، ولا بعده مرجِع، فأسّس للإسلام خمسة اجتماعات في اليوم، وافترض الجمعة اجتماعاً إجباريّاً للمكلفين في كل قرية مرة في الجمعة، وأسّس اجتماعاً آخر لعموم المسلمين في عرفة جبل بمكة المكرمة. وهذه الاجتماعات ليست للصلاة والحج فقط، بل للنظر والتدبّر والتعارف والتعاون والمؤاخاة والتآلف، لا كما نفعل في زمننا هذا من اجتماعنا للصلاة دون الصِلات والتعارف دون التآلف بل للتعدي والتخالف، وليُقال: حجّ واعتمر فلنعم الأمر، ولكنّه حجَّ واعتمر ولم يأتمِر، وهكذا أضعنا سرَّ الاجتماع، وجهلنا سُبُل الانتفاع، وفرّطنا في مدنية فاضلة، وتمسّكنا بمدنية سافلة، فأمسينا في ضلالة وسفاهة لتركنا العمل بالكتاب والسنَّة. لقد همّ رسول الله ﷺ أن يُحرِّق مَن تخلّف عن الجماعة والجمعة، وقال في الحج: «**مَن مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً**»[1].

الحديث: عن أبي نجيح العِرباض بن سارية رضي الله عنه قال:

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (14452/293/3) عن عمر موقوفاً بلفظ: «**مَن مات وهو موسر ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً...**» (الحديث)، ولا يثبت مرفوعاً كما في الموضوعات لابن الجوزي (121/2 ـ 122). وورد مرفوعا بلفظ: «**مَن ملك زاداً أو راحلةً تبلّغه إلى بيت الله تعالى ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً**» أخرجه الترمذي (816) عن علي رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي إسناده مقال، وهلال بن عبدالله مجهول والحارث يضعف في الحديث».
قلت: الحارث هو الأعور مشهورٌ بالضعف.

وعَظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلت منها القلوب، وذرَفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنّها موعظةُ مودِّع فأوصِنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله والسّمع والطّاعة وإن تأمّر عليكم عبدٌ فأطيعوه، فإنّه مَن يعش منكم فإنه سيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن ذلك بدعة وكل بدعةٍ ضلالة**»[1].



(1) أخرجه أحمد (4/126 ـ 127) وأبو داود (4607) والترمذي (2678) والحاكم (1/95) وقال: «صحيح ليس له علة» ووافقه الذهبي والألباني، وكذلك صححه جماعة من أهل العلم.



• خطبة في الحج

الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا وأتمّ علينا نعمته ورضي لنا الإسلام ديناً، وجعل البيت مثابةً للناس وأمناً، وصيّرنا ممن اتخذ من مقام إبراهيم مصلّى ووقف بعرفة وازدلف إلى المزدلفة وأصبح في منًى بلغ المُنى، وطاف بالمقامات العُلى التي مَن دخلها كان آمناً، والشكر له تعالى على ما هدانا إليه من الدين ومنحنا، والصلاة والسلام على نبيه الذي به هدايتنا، وعلى آله وصحبه الذين كانوا ولا يزالون خير قدوةٍ لنا.

أما بعد، فإن الحج من القواعد التي بها بناء الإسلام وكماله، وخاصته[1] الفرق بين المسلم وغيره فأكده الله تعالى بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]، وحذّر من الكفر مَن تركه من المؤمنين فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 97].

وفي الحديث: «**مَن مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً**»[2]، وأما فوائد الاجتماع فيه وتبادل المصالح بين المسلمين من أجله فمما لا يحاط به و لا يستقرأ من شؤونه، فهو معرضٌ ربانيٌّ عام، في كلّ عام موسم الغفران والرّضا والرّضوان، يجتمع فيه الإخوان ويعملون بقول الديّان: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2]،

---

(1) أي: ميزته.

(2) تقدم تخريجه ص(80).

فإنّ مَن يُحسن السّوم، وسبر غَور الأمس واليوم، فلا يفوته فضل ذلك اليوم يومُ الحجّ الأكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر.

الحديث: في الصحيحين: «**مَن حجّ هذا البيت فلم يَرفُث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدتهُ أمّه**»[1].

آخر: في الصحيحين أيضاً: «**العمرة إلى العمرة كفّارةٌ لما بينهما، والحجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلاّ الجنّة**»[2].



(1) البخاري (1819 ـ 1820) ومسلم (1350) عن أبي هريرة.

(2) البخاري (1773) ومسلم (1349) عن أبي هريرة.



• في الجماعة والدّيانة والوطنية

الحمد لله حقّ حمده، والصلاة والسلام على محمدٍ نبيِّه وعبده، الذي جاء بدين الحق ليظهره على الدين كلّه، وعلى آله وصحبه وحزبه، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم لقائه.

أما بعد، فإنّ الأمة بالجماعة والديانة والوطنية، وإن القُدور لا تُنصب إلاّ على هذه الثلاثة وكذلك القصور لا تُشاد إلاّ على هذه الدعامة، فالأمة العديمة هذه الثلاثة محكومٌ عليها أنها ذاهبة، ذلك بأنها لم تكن ذات هِبة. اعملوا رحمكم الله عليها، ولا يلومنّكم أحدٌ عنها، إذ بها الحياة، وعنها الممات، كيف وقد رأيتم الأمم تتكالب عليها وتستميت دونها.

عبادَ الله لا تكونوا ممن رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿88﴾﴾ [التوبة: 88]. ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 94]، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿19﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿20﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿21﴾﴾ [الحشر: 19 ـ 21].

الأحاديث:

- «**ألم آتكم بها نقيةً بيضاء، والله لو كان أخي موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي**»[1].

- «**إذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام**»[2].

---

(1) أخرجه أحمد (387/3) عن جابر بن عبدالله بإسناد حسن.

(2) أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (340/2) من طريق منصور بن أبي مزاحم ثنا محمد بن الخطاب عن علي بن زيد عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً بلفظ: «**إذا ذَلّت العرب...**».

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (53/10): «وفيه محمد بن الخطاب البصري ضعفه الأزدي وغيره ووثقه ابن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح».

قال الشيخ الغماري في المداوي (366/1): «وفيه أيضا علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف فكيف يكون الحديث صحيحاً!! ويستغرب من الحافظ الهيثمي في قوله: «وبقية رجاله رجال الصحيح» مع أن علي بن زيد بن جدعان ضعيف ولم يرو له مسلم إلا مقروناً بغيره فليس من رجال الصحيح».

والحديث حكم عليه الشيخ الألباني بالوضع فقال: «لولا أن في معناه ما يدل على بطلانه لاقتصرنا على تضعيفه»، ثم بيَّن ذلك في كلام جيد نثبته بطوله لنفاسته، قال رحمه الله: «ذلك أن الإسلام لا يرتبط عزه بالعرب فقط بل قد يعزه الله بغيرهم من المؤمنين كما وقع في زمان الدولة العثمانية لا سيما في أوائل أمرها فقد أعزَّ الله بهم الإسلام حتى امتد إلى أواسط أوروبا، ثم لما أخذوا يحيدون عن الشريعة إلى القوانين الأوروبية: يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير تقلص سلطانهم عن تلك البلاد وغيرها حتى لقد زال عن بلادهم، فلم يبق فيها من المظاهر التي تدل على إسلامهم إلا الشيء اليسير، فذلّ بذلك المسلمون جميعاً بعد عزهم ودخل الكفار بلادهم واستذلوهم إلا قليلاً منها، وهذه وإن سلمت من استعمارهم إياها ظاهراً، فهي تستعمرهم بالخفاء تحت ستار المشاريع الكثيرة كالاقتصاد ونحوه، فثبت أن الإسلام يعز ويذل بعز أهله وذله سواء كانوا عرباً أو عجماً «**ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**». فاللّهمّ أعِز المسلمين وألهمهم الرجوع إلى كتابك وسنَّة نبيك حتى تعز بهم الإسلام».

ثم قال: «بيد أن ذلك لا ينافي أن يكون جنس العرب أفضل من جنس سائر الأمم، بل هذا الذي أؤمن به وأعتقده وأدين الله به ـ وإن كنت ألبانياً ـ ذلك لأن ما ذكرته من أفضلية جنس العرب هو الذي عليه أهل السنَّة والجماعة ويدل عليه مجموعة من الأحاديث الواردة في هذا الباب... ولكن هذا ينبغي ألا يحمل العربي على الافتخار=

- «مَن غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي»[1].

- «مَن أهان قريشاً أهانه الله»[2].

- «حب الأوطان من الإيمان»[3].

= بجنسه، لأن ذلك من أمور الجاهلية التي أبطلها نبينا محمد العربي ﷺ، كما ينبغي أن لا نجهل السبب الذي به استحقّ العرب الأفضلية، وهو ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم، الأمر الذي أهّلهم لأن يكونوا حملة الدعوة الإسلامية إلى الأمم الأخرى، فإنه إذا عرف العربي هذا وحافظ عليه أمكنه أن يكون مثل سلفه عضواً صالحاً في حمل الدعوة الإسلامية، أما إذا هو تجرد من ذلك فليس له من الفضل شيء، بل الأعجمي الذي تخلّق بالأخلاق الإسلامية هو خير منه دون شك ولا ريب، إذ الفضل الحقيقي إنما هو اتباع ما بعث به محمد ﷺ من الإيمان والعلم فكل مَن كان فيه أمكن كان أفضل، والفضل إنما هو بالأسماء المحددة في الكتاب والسنَّة مثل الإسلام والإيمان والبر والتقوى والعلم والعمل الصالح والإحسان ونحو ذلك كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: «**مَن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**» رواه مسلم».

ثم قال: «ومن هنا يظهر ضلال مَن يدعو إلى العروبة وهو لا يتصف بشيء من خصائصها المفضلة، بل هو أوروبي قلباً وقالباً». اهـ من سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيِّئ على الأمة (**1/195 ـ 197**).

(1) أخرجه أحمد (**519**) والترمذي (**4/376**) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو معلولٌ سنداً ومتناً، وقال الشيخ الألباني: **موضوع** راجع السلسلة الضعيفة له (**2/24**).

(2) أخرجه أحمد (**1/64**) وابن حبان (**2288**) وغيرهما من حديث عثمان وفي إسناده عبيدالله بن عمرو بن موسى التيمي، قال العقيلي في الضعفاء (**270**): «لا يتابع على حديثه» وقال الذهبي: «فيه لين».

قلت: والحديث ورد من طرق يشد بعضها بعضاً عن سعد بن أبي وقاص وأنس بن مالك وابن عباس وعمرو بن العاص راجع بعضها في الصحيحة للألباني رقم: (**1178**).

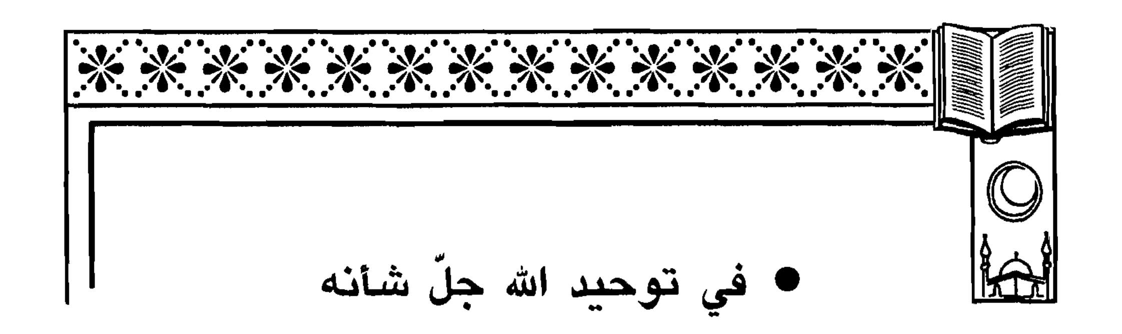
(3) لا أصل له كما قال غير واحدٍ من أهل العلم، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (**388**): «لم أقف عليه ومعناه صحيح»، قال الشيخ الألباني: «ومعناه غير مستقيم إذ أن حب الوطن كحب النفس والمال ونحوه، كل ذلك غريزيٌّ في الإنسان لا يمدح بحبه ولا هو من لوازم الإيمان، ألا ترى أن الناس كلهم مشتركون في هذا الحب لا فرق في ذلك بين مؤمنهم وكافرهم!!». اهـ من الضعيفة (**1/55**).

قلت: ويمكن توجيه قول السخاوي «ومعناه صحيح» على تقدير أن حب أوطان=

. . . .



= المسلمين من أجل الإسلام الذي فيها من الإيمان، وهو حينئذٍ حب في الله فيكون من أوثق عرى الإيمان كما صح في الحديث. قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: «حب الوطن إن كان إسلامياً فهذا تحبه لأنه إسلامي»، وقال أيضا: «إذا قاتلنا من أجل الوطن فقط لم يكن هناك فرق بيننا وبين الكافر لأنه أيضاً يقاتل من أجل وطنه والذي يقتل من أجل الدفاع عن الوطن فقط ليس بشهيد، ولكن الواجب أن نقاتل من أجل الإسلام في بلادنا أو من أجل وطننا لأنه إسلامي ندافع عن الإسلام الذي فيه، أما مجرد الوطنية فإنها نية باطلة لا تفيد الإسلام شيئاً، ولا فرق بين الإنسان الذي يقول: إنه مسلم والإنسان الذي يقول: إنه كافر إذا كان القتال من أجل الوطن لأنه وطن». اهـ من شرح رياض الصالحين له (51/1 ـ 52). وخلاصة القول: أن الوطنية رابطةٌ لا تغني بحالٍ عن الدين، ولا عبرة بها إذا خالفته.



• في توحيد الله جلّ شأنه

الحمد لله الأول بلا بداية، الآخر بلا نهاية ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: 3]، خلق السماوات والأرض وما بينهما في أيامٍ ستة، وخلق الإنسان من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: 78 - 79] فيا سعادة من ألهمه الطاعة وجانبه المعصية ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾ [الواقعة: 90 - 94]. ولا عذر لنا إذا أنزل علينا الكتاب والحكمة وبلغتنا الرسالة النبوية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 54].

وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً رسول الله سيّد الأنبياء والمرسلين ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: 128].

أما بعد، فيا أيها المؤمن، المعتبر والإنسان المتفكر، قد كان الله جلّ شأنه ولا شيء غيره، وخلق كلّ شيءٍ فقدّره، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ

﴿فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس: 12 ـ 23]، إنّ في ذلك لعبرة. وفي كلّ مخلوقٍ ومصنوعٍ من الأجرام العلوية والرّواسي الشامخة السفليّة أدلة على خالقٍ وصانعٍ، وهي له آية ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: 164].

ذكر أرباب فنّ الجغرافيا أنّ جُرم الشمس أكبر من جرم الأرض بأربع عشرة مائة ألف مرّة، والله قادرٌ على ذلك وزيادة، لهذا وردت السنّة بأنّ: «**تفكّر ساعة خير من عبادة سنة**»(1).

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: 191].

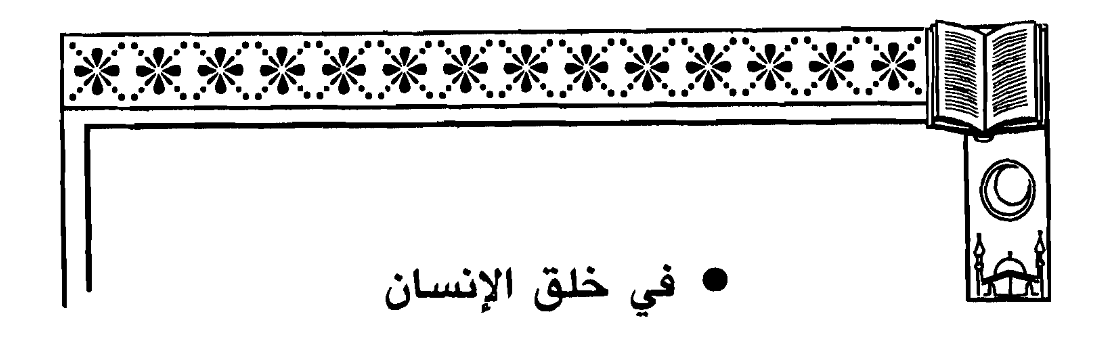
عبادَ الله عوِّدوا أنفسكم التفكير والتبصّر والتدبّر، وإياكم أن يصدُق عليكم ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: 105]. ولكن لا تتفكروا في الله جلّ شأنه بل تفكروا في خلقه.

الحديث: «**تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره**»(2).

---

(1) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (43/300/1) وابن الجوزي في الموضوعات (143/3 ـ 144) عن أبي هريرة بلفظ: «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة» وفي إسناده عثمان بن عبدالله القرشي وإسحاق بن نجيح الملطي وهما كذابان كما في الميزان وغيره، وأورده الغزالي في الإحياء والسيوطي في الجامع الصغير على خلاف شرطه.

(2) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (5/216/1) من حديث ابن عباس وفي إسناده رجل لم يسم فهو منقطع، ولكن له شواهد من حديث أبي ذر وابن عمر وعبدالله بن سلام وسيأتي ذكر بعضها، قال الشيخ الألباني: «الحديث بمجموع طرقه حسن عندي». اهـ من الصحيحة (1788).



• في خلق الإنسان

الحمد لله الذي بدأ خلقَ الإنسان من طين، ثم جعل نَسله من سُلالةٍ من ماءٍ مهين، ثم أنشأه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. فعظّم شأنه وأسجد له ملائكته ووكّل به كراماً كاتبين، وصيّره قابلاً لما يُلقى إليه من إلهامه ووحيه أو لوساويس الشياطين، وهداه النّجدَين طريقين متضادَين ليرى أيّهما يكون من السالكين، فمن التوفيق أن يسلك خير الطريق طريق عباد الله الصالحين، ومن الخذلان أن يسلك سبيل الشيطان ويتبع غير سبيل المؤمنين، سبحان مقدّر الأشياء لا يُسأل عما يشاء بيْد أنه وليُّ المتقين، والصلاة والسلام على الهادي المهتدي الأمين، وعلى آله وصحبه العالِمين بالكتاب المبين، وعلى مَن اتبعهم منّا إلى يوم الدين.

أما بعد، فإنّ من بديع خلق الله جلّ شأنه الإنسان، الذي عظّم شأنه وهو صورةٌ مُصغَّرة، تصلح للدنيا والآخرة، بخلاف غيرنا من المخلوقات، فالملائكة الكرام للسماوات، والشياطين والبهائم العجماوات للأراضي السفليات، فنرى أنفسنا مع الملائكة الكرام إذا صلحنا، ومع البهائم إذا غفلنا، ومع الشياطين إذا تمرّدنا، لذا ورد أن الملائكة العظام: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]. والشياطين عكس الملائكة لا يطيعون الله فيما يُؤمرون ولا يتوبون، والأناسي بين ذلك يطيعون الله ويفعلون ما يؤمرون وقد يعصون، ولكنهم يذّكروا ويتوبوا.

عباد الله فإنّ الإنسان ملِكٌ وملَكٌ باعتبار، وحيوانٌ وشيطانٌ باعتبار،

فكيف ينبغي له والحالة هذه أن يكون ملِكاً وقد أمكنه أن يكون ملَكاً، وكيف يكون شيطاناً وقد خُلق إنساناً ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿1﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿2﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿3﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿4﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿5﴾﴾ [الدهر: 1 ـ 5] إلخ.

الحديث: **«كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»**[1].



---

(1) سبق تخريجه ص(60).



● في تقوى الله وكلمة التقوى

الحمد لله الذي ألزم أوائلَنا كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها، وجعلها كلمةً باقيةً في عقِبهم إلى قيام الساعة التي لا ريب فيها وما أسعد مَن حفظها، وعمل بمقتضاها من آدابها ولوازمها، مقتفياً أثر أسلافه الصالحين من غير مخالفةٍ في الدّين ولا بدعةٍ يتدنّس بها، فيعمل بالكتاب والسنَّة شريعة النبوَّة نقيةً بيضاء فلا يعدِل عنها، وليكون من الطائفة الناجية الظاهرة على الحقّ لا يضرّها مَن خالفها. وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُرجّح ميزان قائلها، وأشهد أن محمداً رسول الله هو الذي جاءنا بها، ووصّانا بالإخلاص فيها، كما وصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب أن لا يموتوا إلاّ عنها. صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين التزموها ولازموها، إذ شهد الله لهم أنهم أحقّ بها وأهلها.

أما بعد، فيا أيها المسلمون، إنّ كلمة التقوى التي تركها لنا آباؤنا الأولون هي لا إلٰه إلاّ الله محمدٌ رسول الله، ترجمةُ الإيمان وبراءةٌ من النيران، ألزم الله بها أوائلنا فكان ذلك من سعادتهم، فورثناها عنهم فكنا مثلهم، وهي معاهدةٌ ومعاقدةٌ مع الله جلّ شأنه فألزمناها والتزمنا بها، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: 91]، عجباً والله ثم عجباً للمرء بالعموم وللمسلم بالخصوص يُمضي كتاباً مع عبدٍ مثله فيوفّي به ولو خشية أن يُجنى عليه، أليس من باب أحرى وأولى أن يعمل مثل ذلك مع خالقه، فالإسلام عهدٌ عند الله وعند رسوله، وتقوى الله مراقبة العبد الله

وخشيته إيّاه في سرّه وإعلانه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ [الطلاق: 5].

وقد ورد في الصحيح أنّ لله تعالى حقّاً على عبده أن يعبده ولا يشرك به، وأنّ للعبد حقّاً على الله أن يدخله إلى الجنة ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111].

الحديث: «**اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحُها وخالق الناس بخُلُقٍ حسن**»[1].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تزال لا إلٰه إلاّ الله تنفع مَن قالها ما لم يستخفّوا بحقّها**»، قالوا: يا رسول الله، وما الاستخفاف بحقّها؟ قال: «**يظهر العمل بمعاصي الله تعالى ولا يغيّر**»[2].



(1) أخرجه أحمد (21354/284/35 ـ الرسالة) والترمذي (1987) وغيرهما عن أبي ذر بإسناد صحيح.

(2) أخرجه الحاكم أبو عبدالله النيسابوري في تاريخ نيسابور عن أبان عن أنس كما في الكنز للمتقي الهندي (233)، وأبان هو ابن أبي عياش متروك الحديث، فالإسناد ضعيف جدّاً.

والشيخ رحمه الله ترك الأحاديث الصحيحة الورادة في الباب في الصحيحين وغيرهما من الدواوين واستبدله بحديث منكر اللفظ واهي الإسناد أخرجه الحاكم في «تاريخ نيسابور» وهو كتاب يقال: أنه مفقود ولم يتفرد إلا بالأحاديث الضعيفة المنكرة، ثم هو ليس كتاباً حديثيّاً يستحق العزو إليه اللّهمّ إلا على سبيل الاستشهاد أو الإغراب!! ولا شك أن مصدره كتاب الإحياء للغزالي. وعلى كل حال فالحديث يغني عنه ما ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**» وهو حديث متواتر.



• في الصيام

الحمد لله الذي جعلنا ممّن رضيَ لهم الإسلام ديناً فاهتدوا إليه حيناً وأولئك هم المهتدون، ووفَّقنا أن نوحّده ولا نشرك به أحداً ونعبده إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون، وجعل الصيام من أركان الإسلام فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿183﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿184﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿185﴾﴾ [البقرة: **183 ـ 185**].

وكان من فضله وكرمه تعالى أنه للدعاء في رمضان مجيب إذ قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿186﴾﴾ [البقرة: **186**].

والصلاة والسلام على سيّد البشر الشّفيع المشفّع يوم المحشر الذي يغبطه في أمته إخوانه المرسلون.

أما بعد، فإنّ أسرار الصيام والقيام لا يدركها القوم النيام، إنما يدركها

الرجال العظام، الذين رقت بهم المدارك إلى صفة الملائكة الكرام، وترفّعوا عن درجة بهيمة الأنعام، فغلبوا المعنى على المادّة، وأقبلوا على العبادة، فنالوا السعادة الأبدية التي هي الغاية المطلوبة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: 56].

عبادَ الله إنّ الصيام صبر، والصبرُ شهامةٌ وثباتٌ ومقاومة، والثبات والمقاومة من الشجاعة. أليس من العار والذلّ والصَّغار أن يرتكب المرء المرُوق لمجرد لقمةٍ تروق!! وما ذلك إلا للجُبن وضعف الإرادة وسقوط الهمّة وفقدان العزيمة. وهب أنه محصور في قلعة أو حذّره حكيمٌ من تُخمة وأمره بالحِميّة ألا تجب عليه المقاومة ؟! ألا يخشى مَغبّة التخمة؟! ألا يعلم أن الحِمية من الغيرة، والحَميّة والشر مذمة ومندمة، ومخالفة الحكيم العليم مأثمة؟! وقد اكتشف الطبّ الحديث أنّ من الأمراض ما لا دواء له إلا بالجوع، وليعلم المرء نعمة الله عليه الذي أطعمه من جوع، وليتذكر ما ذاق الفقير من عذاب الجوع. ولمصالح الجوع ومعانيه جعله من أركان الإسلام وفوائده، وهو جُنّة ووقاية من النار والغواية.

الحديث: «**إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع**»(1).

«**لكل شيء باب وباب العبادة الصوم**»(2).

---

(1) أخرجه البخاري (7171) ومسلم (2184) من حديث أنس وصفية بنت حيي من دون زيادة: «**فضيقوا مجاريه بالجوع**»، قال الشيخ الألباني في التعليق على رسالة الصيام لابن تيمية ص(56): «ولا أعلم لها أصلاً في شيء من كتب السنَّة المطبوعة أو المخطوطة، وإنما ذكرها الغزالي في موضعين من كتابه الإحياء (208/1 و70/3) وأشار مخرجه الحافظ العراقي إلى أنه لا أصل لها...».

(2) أخرجه أبو الشيخ عن أبي الدرداء كما في الزيادة على الجامع الصغير للسيوطي، ولم أقف على إسناده لأنظره، وبيض له الألباني أيضاً وأورده في ضعيف الجامع (4720) حسب منهجه في الأحاديث التي لم يقف لها على إسناد كما شرحه في المقدمة ـ وفي ذلك نظر ليس محله الآن ـ.

والحديث ورد بلفظ: «**إن لكل شيء باباً...**» أخرجه هناد عن ضمرة بن حبيب=

. . . .



= مرسلاً كما في الجامع الصغير، وقال المناوي في الفيض (509/2): «قال الحافظ العراقي: أخرجه ابن المبارك في الزهد وأبو الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف».

قال الغماري في المداوي (526/2): «الحديث عند ابن المبارك في الزهد كما عند هناد.. وهكذا أيضاً أخرجه القضاعي في مسند الشهاب من طريق ابن المبارك، أما وصله عند أبي الشيخ فكأن بعض رجال الإسناد الضعفاء عند أبي الشيخ قبل ابن المبارك وصله عنه».

قلت: ولا شك في ذلك فإنه لو حُفظ موصولاً لكان هنادٌ وابن المبارك من أولى الناس به.



● في المعراج

الحمد لله الذي شرّف نبينا محمداً ﷺ وأعلى شأنه في الملأ الأعلى ورفع ذكره، أن دعاه إلى حضرته القُدسية ليكرمه ويقربه إليه ويعظم قدره، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: 1]، فأرسل إليه البُراق مخترقاً السبع الطباق فكان جبريل وميكائيل معه، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿8﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿9﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿10﴾﴾ [النجم: 8 ـ 10]. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿18﴾﴾ [النجم: 18] فخابت اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، فلا شبهة ولا مماراة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيّدُ الأنبياء المرسلة، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام البررة.

أما بعد، فإنّ معجزة الإسراء وتلك الخارقة الكبرى، مما دلّ على رتبة نبيّنا ﷺ أنها عظيمة وأنّ أمته المرضية على تلك النسبة، إذ صحّ الإسراء بدليل الآية وصلّى بالأنبياء في إيليا ثم عرّج إلى السماء فإلى سدرة المنتهى ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿16﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿17﴾﴾ [النجم: 16، 17]، وهناك افترضت الصلوات الخمس التي كانت خمسين فكان ذلك رفقاً بالمسلمين، والخلاف الذي جرى في صورة الإسراء ذكره المفسرون في سورة الإسراء أبالروح فقط؟ أم بالجسد؟ والأصحّ أنه بالجسد وقدرة الله لذلك صالحة، وكذلك الرؤية فإنها جائزة. وكان المعراج في ليلة السابع والعشرين من رجب وهو اليوم الذي أهبط الله جبريل عليه السلام بالرسالة

إلى نبيّنا ﷺ، وكان ذلك بمكة المكرمة قبل الهجرة فورد في هذه الليلة المباركة فضلٌ كبير[1].

الحديث: «**إن في رجب يوماً وليلة مَن صام ذلك اليوم وقام تلك اللّيلة كان كمن صام مائةَ عام وقامها وهي لثلاثٍ بقينَ من رجب**»[2].



(1) لا يثبت في فضل رجب شيء كما نص على ذلك أهل الحديث، وألّف في ذلك جماعة منهم.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (393/7 ـ 3530/394) وفي إسناده خالد بن الهياج بن بسطام وأبوه وهما ضعيفان، وقال ابن حجر في تبيين العجب ص(30): «هذا الحديث منكر إلى الغاية...».



• في الأشهر الحُرُم والعبادة

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيام ثم استوى على العرش في عليائه، و﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62] من عباده، ووفّق للعبادة مَن أراد بهم خيراً من أوليائه، وخذل عن الهدى من قضى عليهم بالرّدى فكانوا من أعدائه، سبحانه مقدّر الأمور بقدرته وإرادته، بيْد أنّه تعالى أمرَ أن نذكّر بأيامه ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: 36]، فكان رجب الفرد مُشرّفاً بالإسناد إليه، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وعلى آله وصحبه أولي الفضل وأصفيائه.

أما بعد، فإنّ الأشهر الحرُم لها عنايةٌ وحرمة زيادةً على سائر أشهر السنة، وذلك أنّ حكمة الله جلّ شأنه اقتضت الفاضل والمفضول في كلّ ما هو له ولا شيء قبله ولا بعده، فضّل في الأزمنة مولد النبيّ والعيدين والجمعة والليالي العشر ويوم عرفة والأشهر الحُرُم، المحرّم وذو القعدة وذو الحجة ورجب الفرد شهرُ الله. وكانت العرب تحترم هذه الأشهر في الجاهلية والإسلام حتى إنّ أحدهم ليلقى قاتل أبيه فلا يُغِير عليه مراعاةً لهذا الاحترام، وكانت حالتهم ومعيشتهم القتال والغارة، فإذا جاء الشهر الحرام وضعوا الأسلحة. وجاء الإسلام فأقرّهم عليه فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ [البقرة: 217]، وأصلح ما أحدثوا من التبديل والتغيير من النّسيء ذلك الكفر الكبير،

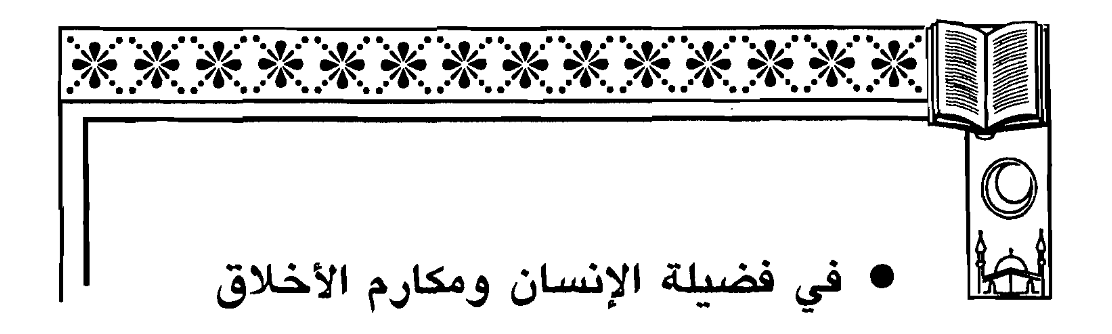
فالإسلام الذي أكرمنا الله به وفضّلنا على الأمم بسببه جاء بالإصلاح العام، فيلزم إذن أن نعمل به ونقتدي بفعله في كلّ ما يظهر الإصلاح في شأنه.

عبادَ الله اعملوا بالطاعة واتركوا المعصية مراعاة لهذه الأشهر وما لها من الحرمة.

الحديث: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، أربعة حرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مُضَر الذي بين جُمادى وشعبان**»[1].



(1) قطعة من حديث خطبة حجة الوداع وقد سبق تخريجه. انظر ص(53).



• في فضيلة الإنسان ومكارم الأخلاق

الحمد لله الذي كرّم بني آدم وحملهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات وفضّلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، وجعلهم قابلين لما يعرِض لهم من خيرٍ أو شرٍّ وجميع ما ينشئون منه جليلاً كان أو رذيلاً، وخصّص مَن سبقت لهم منه الحسنى بمكارم الأخلاق ونفائس الأعلاق تخصيصاً جميلاً، إذ توزن الأعمال وتُحمل الأثقال ولا يظلمون فتيلاً، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٧٢﴾ [الإسراء: 72]. وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تكون لطريق الجنة دليلاً، وأشهد أن محمداً رسول الله جاءنا نبيّاً ورسولاً، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تركوا فينا ذكراً جميلاً.

أما بعد، فإنّ الله جلّ شأنه كرّم بني آدم وفضّلهم في جميع شؤونهم وأحوالهم وأفعالهم الإنسانية حتى في صُوَرهم على كثيرٍ سوى فريقٍ من الملائكة الكرام، ذلك بمحض الفضل منه على الأنام، ولكن العبرة بالخلق الكرم الدائم والدين الحنيف القيّم والاهتداء إلى الصراط المستقيم، للحديث: «**إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[1]، بل قال أصدق القائلين: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 13] إنّما الإنسان أو الجماعة أو الأمة الأخلاق، وفي الآخرة عند الله الخلاق.

عبادَ الله قيمةُ المرء وقدرُه وحسَبه وجاهه ورفعته ومنزلته عند الله وعند

---

(1) أخرجه مسلم (2564).

الناس هي خُلُقه، ومَن ذا منّا لا يرغب في ذلك أو لا يحرص عمّا هنالك، ولا تستوي المحمدةُ والمذمّة ولا المفخرةُ والمعرّة، ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿34﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿35﴾﴾ [فصلت: 34، 35].

الحديث: «**ما حسّن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار أبداً**»(1).

وقال ﷺ: «**المؤمن ألف مألوف لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»(2).

وقال رسول الله ﷺ: «**أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق**»(3).



---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (8038) وابن عدي في الكامل (81/3) عن أبي هريرة وفي إسناده داود بن فراهيج ضعيف كما في اللسان (520/2 ـ 521).

(2) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (87/8): «أخرجه أحمد والطبراني وفيه مصعب بن ثابت».
قلت: قال ابن حجر في التقريب: «لين الحديث» ومع ذلك فلم يتفرد به، وللحديث شواهد أوردها الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (426، 427).

(3) أخرجه أحمد (291/2 و392 و442) والترمذي (361/1) عن يزيد بن عبدالرحمٰن الأودي عن أبي هريرة مرفوعاً.
وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».
قال الألباني: «وإسناده حسن فإن يزيد هذا وثقه ابن حبان والعجلي وروى عنه جماعة». اهـ. من الصحيحة برقم (977).



• في الأسباب والمعاملة

الحمد لله مسبّبِ الأسباب، الآمر بها في كل باب من الأبواب، إذ كلّفنا تعالى بسبب العقل لنتخذ الأسباب، وبسبب الشريعة نقف على الخطأ والصواب، بما أوتينا من الكتاب ذلك الكتاب وما الكتاب، الكتاب الذي جاء بالحكمة وفصلَ الخطاب، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: 269]، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له هو الملهم للصواب، وأشهد أنّ محمداً رسول الله جاء بالهدى وعنده علم الكتاب، صلّى الله عليه وعلى آله والأصحاب، صلاةً دائمةً مستمرةً إلى يوم الإياب.

أما بعد، فإنّ العمل بالأسباب ممّا جاء به الكتاب، والعامل يثاب والتارك يعاقب ويعاب، كيف يحصد مَن لم يحرث ويزرع؟! وكيف يحلب مَن ليس له ضرع؟! فالأسباب وسائلٌ إلى مطالب الشرع، وتركها تقصيرٌ فيه وفيما يعود بالنفع، ولا يلتبسنّ عليكم التوكل بالكسل فإنّ الغدوّ في الأسباب والسعي هو عين التوكل، وما عدا هذا فهو غرورٌ وتعطّل. وكذلك من أسباب الاجتماع المدني وتضامنه الأمّي[1] العمراني. وهنا يظهر سرّ حثّه ﷺ وحرصه على الجماعة، حتى لقد همّ أن يحرّق بالنار مَن تخلف عنها بالإضاعة، وليس المقصود من الصلاة والاجتماع لها الركوع والسجود فقط، بل هناك مشاريع وشؤون وخطط، كعقد الشركات والتعارف والمضاربات،

(1) نسبة إلى أمة النبيّ ﷺ كما فسّره ابن عبد ربه في العقد الفريد (155/4).

وكذلك تلزم العلوم والمعارف وكلّ ذلك بالعلوم والاجتماع والتآلف، وبدون هذا فالأمر فيه غرور ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: 5].

الحديث: «**عليكم بالتجارة فإن فيها تسع أعشار الرزق**»[1].

وقال ﷺ: «**لئن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره خيرٌ من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله أعطاه أو منعه**»[2].

وقال ﷺ: «**مَن فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر**»[3].

---

(1) أورده بهذا اللفظ الغزالي في الإحياء، وابن السبكي في فصل في أحاديث الإحياء التي لم يجد لها أصلاً كما في طبقات الشافعية له (**6/311**)، وقال الحافظ العراقي في التخريج (**2/64**): «أخرجه إبراهيم الحربي في غريب الحديث من حديث نعيم بن عبدالرحمٰن: تسعة أعشار الرزق في التجارة. ونعيم هذا قال فيه ابن منده: ذكر في الصحابة ولا يصح، وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان إنه تابعي فالحديث مرسل».

قلت: هو بهذا اللفظ عند سعيد بن منصور في سننه عن نعيم بن عبدالرحمٰن ويحيى بن جابر كلاهما مرسلاً كما في الجامع الصغير، والمرسل من أقسام الحديث الضعيف كما هو مقررٌ في كتب المصطلح.

(2) أخرجه البخاري (**1470**) ومسلم (**1042**) عن أبي هريرة.

(3) أورده الغزالي في الإحياء (**2/57**) ولا أصل له بهذا اللفظ، وقال مخرجه العراقي: «رواه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنصاري: «**ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر**»، وقال: حسن صحيح».

قال الألباني: «هكذا أخرجه الترمذي (**3/262 ـ 263**) وكذا أحمد (**4/231**) وفيه يونس بن خباب وهو متهم. لكن له شواهد يرقى بها إلى درجة الحسن على الأقل». اهـ من الضعيفة (**3/586/1383**).

قلت: قد صحَّ من حديث أبي هريرة، أخرجه أحمد (**2/436**) والبيهقي في شعب الإيمان (**8072**) من طريق ابن عجلان أنبأنا سعيد المقبري عن أبي هريرة يرفعه بلفظ: «**ثلاث أعلم أنهن حق: ما عفا امرؤ من مظلمة إلا زاده الله تعالى بها عزاً، وما فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا زاده الله تعالى بها فقراً، وما فتح رجل على نفسه باب صدقة يبتغي بها وجه الله تعالى إلا زاده الله كثرة**». واللفظ للبيهقي. =

. . . .



= قال الألباني بعد تخريج رواية أحمد: «وإسناده جيد» انظر الصحيحة (5/271/2231).

قلت: رواية البيهقي المذكورة بيض لها الألباني رحمه الله فحشرها ضمن أحاديث ضعيف الجامع (2520) على حسب قاعدته في الأحاديث التي لم يقف لها على إسناد وهي هي. على أن قاعدته السابقة غير مطردة، ثم علمت أن الشيخ رحمه الله قد تراجع عنها باستدراكه تصحيح بعض أحاديث ضعيف الجامع التي لم يقف لها على إسناد، وانظر كذلك مقدمة الطبعة الجديدة لكتاب صحيح الترغيب والترهيب له.



• في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الحمد لله الذي أمرنا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وجعل لنا كتابه حكَماً عنده فلا نخطأ ما تمسكنا به ولا نعثر، وأخبرنا تعالى أنّه يرضى لنا أن نشكر ولا يرضى لعباده الكفر، فكان ذلك نعمةً من عنده كذلك يجزي مَن شكر، ولقد أنذر بطشته كل مَن تعاطى فعقر ولقد جاءنا من الأنباء ما فيه مزدجر. والصلاة والسلام على سيّد البشر الشّفيع المشفّع يوم المحشر، وعلى آله وصحبه العاملين بما أمر، المنتهين عمّا نهى عنه وزجر.

أما بعد، فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمرٌ جليل وخطيرٌ في الإسلام لا يُنكر، وبه أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، وما تركَت أمةٌ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلاّ عمّهم الله بعذابٍ من عنده ليسوا منه بناجين، وقد جرى العمل بهذه الوظيفة مدّة الخلافة العربية القرشية وسقطت بسقوطها بالمرّة، وذهب المعروف وبقي المنكر فلا تفي خطبة خاطب ولا كتابة كاتب بما أصاب الأمة من هذه الطّامة، وهذه الوظيفة هي المعروفة بالحسبة يتولاّها العلماء الأعلام خيار الأمة بإيعاز من قضاة الشريعة، فيزجرون العُصاة ويجلدون البغاة ويدفعون العتاة ويوبّخون القساة، ولكم تبدّلت النعم بالنقم ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: 30]، أرأيتم ما نحن فيه من البدع والمنكرات في جميع المشاريع والشوارع الأدبيات والماديات، ونمرّ عليها معرضين أينفعنا ذلك ونكون سالمين؟! نعم قد نعجز عن تغييره ولكن لا نعجز عن تنكيره،

ويوجد لكلّ رجلٍ منّا في بيته وداره ويقع في أهله وولده، فإنّ زيارة النساء الكهانين والمنجمين والدجّالين ونذورهن للصالحين، وإسناد الحوادث إليهم والتعلق بهم دون الله والإيمان بهم لا بالله، والخوف منهم أكثر من الله والعمل بالسّحر والطّلّسمات ونحو ذلك من الأباطيل والخرافات مما يُحبط الأعمال والحسنات، وكذلك فحش الأولاد وتفحّشهم وقِحَتهم وسِبابهم وفُسوقهم لممّا يُسخط الله. ما عذر الرجل في أهله وولده إن كان له عذر في مثله وندّه، أوليس الحكم في يده؟! فكيف يكون جوابه لربه ممّا جاء في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6]، لو يقوم الخضر وموسى كليم الله لطلّق موسى نساءكم وحرّمهنّ عليكم، ولقتل الخضر أولادكم كيلا يرهقوكم طغياناً وكفراً.

عبادَ الله كونوا إخواناً وتناهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمر ولا تتبعوا سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وهل سمعتم ما يُتلى عليكم في كتابكم ممّا أنزل في مثل هذا الشأن فيمن قبلكم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ (78) كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (79)﴾ [المائدة: 78، 79].

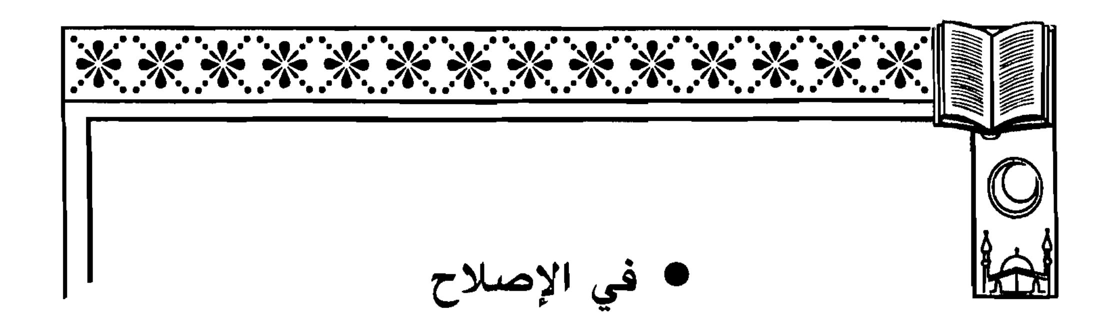
عبادَ الله اجعلوا أعمالكم من باب التخلية والتحلية، فلا يليق التحلّي بالفضائل دون التخلّي عن الرذائل، كيف تصوّفتم وما تفقّهتم؟! وكيف تعبّدتم وما وحّدتم؟! وكيف أسلمتم وما سلّمتم؟! وكيف تزبّبتم وما تعنّبتم؟! فعلام أسّستم بنيانكم؟ وعلام دعّمتم قواعدكم؟ وعلام أجريتم سُفنكم ولا ماء لكم ولا ربّان لدفّة سفنكم؟! ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾ [البقرة: 214]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا (70) يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [الأحزاب: 70، 71].

الحديث: عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ

قال: «**عُذّب أهلُ قريةٍ فيها ثمانيةَ عشرَ ألفاً، عملهم عملُ الأنبياء**». قالوا: يا رسول الله، كيف؟ قال: «**لم يكونوا يغضبون لله ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر**»[1].



(1) أورده الغزالي في الإحياء (2/273) وابن السبكي في طبقات الشافعية (6/311) في فصل في أحاديث الإحياء التي لم يجد لها إسناداً.



• في الإصلاح

إنّ الحمد لله الذي قال: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]، ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ⑪﴾ [المؤمنون: 11]، وجعلوا الدنيا مزرعةَ الآخرة هم لها عاملون، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون، أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون. وأشهد أن لا إلـٰه إلاّ الله وحده لا شريك له شهادةَ الذين هم بربهم لا يشركون، ويعملون بالثبات أعمال مَن ليسوا على أعقابهم ينكصون، وأشهد أنّ محمداً رسول الله جاء بالإصلاح العام لقوم يعلمون، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين يؤتون ما أُتوا وقلوبهم وَجِلة إنّهم إلى ربهم راجعون.

أما بعد، فإنّ الإصلاح والاستجداد[1] كان من أعمال الأجداد، الذين أورثهم الله الأرض والبلاد، وحرّروا العباد من رِبقة الاستعباد، إذ كانوا صالحين ولم يبغوا في الأرض الفساد، فمكّنهم الله في الأرض فأقاموا الحدود بالعدل والسداد، ذلك بأنهم اتبعوا الرسول فهداهم سبيل الرشاد، وترك فيهم كتاباً يتلى فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ⑦ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ⑧ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ⑩ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ⑪ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ⑭﴾ [الفجر: 6 ـ 14]. ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ

(1) من التجديد.

وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: 31].

عبادَ الله كيف تولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يُضلِلِ الله فما له من هاد، اعلموا أن جميع شؤوننا الدنيوية والدينية أيضاً تحتاج إلى الإصلاح بما طرأ عليها من الفساد، وأنّ ديننا جاء بالإصلاح لما أفسده من قبلنا من العباد، وأنّ الرُّقي والإصلاح أمران ضروريان لا ينبغي فيهما العناد، أفلا نعتبر بمن معنا من الأمم ذوات التقدم والإسعاد؟! أيكفينا هذا أم نحتاج إلى الاستشهاد؟! لقد كدنا يصدُق علينا ما صدق على بني إسرائيل من قبلنا كما قصّ ذلك علينا قرآننا ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: 168 ـ 170].

الحديث: «**إنّ الدنيا حلوةٌ خضِرة وإنّ الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون**»[1].



(1) أخرجه مسلم (2742) عن أبي سعيد الخدري.



• في الاعتبار

الحمد لله المتصف بالكمال الدائم بلا زوال، المستحيل عنه التحوّل والانتقال، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، وهو الوليُّ الكبيرُ المتعال، ذو الإحسان والإفضال، ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ [الشورى: 12]، يُلهم عبده البرّ إتيان أعمال البرّ، وهو الحكيم الخبير ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿49﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿50﴾﴾ [الشورى: 49، 50]، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له في صفات الذات والأفعال، ولا مماثل له بما يخطر بالبال، ولا ضدّ ولا ندّ ولا وزير، وأشهد أنّ محمداً رسول الله سيّد الأنبياء المرسلة، ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ﴾ [المائدة: 19]، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي الجِدّ والتشمير.

أما بعد، فإنّ سير الفَلك ودورانَه وتقدّم الإنسانِ في سنّه ونقصانه لعبرةٌ لأولي الأبصار ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿190﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿191﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿192﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿193﴾﴾ [آل عمران: 190 ـ 193].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)﴾ [البقرة: 164].

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185].

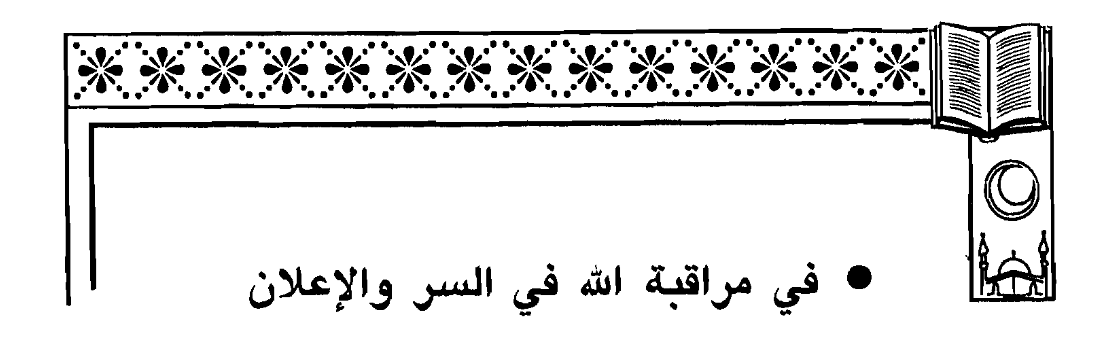
أيها العاقل، تفكّر في خلق الله ولا تكن عنه بغافل، واستدلّ على الصانع بالصَّنعة وأنت إنسان كامل، وإياك أن تنظر إلى الأشياء نظر مَن لا يعقل أو الجاهل، فيصدُق عليك هذا الذمّ فتندم يوم لا ينفع الندم وهو ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (106)﴾ [يوسف: 105، 106]، فإنّ الاعتبار شأن ذوي البصائر والأبصار، فاقتد بالأنبياء وسائر الأولياء والأصفياء ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: 13].

عبادَ الله إنّ الاعتبار يورث المعرفة والمعرفة هي ميزة الإنسانية عن الحيوانية.

الحديث: «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا**»[1].



(1) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (214/1 ـ 4/215) عن أبي ذر، وله شواهد سبق الإشارة إليها انظر ص(89).



• في مراقبة الله في السر والإعلان

الحمد لله العالم بالخفيّات، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماوات، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور من الحسنات والسيئات، يَجزي المتقين على الحسنات بالحسنات، ويُعاقب العُصاة على المعاصي إن شاء أو يتوب عليهم صفحاً عن الزلات، إذ ليس سواء المعاصي والطاعات ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: 21]، أليس سواءً المحيا والممات؟ والصلاة والسلام على الرسول المؤيَّد بالمعجزات صاحب الآيات البيِّنات، وعلى آله وصحبه الهداة الثِّقات.

أما بعد، فبما أنّ الله جلّ جلاله قائمٌ على كل نفس بما كسبت، رقيبٌ على كلّ جارحةٍ بما جرحت، فعلام الاستخفاء والخُدعة؟! أيخادع المرء نفسه أم هناك بين منزلتين منزلة؟! لا تخفى منكم خافية، وكيف تستخفون من الناس ولا تستخفون من الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: 16]، ولا تكونوا ممّن غرّتهم الأماني حتّى جاء أمر الله، واخشوا يوماً لا يؤخذ منكم فدية، فمن أعظم نعم الله الإيمان والمعرفة اللذان مسكنهما صدر النفس الزكية الطيبة التي هي: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: 35].

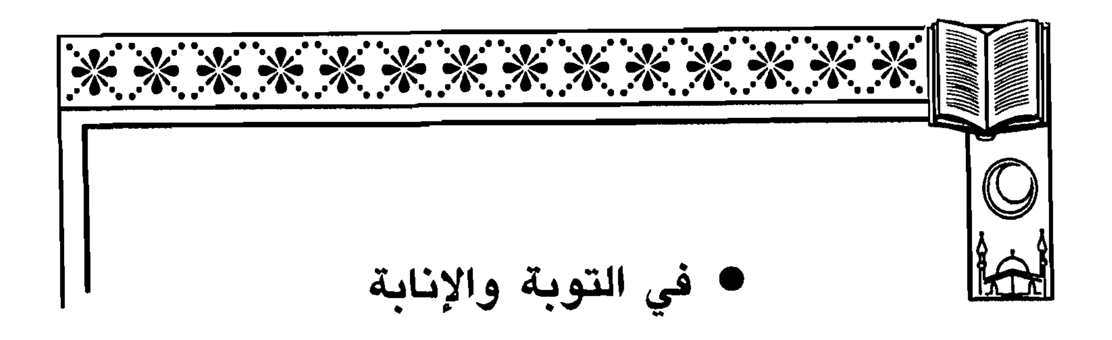
عبادَ الله، اجعلوا مراقبتكم لمن لا تغيبون عن نظره إليكم، واجعلوا شكركم لمن لا تنقطع نعمه عليكم، واجعلوا طاعتكم لمن بيده أمركم،

واجعلوا خضوعكم لمن لا تخرجون عن ملكه وسلطانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: 24]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (27)﴾ [الأنفال: 27]، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21)﴾ [الأنفال: 20، 21].

الحديث: «**اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(1).



(1) أخرجه بهذا اللفظ أبو نُعيم في الحلية (8/202 ـ 203) عن زيد بن أرقم، وفي إسناده مَن لا يُعرف، لكن له شواهد تعضده، راجع الصحيحة للألباني (حديث رقم: 1474 وما بعده). وأصل الحديث في الصحيحين وغيرهما، وهو قطعةٌ من حديث جبريل المشهور بلفظ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه...**».



• في التوبة والإنابة

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويعلم ما يفعلون ويستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويزيدهم من فضله والكافرين لهم عذابٌ شديد بما اجترحوا من السيئات، ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ﴾ [العنكبوت: 5]، ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ﴾ [العنكبوت: 6]، إن الله يجزي الحسنة بالحسنات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: 114]، أحمده تعالى وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات الله عليه وسلامه، وعلى آله وصحبه رضا الله ورضوانه.

أما بعد، فإنّ التوبة من لطف الله بعباده ومن عنايته بهم وإحسانه، إذ الإنسان مخلوقٌ خلقةً قابلةً للعالم العُلوي باعتبار، وللعالم السّفلي لأنه من صلصال كالفخار، وفي أحوال كأنّه شيطانٌ من مارجٍ من نار، فلا غرور إذا أذنب واجترم، وتلك شِنشِنةٌ نعرفها من أخزم، ومَن يشابه أبَه فما ظلم، ولقد قارعَ أبوه آدم سِنّ النّدم ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: 121، 122]. فالملائكة معصومون ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]، ولا هم إلى التوبة يضطرّون، والشياطين متمرّدون لا يطيعون الله ما أمرهم فلا يتوبون، ولا هم يذّكرون، والآدميون يطيعون الله ويعصون ولكنّهم يذّكرون ويتوبون، والملائكة أصدقاؤنا فالشّرع والعقل يقضيان بالإلحاق بالملائكة الكرام، والتباعد عن الشياطين الأعداء اللّئام، كيف لا والله جلّ شأنه

حذرنا قائلاً: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6]، ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: 256].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿6﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿7﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿8﴾﴾ [الانفطار: 6 ـ 8] من التقويم، ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31]، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]، إذ لا بدّ للآدمي من إحدى النارين نار الندامة والتوبة أو نار جهنّم الهاوية، ولأنّه ذهب قد يعتريه الزغل، ولا بدّ له من حُسن السَّبك كما هو الدأب، فالعاقل يطلب التوفيق للمتاب والاستعداد للمآب، والله عنده حسن المآب.

الأحاديث الواردة في التوبة كثيرة وكلها مبشّرة، وربما لذلك قال بعض صلحاء السلف أنه يُخشى عدم التوفيق إلى التوبة لا قبول التوبة، وأعظم تلك الأحاديث الواردة في التوبة ما في الصحيحين[1] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فأتاه فقال: إنه قتل تسعةً وتسعين نفساً فهل له من توبة؟! قال: لا، فقتله فكمّل به مئة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلّ على رجلٍ عالم فأتاه فقال: إنه قتل مئةَ نفس فهل له من توبة؟! فقال: نعم ومَن يحول بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإنّ بها ناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم لا ترجع إلى أرضك فإنّها أرض سوء، فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه ملك الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: إنّه جاء تائباً ومقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قطّ، فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقالوا: قيسوا ما بين الأرضين فإلى**

(1) البخاري (3470) ومسلم (2766).

أيهما أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد بشبر فقبضته ملائكة الرحمة». اهـ.

وهذا مصداق حديثٍ آخر: «**التائب من الذّنب كمن لا ذنب له**»[1].



(1) أخرجه ابن ماجه (4250) وغيره من طريق عبدالكريم الجزري عن أبي عبيدة عن ابن مسعود.

قال الألباني: «لكنه منقطع بين أبي عبيدة ـ وهو ابن عبدالله بن مسعود ـ وأبيه» ثم أورد له شواهد وقال: «وجملة القول: أن الحديث حسن بمجموع طرقه». اهـ من السلسلة الضعيفة (83/2).



• في الموت

الحمد لله الذي أمات وأحيى، له العزة والجبروت والكبرياء، حكم على نفسه بما ذكر في كتابه من القِدم والبقاء، وحكم على مَن عداه بالارتحال والفناء، فلا ملَكٌ مقرّب يبقى ولا نبيٌّ مرسلٌ يدوم ويحيى، ولا ملَكُ الموت نفسه ينجو من الموت بل هو أيضاً يموت ويفنى، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له الحيّ الواحد الوحيد[1] الذي لا يموت، ربُّ السماوات والأرض وما بينهما وما تحت اليهموت[2] وأشهد أنّ محمداً رسول الله قد أنذر الموت وبالفوت، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين لا يكرهون الموت، ولا يلهيهم عنه شأن القوت.

أما بعد، فإنّ الموت أمرٌ كبير وضدٌّ للحياة خطير، محكومٌ به على المأمور والأمير، وعلى الكبير والصغير، قهر الله به الجبابرة وأذلّ الأكاسرة

---

(1) لم يثبت في الكتاب والسنّة هذا الاسم (الوحيد) لله فليس من أسمائه، لأنها كلها توقيفية. وقال الإمام الخطابي في «شأن الدعاء»: «أما الوحيد فإنه يوصف به في غالب العرف المنفرد عن أصحابه المنقطع عنهم، وإطلاقه في صفة الله سبحانه ليس بالبين عندي صوابه...» اهـ من معجم المناهي اللفظية للشيخ بكر أبو زيد.

(2) في تاج العروس للزبيدي (162/3): «اليهموت اسم للحوت الذي عليه الأرض». وقال الآلوسي عند تفسير قوله تعالى: (نون) من سورة القلم: «وقيل: هو اسم لحوت عليه الأرض يقال له: اليهموت...». اهـ من روح المعاني في تفسير القرآن العظيم.

قلت: لم يثبت من ذلك شيء إسناداً بل هي من الإسرائيليات التي يكذبها النص والواقع.

والقياصرة، وتعزز جلّ شأنه بالقدرة والوحدانية، فتخلّصت له الرُّبوبية وانفرد بالألوهية، إذ لو حكم لأحدٍ بالحياة الدائمة لأنكره ولاستغنى عن الديانة، ولما خُضع لهذه القضيّة القاضية والمسألة المشتركة العادلة. فيا أيها العاقل، أكثِر من ذكر الموت ليهُون عليك كل ما تحذر أن يفوت، ويخفّف عليك همَّ القوت، ويزهّدك فيما أنت فيه مما تحب أو تكره من هذه العاجلة، واعتبر الآية: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: 6 ـ 14]. فإنّ بالموت رجوعاً إلى الله ولقائه، ومَن أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ولا تغترّ بالعاجلة الفانية وتستبدلها بالآجلة الباقية، وأنت تعرف معنى الأمس واليوم، ورشيدٌ تحسن التقويم والسّوم، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: 185]. هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: 2].

الحديث: «**الكيّس مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني**»[1].

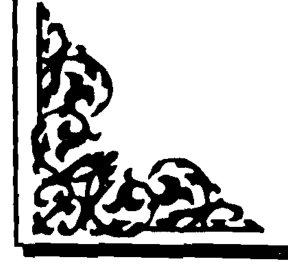


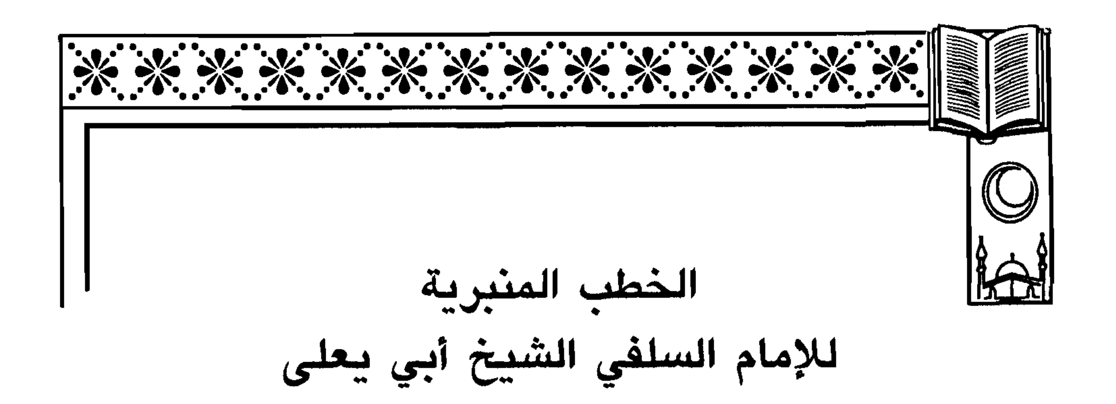
(1) أخرجه أحمد (**17123/350/28** ـ الرسالة) والترمذي (**2459**) عن شداد بن أوس، وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف.



ملحق

[الشهاب: صفر 1353هـ/ ماي 1934م]





الخطب المنبرية
للإمام السلفي الشيخ أبي يعلى

لما ألّفت كتابي في الخطب وطبعته لاحظ صهري السيد حمود العروسي المدرّس [أنني][1] لم أثبت خطبتي في العيدين، وأن الطلبة الأئمة في القرى محتاجون إليها مما قلّل في رغبة اقتناء الكتاب فأجبته أن قصدي من تأليف الكتاب أمران، أحدُهما: تجديد طريقة السلف في إلقاء الخطب والرجوع إلى الأصل في ذلك وأن تكون الخطبة من إنشاء الخطيب ونظره واجتهاده وتُلقى بلا ورقة هذا هو الأصل، والآخر: هو ما بلغني عن بعض الغير الحُساد أنه يقول: إن الخطب مسروقة ومحفوظة، فبرهنت له ولغيره فأثبت ما في ذلك الكتاب وبالأخص خطبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد قال لي كثيرٌ من طلبة العلم عموماً والرجل الصالح السيد يوسف بن سماية خصوصاً: أنها لم يُخطب بمثلها، وأما المقدمة فكما قلت فيها: فلتراجع، أعني: أن أصحاب دواوين الخطب لم يكتبوا مثلها.

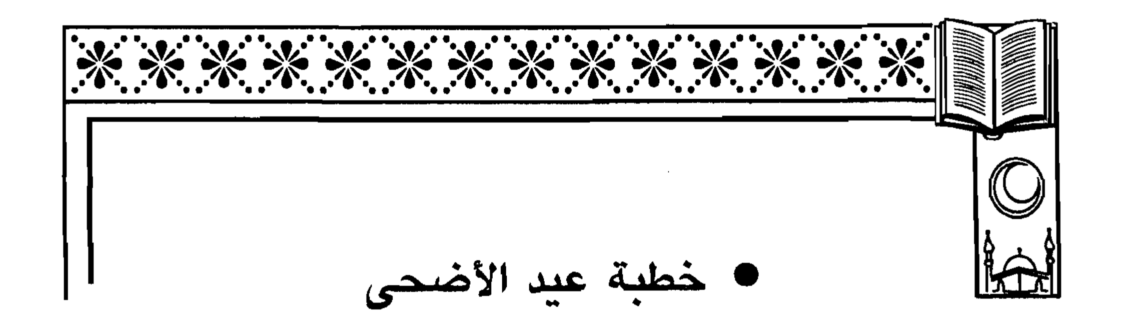
وكذلك لاحظ الأخ الأستاذ الخطيب المصقع بل بلبل الخطابة وهزاز المنابر الشيخ الطيب العقبي ما لاحظ صهري المومى إليه فأشار هذا الأخير بإثبات خطبتي العيدين فأجبته قائلاً ما قال الحريري: فأشار من إشارته حُكم وطاعته غُنم، وعليه فأقول:

---

(1) زيادة مني يقتضيها السياق.

قال الفقهاء: إن الخطب كلها تبتدأ بالحمدلة إلا خطبة العيد تفتح بالتكبير وخطبة الاستسقاء تفتح بالاستغفار، ولا شك أن الفقهاء مقتدون في ذلك بالأئمة المجتهدين أصحاب المذاهب المتبوعة، وبالأخص أنها لما كانت كما ذكرنا في حكم الاستحباب، وقال بسنيته ابن عرفة وابن حبيب فقد نسجنا على منوالهم، كما قيل: «وجدت آجُرّاً وجصّاً فبنيت» فهذه خطبة عيد النحر:





• خطبة عيد الأضحى

الله أكبر (7) الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بُكرة وأصيلاً، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (46) وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47)﴾ [الأحزاب: 43 ـ 47]، ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (34) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35)﴾ [ق: 34، 35].

الله أكبر (3) الله أكبر ما احتفل مسلمٌ بالعيد، ولبس فيه الجديد، وبرز للمصلى ليراه الرب ذو العرش المجيد، الفعّال لما يُريد، ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31)﴾ [ق: 31].

الله أكبر (3) الله أكبر ما تزيّن المسلم بإسلامه، وزاد في شرفه وفضله، وحفظ على شعاره وشعائره، وعمل بأصوله وفروعه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14)﴾ [الحج: 14].

الله أكبر (3) الله أكبر ما لبَّ مَن أمَّ البيت والمقام، وذكر الله عند المشعَر الحرام، وقال: لبيك اللّهمَّ لبيك، لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (24)﴾ [الحج: 24].

الله أكبر (3) الله أكبر ما التزم الحاج الملتزم، وقبّل ذلك الحجر واستلم، وساق الهدي وقلد وقدم، ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: 21].

سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولله الحمد.

نحمد الله الذي أكمل لنا ديننا، وأتم علينا نعمته ورضي لنا الإسلام ديناً، وجعل البيت مثابة للناس وأمناً، وصيَّرنا ممن اتخذ مقام إبراهيم مصلى، ووقف بعرفة، وازدلف إلى المزدلفة، وأصبح في منى، وطاف بتلك المقامات العلي التي مَن دخلها كان آمناً، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: 37].

والصلاة والسلام على نبينا، الذي به هدايتنا ونجاتنا، وعلى آله وصحبه الذين: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: 29].

أما بعد، فهذا العيد الذي نصلِّيه، والاحتفال الذي نُجريه، هو عيد الأضحى ويسمّى عيد النحر، الذي أنزل الله فيه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: 1 - 3]. وهو ذكرى كبرى جرت وتجري ما دام الإسلام الذي أحياها، وكما أخبرنا جلّ شأنه أنه امتحن أبانا إبراهيم: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾، إلى آخر الآية ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: 84 - 107]. فصار ذلك سنّة في الإسلام أحياها ابنه محمد عليه الصلاة والسلام، إذ واظب عليها إلى أن فارق الأنام. والاعتبار كل الاعتبار في ثبات أبينا إبراهيم وصلابته في الدين، ومقاومته الأصنام وتحطيمها ضرباً باليمين. وكان من شأنه ومحنته ما قصّه أصدق القائلين: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿102﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿103﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿104﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿105﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿106﴾﴾ [الصافات: 97 ـ 106].

وهكذا الآباء، وهكذا الأبناء وهل نحن مقتدون به وهو الذي سمانا المسلمين؟ فضحوا عباد الله بأموالكم وأنفسكم في سبيل هذا الدين. ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [ص: 28]، وها قد ذكرنا وقد قال ربنا لنبيه ﷺ: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿55﴾﴾ [الذاريات: 55].

الحديث: «**مَن ضحّى طيّبةً بها نفسُه مُحتسباً لأضحيته كانت له حجاباً من النار**»[1].

❀ ❀ ❀

الخطبة الثانية

الله أكبر (7) سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والصلاة والسلام على الرسول الكريم، وعلى آله وصحبه ذوي الفضل العميم.

عباد الله، اتخذوا العيد عيداً، ولا تتخذوه لهواً ولعباً، وكونوا ممن تعاطى فشكَر، لا ممن تعاطى فعقَر، فمن ضحّى منكم فليتحرَّ السُّنَّة، بجذع من الضأن استوفى سَنة، ومن المعز ما دخل في السنة الثانية، وهكذا عند مالك الأحسن التضحية بكبشٍ أملحٍ أقرن ثم بالكبش الأجمّ سليماً من الوهَن، فنعجة كذلك فتيسٌ فمعزة، ثم بقرةٌ مسنّة ثم إبل ما استوفى من الأعوام خمسة.

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير من حديث الحسن بن علي كما في المجمع للهيثمي (17/4). وقال الهيثمي: «وفيه سليمان بن عمرو النخعي وهو كذاب». قلت: فالحديث موضوع، ولا أدري لم اختار المؤلف هذا الحديث مع أن في الصحيحين من فضائل الأضحية الكثير الطيب..!!

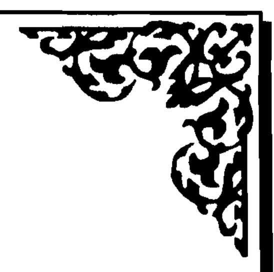
وليحذر أن ينحر قبل الإمام، وقد نهى عن ذلك عليه الصلاة والسلام، وكذلك نهى أن يبيع منها شيئاً، وإنما يأكل ويتصدق ويهدي ما شاء، هذا على المستطيع الذي لا تجحف به، وأما الفقير العاجز وليس شيء بيده فقد ضحّى عليه نبيه، كما ورد أنه ﷺ ضحى عن أمته[1]. وليس العيد بأكل اللحم أو لبس الجديد، إنما العيد مَن فاز يوم الوعيد، وسَعُوا الناس بأخلاقكم إن لم تسعوها بأموالكم. إنكم بين الجيران من اليهود والنصارى إنه ليحزنني أن يُرى المسلم أقلَّ أدباً وأقلَّ نصاباً في الهمّة والمروءة وحسن السيرة وهو تابعٌ لنبيٍّ شهد الله له أنه لعلى خُلقٍ عظيم. ومَن جاء من طريق فليرجع من أخرى إن أمكن، ولله تعالى ما تحرك وما سكن.

جعلنا الله وإياكم من الذين تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللّهمَّ وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.



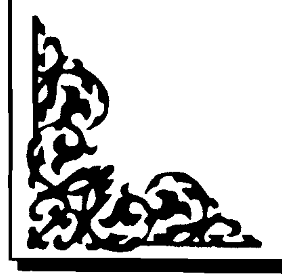
(1) أخرجه الحاكم في المستدرك عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ ذبح كبشاً بالمصلى فقال: «**اللّهمَّ عني وعن مَن لم يضح من أمتي**».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الفهارس العامة

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية.
- فهرس المراجع.
- فهرس المواضيع.





فهرس الآيات القرآنية

الآية — الصفحة

سورة البقرة

سورة آل عمران

الآية	الصفحة
﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ آية (18) ..	75
﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ آية (19)	72
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ آية (85)	72
﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ آية (97)	82
﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آية (97)	82
﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ آية (103)	79
﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿138﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿139﴾﴾ آية (138، 139)	79
﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ آية (152)	75
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ...﴾ آية (180)	78
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾ آية (185)	119
﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ آية (191)	89
﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ... مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿193﴾﴾ آية (190 ـ 193)	111

سورة النساء

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ...﴾ آية (173)	73

سورة المائدة

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ آية (2)	82
﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ آية (19)	111
﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ... لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿79﴾﴾ آية (78، 79)	107

سورة الأعراف

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا... إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿170﴾﴾ آيـة (168 ـ 170)	110
﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ آية (185)	112

الآية	الصفحة

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الحجرات

سورة الجاثية

سورة ق

سورة الذاريات

الآية الصفحة

سورة الملك

سورة الدهر

سورة النازعات

سورة عبس

سورة الانفطار

سورة الفجر

سورة الزلزلة

سورة الكوثر



فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة

حرف الألف

الحديث	الصفحة

حرف التاء

حرف الحاء

حرف الدال

حرف الشين

حرف العين

حرف الفاء

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم







فهرس المراجع

1 - **آزفون تاريخ وثقافة**، لمحمد أرزقي فراد، دار الأمل للطباعة والنشر - الجزائر، الطبعة الأولى 2003.

2 - **إحياء علوم الدين**، للغزالي، دار القلم - بيروت، الطبعة الأولى (دون تاريخ).

3 - **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، للألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى 1399 - 1979.

4 - **أيسر التفاسير**، لأبي بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم - جدة.

5 - **البداية والنهاية**، لابن كثير، مكتبة الصفا - القاهرة، الطبعة الأولى 1423 - 2003.

6 - **تاريخ الجزائر الثقافي**، لأبي القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى 1998.

7 - **تبيين العجب في بيان وضع الوضاعين في رجب**، لابن حجر العسقلاني.

8 - **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبدالقادر وأخبار الجزائر**، لمحمد بن الأمير - مصر، 1903.

9 - **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، لمحمد بن ميمون الجزائري، تقديم وتحقيق: الدكتور محمد بن عبدالكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، الطبعة الأولى 1981.

10 - **التراتيب الإدارية في نظام الحكومة النبوية**، للشيخ عبدالحي الكتاني، دار الأرقم - بيروت، الطبعة الثانية (دون تاريخ). وهي طبعة ناقصة.

11 - **تعريف الخلف برجال السلف**، للحفناوي ابن الشيخ البوسعادي، مؤسسة الرسالة - بيروت والمكتبة العتيقة - تونس، الطبعة الثانية 1405 - 1985.

12 - **تقريب التهذيب**، لابن حجر العسقلاني، دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى 1413 - 1993.

13 ـ **تهذيب التهذيب**، لابن حجر العسقلاني، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى 1416 ـ 1996.

14 ـ **الجرح والتعديل**، لابن أبي حاتم الرازي، بتحقيق المعلّمي. تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت.

15 ـ **حقيقة الصيام**، لابن تيمية، بتخريج الألباني وتحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الخامسة 1400.

16 ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الخامسة 1407.

17 ـ **الخصائص الكبرى**، للسيوطي، دار الكتب العلمية ـ بيروت (دون تاريخ).

18 ـ **دلائل النبوّة**، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: الدكتور محمد رواس قلعجي وعبدالبر عباس، دار النفائس ـ بيروت، الطبعة 1412.

19 ـ **دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، للبيهقي، وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: الدكتور عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة 1405.

20 ـ **رحلة ابن جبير**، موفم للنشر ـ الجزائر (دون تاريخ).

21 ـ **رسالة جواب سؤال عن سوء مقال**، لابن باديس، اعتنى بها أبو عبدالرحمٰن محمود ـ الجزائر، الطبعة الأولى 2005/1426.

22 ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للآلوسي، دار الفكر ـ بيروت 1408 ـ 1987.

23 ـ **زوايا العلم والقرآن بالجزائر**، لنسيب رفاعي، دار الفكر ـ دمشق، الجزائر 1995.

24 ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، للألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثانية 1399 ـ 1979 الجزء الأول والثاني، مكتبة المعارف ـ الرياض، الطبعة الثانية 1407 ـ 1987 للجزء الثالث، الطبعة الرابعة 1408 ـ 1988 للجزء الرابع. وما بعده فللطبعة الجديدة.

25 ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة**، للألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الرابعة 1398 للجزء الأول والطبعة الأولى 1399 ـ 1979 للجزء الثاني. مكتبة المعارف ـ الرياض، الطبعة الثانية 1408 ـ 1988 للجزء الثالث، الطبعة الأولى 1408 ـ 1988 للجزء الرابع. وما بعده فللطبعة الجديدة.

26 ـ **السلفيون وقضية فلسطين في واقعنا المعاصر**، تأليف أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية ـ فلسطين، الطبعة الأولى 1423 ـ 2002.

27 ـ **سنن ابن ماجه**، دار الجيل ـ لبنان (دون تاريخ).

28 ـ **سنن أبي داود**، دار الكتاب العربي ـ بيروت (دون تاريخ).

29 ـ **سنن الترمذي**، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (دون تاريخ).

30 ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام، تحقيق وضبط وشرح وفهرسة: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة (دون تاريخ).

31 ـ **السيرة النبوية**، لابن كثير.

32 ـ **الشامل في فقه الخطيب والخطبة**، تأليف: سعود بن إبراهيم الشريم. ملف مكتوب على «الوورد».

33 ـ **شرح رياض الصالحين**، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، حققه وعلّق عليه: محمود بن الجميل وخالد بن محمد بن عثمان، مكتبة الصفا ـ القاهرة، الطبعة الأولى 1423 ـ 2002.

34 ـ **شعب الإيمان**، للبيهقي، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى 1410.

35 ـ **صحيح ابن حبان**، بترتيب ابن بلبان، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

36 ـ **صحيح البخاري بشرح ابن حجر العسقلاني**، مكتبة الصفا ـ القاهرة، الطبعة الأولى 1424 ـ 2003.

37 ـ **صحيح مسلم بشرح النووي**، مراجعة الشيخ خليل الميس، دار القلم ـ بيروت، الطبعة الأولى 1407.

38 ـ **صوت المسجد (مجلة)**، ضمن أرشيف المكتبة الوطنية بالجزائر.

39 ـ **الضعفاء للعقيلي**، حققه ووثقه الدكتور عبدالمعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى 1404 ـ 1984.

40 ـ **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**، للألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثالثة 1410 ـ 1990.

41 ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، لابن السبكي، تحقيق: الدكتور عبدالفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، دار هجر ـ مصر، 1413.

42 ـ **العظمة**، لأبي نعيم الأصبهاني، دار العاصمة ـ الرياض، الطبعة الثانية 1419 ـ 1998.

43 ـ **العقد الفريد**، لابن عبد ربه، تحقيق وتعليق: بركات يوسف هبود، دار الأرقم ـ بيروت، الطبعة الأولى **1420 ـ 1999.**

44 ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، للمناوي، دار الحديث ـ القاهرة (دون تاريخ).

45 ـ **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي، مكتبة النووي ـ دمشق (دون تاريخ).

46 ـ **الكامل في الضعفاء**، لابن عدي، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد عوض، والدكتور عبدالفتاح أبو سنّة، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى **1418 ـ 1997.**

47 ـ **كتاب الموضوعات**، لابن الجوزي، تخريج: توفيق حمدان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى **1415.**

48 ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، للمتقي الهندي، اعتنى به: إسحاق الطيبي، بيت الأفكار الدولية (دون تاريخ).

49 ـ **لسان الميزان**، لابن حجر العسقلاني، دار الفكر ـ بيروت، **1414 ـ 1993.**

50 ـ **المبشر (جريدة)**، ضمن أرشيف المكتبة الوطنية بالجزائر.

51 ـ **مجلة الشهاب**، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الأولى.

52 ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للهيثمي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة **1402.**

53 ـ **محطات في تاريخ الحركة الإسلامية بالجزائر**، تأليف أوصديق فوزي بن الهاشمي، دار الانتفاضة للنشر والتوزيع ـ الجزائر، الطبعة الأولى **1992.**

54 ـ **المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي**، لأحمد بن الصديق الغماري، دار الكتبي ـ مصر، الطبعة الأولى **1996.**

55 ـ **المستدرك على الصحيحين**، لأبي عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الحرمين للطباعة والنشر ـ مصر، الطبعة الأولى **1417.**

56 ـ **مسند أبي يعلى الموصلي**، تحقيق وتخريج: حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية ـ بيروت، الطبعة الثانية **1412.**

57 ـ **المسند**، للإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي ـ بيروت (دون تاريخ). ومؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى **1416 ـ 1995.**

58 ـ **المصنف في الأحاديث والآثار**، لابن أبي شيبة، ضبط وتصحيح: محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى **1416.**

59 ـ **المعجم الكبير**، للطبراني، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبدالمجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، (دون تاريخ).

60 ـ **معجم المناهي اللفظية**، لبكر بن عبدالله أبو زيد، دار العاصمة ـ الرياض، الطبعة الثالثة **1417**.
61 ـ **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، للونشريسي، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي. دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، **1401 ـ 1981**.
62 ـ **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار فيما في كتاب الإحياء من الأخبار**، لزين الدين العراقي، مطبوع بهامش الإحياء للغزالي.
63 ـ **المقاصد الحسنة**، صحَّحه وعلَّق حواشيه عبدالله محمد الصديق، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى **1407 ـ 1987**.
64 ـ **مقدمة ابن خلدون، تشكيل! العلامة!! رشيد عطية، وتدقيق!! المعلم**، عبدالله البستاني، مكتبة لبنان، الطبعة الرابعة **1990**. وهي طبعة ناقصة.
65 ـ **منابر الهدى**، (رسالة علمية تربوية تصدرها مجالس الهدى بالجزائر)، أعداد: **6** و**7**.
66 ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، للذهبي، دار الفكر ـ بيروت، (دون تاريخ).







فهرس المواضيع

الموضوع	الصفحة





على الأسلُوب السَّلفي
ومقالات أخرى متنوعة

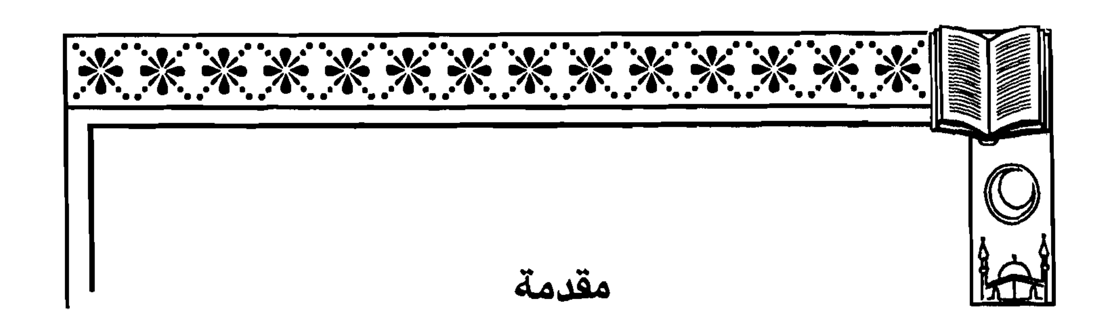
بقلم:

أبي يعلى الزواوي

اعتنى بها

عادل بن الحاج همال الجزائري





مقدمة

اللَّهمَّ لك الحمد أنت أحقُّ مَن عُبد، وأحقُّ مَن ذُكر، وأنصر مَن ابتُغي، وأجود مَن سُئل، وأوسع مَن أعطَى، وأرأف مَن ملَك.

أنتَ الملِك لا شريك لك، والفردُ الذي لا نِدَّ لك، كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاّ وجهَك، لن تُطاع إلاّ بإذنك، ولن تُعصى إلاّ بعلمك، تُطاع فتشكُر، وتُعصى فتغفِر، أقربُ شهيد، وأدنى حفيظ، حُلت دون النفوس، وأخذتَ بالنواصي، وكتبتَ الآثار، ونسختَ الآجال، القلوبُ لك مفضيه، والسرُّ عندك علانيه، الحلال ما أحللت، والحرام ما حرّمت، والدِّين ما شرعت، والخلقُ خلقُك، والعبدُ عبدُك، وأنتَ الله الرؤوفُ الرحيم.

وأشهد أن لا إلٰه إلاّ الله، وليُّ الصالحين، وخالقُ الخلق أجمعين، وجامعُهم إلى يومٍ لا ريب فيه. وأشهد أنّ محمداً عبدُ الله ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه دائماً أبداً إلى يوم الدِّين[1].

وبعد، فهذه فصولٌ في العلم والأخلاق والإصلاح بقلم الشيخ أبي يعلى الزواوي ـ رحمه الله ـ وأصلها مقالاتٌ كتبها بمجلة «صوت المسجد» لسان حال موظفي السلك الديني، بطلبٍ من رئيس تحريرها الشيخ محمد العاصمي[2]. ولم يسعه حينها إلا تلبية الطلب باعتباره أحد الموظفين. وهي

(1) من خطبة الشيخ عبدالناصر البُلَيدي رحمه الله تعالى.

(2) محمد العاصمي (1888 ـ 1951)، ولد بنواحي المنصورة ببلاد الزواوة، درس بزاوية الهامل ببوسعادة ودرّس بها ثم انتقل إلى مدينة الأغواط ثم التحق بمدرسة السلام=

تحوي إلى جانب مواضيعها الإصلاحية مواضيع أخرى مهمة يحق للباحث أن يقف عندها وقفة تأملٍ وتبصُّر... وقد كتبها الزواوي بين سنتي **1949** ـ **1951**. فهي من آخر ما كتب قبل وفاته رحمه الله.

وتعد هذه الفترة من حياة الجزائر المستعمَرة أحرج فترات الدعوة الإصلاحية في الجزائر، ذلك أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت قد أعلنت منذ بداية تأسيسها سنة **1931** التزامها بالابتعاد عن الاشتغال بالسياسة، حتى تفوّت الفرصة على مَن يتربص بها المكائد وهي لا تزال بعد لم تقف على أقدامها.

يقول الأستاذ محمد بن سمينة: «إن اندماجها ـ يعني: الجمعية ـ من بعد، وبصورة مباشرة في الحياة السياسية لأوضح مما ينص عليه بيان. وتبرز هذه الخطة السياسية في برنامج المصلحين في الفترة ما بين الحربين بوجهٍ خاص، أما ما بعدها فقد تطورت أساليب المواجهة بينهم وبين المحتلّين، وأصبحت أكثر حدّة من ذي قبل، وأكثر شمولية، على أكثر من صعيد...»[(1)].

وكانت حركة المؤتمر الإسلامي سنة **1936** بزعامة الجمعية وما عرفته من نجاحٍ جماهيري بسبب مطالبها السياسية هي أول منعطف تجتازه الجمعية لتدخل بَعده في دوامة من الصراع بينها وبين الاستعمار. منذ ذلك الحين بدأت السلطات الاستعمارية تدبر المكائد وتحيك المؤامرات للإيقاع بالجمعية

= بمدينة الجزائر، انضم إلى جمعية العلماء عند تأسيسها وله مقالات في مجلة الشهاب لابن باديس ثم انفصل عنها، عين مفتياً للمذهب الحنفي سنة **1944**، وقد اتخذته السلطات الاستعمارية فيما بعد، ومجلته «صوت المسجد» وسيلة لمحاربة جمعية العلماء وتنفيذ أغراضها الاستعمارية. وقد أفردنا له ترجمة في غير هذا المكان من هذه السلسلة، فانظره.

(1) «ملامح من إسهامات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في المشروع النهضوي بالجزائر»، مقال له بمجلة «الموافقات» الصادرة بالمعهد الوطني العالي لأصول الدين بالجزائر عدد (4) ص(503).

وبرجالها، فبعد حادثة مقتل كحول وحادثة البرقية اعتزل العقبي والزاهري، وبعد وفاة ابن باديس والميلي وسجن الإبراهيمي وظروف الحرب العالمية الثانية عصفت بالجمعية عواصف كادت تنسف بها لولا أن الله كتب لها العيش مرة أخرى بفضل حكمة رجالها وحنكتهم.

➢ بعد الحرب:

كان تاريخ **8** ماي **1945** يوماً مشهوداً احتفل فيه العالم بنهاية الحرب وانتصاره على النازية، في حين كان الشعب الجزائري تحت وطأة المذابح التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي وراح ضحيتها أكثر من **45** ألف جزائري - نحسبهم في الشهداء - لا ذنب لهم إلا أنهم أرادوا العيش في حرية... أدرك الجزائريون حينئذٍ أن لا سبيل لمواجهة الاستعمار إلا بالحديد والنار، فشرعوا يُعدون العُدّة لساعات الحقيقة...

أما الجمعية فقد استأنفت نشاطها بعد خروج العلماء من السجون عقب المجازر، لتخوض معركة النهاية بينها وبين الاستعمار. كانت حرب استنزاف مع العدو لشلّ أهم طاقاته التي كان يستمد منها أنفاسه لحرب الجزائريين والتمادي في سياسة التجهيل، وكانت النقطة المركزية التي تحركت الجمعية حولها ولم يفتر لها فيها كلام ولم يخفت لها فيها صوت هي قضية تحرير الدين الإسلامي من قبضة فرنسا، وهي ما عرف باسم: «قضية فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية».

يقول الأستاذ محمد الهادي الحسني: «قد يظن ظان أن هذه القضية ليست بالأمر الخطير أو المطلب الكبير، ومَن ظن ذلك فقد جهل الحقيقة، ذلك أن فرنسا تساهلت في بعض الأمور السياسية والاقتصادية وأنالت الجزائريين بعض حقوقهم فيها وحققت لهم بعض مطالبهم فيها، ولكن القضية التي لم تتساهل فيها مثقال ذرة، ولم تتزحزح عنها قيد أنملة هي قضية فصل الإسلام عنها، وأبقته بمساجده وأوقافه والقائمين عليه تحت سيطرتها إلى آخر يوم لها في الجزائر لا حبّاً فيه ولا خدمةً له واحتراماً له،

ولكن لأنها تعلم أن الإسلام هو عدوّها الأول والآخر والظاهر والباطن. . . »[1].

من أجل ذلك فقد حملت الجمعية حملةً عنيفة على الموظفين في السلك الديني، فوصفتهم بأشنع الصفات وصوَّرتهم في أبشع الصور، وأنزلتهم في الدرك الأسفل عندما اعتبرتهم عبيداً يستحييهم الاستعمار ليقتل بهم الدين، وسلاحاً طالما جرده في وجه العاملين للإسلام الصحيح.

والحقيقة أن جمعية العلماء لم تكن تحاربهم لذاتهم، وإنما كانت تصارع بهم فرنسا التي كانت تحركهم كيف تشاء، وتصنع بهم ما تشاء، وتقول بلسانهم ما تشاء، وتصيب بهم مَن تشاء[2]. . .

وهكذا فقد كانت الحرب الكلامية على أوجّها بين جريدة البصائر ومجلة صوت المسجد في مسائل هي من فروع القضية الدينية كحكم الصلاة وراء إمام حكومي، وحكم الصوم والإفطار برؤية اللجنة الحكومية، وكذا تسيير شؤون الحج من طرف الحكومة الاستعمارية إلى مسائل فقهية أخرى بنفس الخلفية، وكانت استجابة الشعب الجزائري لنداء الجمعية واسعة.

موقف الشيخ أبي يعلى الزواوي:

كان الشيخ الزواوي من أوائل مَن غادروا الهيئة الإدارية للجمعية[3]، والظاهر أن اتصاله بها وبرجالها لم ينقطع عن طريق مقالاته بجريدة البصائر وغيرها، وكان في كل مواقفه لا يعارض الخط الذي انتهجته جمعية العلماء في التصدي للاستعمار والطرقية المحالفة له رغم أنه بدا وكأنه التزم الحياد، وكتاباته في مجلة «صوت المسجد» لسان حال موظفي السلك الديني لم

---

(1) الإبراهيمي رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقال له بمجلة «الموافقات» الصادرة بالمعهد الوطني العالي لأصول الدين بالجزائر عدد (4) ص(572).

(2) المصدر نفسه ص(575).

(3) بسبب مرضه كما قيل.

تخرج به عن خطه المعروف، وإليك جملة من أقواله ومواقفه من خلال المجلة المذكورة:

➢ موقفه من الكتابة في المجلة:

باعتباره أحد الموظفين لم يسعه حينها إلا تلبية طلب «صديقه القديم» محمد العاصمي قائلاً: «بلغني كتابُكم الكريم... تلتمسون وتستحسنون أن أكتب شيئاً في المجلّة التي أزمعتم على إصدارها باسم: «صوت المسجد»، فالجواب: إنّي لو كنت حلاّفاً لحلفتُ أن لا أعودُ أكتبُ في جرائد الجزائر ومجلاّتها لأمور ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

وقال أيضاً ملتزماً طريق الإنصاف: «والحالة هذه كما علمتم يكتبُ الكاتب لمذهبٍ أو لحزبٍ أو لزيدٍ أو لعمروٍ أو لرأيٍ أو للعبةٍ شيطانية أو لدنيا يُصيبها أو لدولةٍ يخدمها ولو بالباطل كما رأينا كثيراً من هذا الضَّرب قلّل الله منهم مجتمعنا...».

➢ موقفه من القضية الدينية:

كان موقف الزواوي معروفاً تجاه القضية الدينية فهو الذي صمد أمام ضغوط فرنسا الهادفة إلى إجباره على توقيع العريضة التي قدمها خصوم الحركة الإصلاحية للسلطات الفرنسية يطلبون فيها إبقاء الشؤون الدينية تحت إشراف فرنسا، ومع ذلك فقد بيّن موقفه مرة أخرى بصراحة فقال: «وأختم طالباً ومنبّهاً إلى لُزوم استرجاع حقوق وظائفنا أي: لوازمها من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ووظيفة الحِسبة، وأن تترك لنا الحكومة ديننا قولاً وفعلاً وعَملاً بأن نأمر وننهى ونزجُر ونسجّل ونحاكم ونثيب ونعاقب...».

➢ موقفه من الصراع الدائر بين الجمعية والموظفين الرسميين:

1/ - يرى الزواوي أن الصراع لا يعدو أن يكون اجتهاداً فقهيّاً بين الطرفين، وعليه فلا يليق أن يأخذ بهم إلى التناوش والتنابز بالألقاب من

على صفحات الجرائد فكتب في مقال بعنوان: «إلى الحسنى» يدعو إلى الصلح بين الطرفين والتزام أخلاق الحوار فقال: «إنّي أدعو الإخوان أصحاب «البصائر» وأصحاب مجلة «صوت المسجد» أتباع باديس باعتبار أن الشيخ العاصمي كان يكتب في الشهاب ـ المجلة ـ ومحبّ لباديس وأنه من الإصلاحيين والمعلّمين إلى أن تولى الإفتاء بتسمية من الجمعية الدينية لأول تأسيسها وافقت عليها الحكومة، فحصل تناول الديانة عن الحكومة وكتبنا فيها كثيراً وما زلنا ولن نزال نكتب فيها إلى أن تنفصل، وقد اشتدّت وطأة صديقنا الشيخ الإبراهيمي على صديقنا الشيخ العاصمي فيما يتعلق بهذه القضية ـ فصل الديانة عن الحكومة ـ وكان ذلك من شأن الكاتبين أهل العصر فلا بأس به ما لم يتجاوز الحد اللازم إلى المطاعن في الشخصيات والإذايات، وإنّي الآن أدعو الفريقين إلى الحسنى. . .».

وقال أيضاً: «أيها الإخوان، ناشدتكم الله أن تنتهوا وتعملوا بهذه التذكرة التي اخترتها لي ولكم وأعمل بها بفضل الله وبرحمته وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ . . . إنكم جميعاً إذا لم تفعلوا بدعوتي هذه التي هي كما علمتم أهجُركم ولو علمت أن هُجراني لا يضركم ولا ينفعكم».

2/ ـ ويرى أنه لا يليق تعميم الحكم على الموظفين الرسميين أنهم وسيلة في يد السلطات الفرنسية توظفها كيف شاءت، فقال: «من أولئك الموظفين وهم ألوف منهم ثِقات وعُدول وأمناء وذو الغيرة والحميّة والمدافعة إلا أنّهم مسالمون ولكن في أشياء دون أشياء، وفيما لا يضرّ بدينهم وإخوانهم».

ووجّه الخطاب لغيرهم ولهم فقال: «هذا وإنّ لغير الموظفين أن يعترضوا على الموظّفين فيما يظهر من التقصير ولكن مع حسن الظنّ وقبول العذر، وأن يتحمّلوا بعض الحملات ويجيبوا عنها بكل اعتذار، وبيان أداء ما في الوُسع وخصوصاً عدم القيام بالوظيفة كما ينبغي، وهذا مما يلزمنا معشر الموظفين أن نتلقاه بسعة الصدر بل والشكر إذا صدر بوجه حسن،

وقصدٍ خالٍ من الإحَن، ولم يكن المنتقد أو المعترض ذا ضَغَن».

كما كان له آراء أخرى في بعض فروع القضية. وسنذكر ما لها وما عليها عند التعليق.

وفي سنة **1952** خمدت القضية بسبب وفاة العاصمي والزواوي ورحلة الإبراهيمي إلى المشرق، ولم تمض مدة طويلة حتى اندلعت الثورة المسلحة في **1954**.

نعتقد أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد أدّت ما عليها من جهاد الكلمة في هذا الوقت الحرج بالذات من عمر الجزائر، ولم تدّخر في ذلك جُهداً. . . وكذلك الزواوي.

كتبه: ابن الحاج الجزائري

الجزائر في: **11** رجب **1427**هـ





على الأسلوب السلفي(1)

من عبد ربّه أسير ذنبه المعروف بكُنيته أبي يعلى الزواوي إلى صديقه الحميم القديم الشيخ سيدي محمد العاصمي مفتي السادة الحنفية بمدينة الجزائر، سلامٌ ودعاءٌ وثناءٌ وبعد، فقد بلغني كتابُكم الكريم المؤرخ لثلاث عشرةَ ليلةً خَلَون من شوّال التاريخ، تلتمسون وتستحسنون أن أكتب شيئاً في المجلّة التي أزمعتم على إصدارها باسم: «صوت المسجد»، فالجواب: إنّي لو كنت حلّافاً لحلفتُ أن لا أعود أكتب في جرائد الجزائر ومجلاّتها لأمور ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وما المسؤول إلاّ هذا العبد الزواوي الضعيف، وما السّائل إلاّ حضرة الصديق الحميم القديم الشيخ محمد العاصمي، وذلك أن الكاتب ينبغي أن يكتب كما علَّمه الله، وإن كان الإملاء فليملل الذي عليه الحق وهذا هو المعروف عند أهل الحق، وما أهل الحقّ إلا المسلمون الصادقون، وهذا أيضاً من الفطري الطبيعي وكلّ إناءٍ بما فيه ينضح، أما والحالة هذه كما علمتم يكتبُ الكاتب لمذهبٍ أو لحزبٍ أو لزيدٍ أو لعمروٍ أو لرأيٍ أو للعبةٍ شيطانية أو لدنيا يُصيبها أو لدولةٍ يخدمها ولو بالباطل كما رأينا كثيراً من هذا الضَّرب قلّل الله منهم مجتمعنا، هذا وقد قلتُ لأحدهم ـ وهو بقيد الحياة ـ: يا فلان، لك جريدة أرأيتَ ما نحن فيه من الشنَئان في قضية كذا؟ أوَ قد اطلعتم على مقالاتي فيها؟ ألا تنتصرون لدين الحق؟ فأجاب من غير خجل ومن غير وجَل ـ هو البعيد ـ:

---

(1) عدد (1 و2). والعنوان من وضع الشيخ العاصمي رحمه الله.

دينه الدراهم. فلعنتُه وحزنت أشدّ الحزن على وجود مثل هذا الخبيث في مجتمعنا وبيده وُريقة ينفُث فيها سمومه، فتذكّرت الحديث الصحيح: «**لعن الله مَن أكل الدنيا بطريق الآخرة**»[1]، فنبذته نبذَ النوى إلى أن نجتمع لدى الله إن اعتقد هذا ـ هو البعيد ـ وإنه ليُحشر وإن لم يعتقد، أمّا أنا فجازمٌ بالبعث والنشور والحساب والثواب والعقاب وقال تعالى في مثل هذا: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿68﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿69﴾﴾ الآية [مريم: 68، 69]. وكذلك ما يثبّط العزائم ويُسقطها ما وقع في هذا العهد الأخير أي: مما لم يُعهد لنا وهو: أن يكتب الكاتب مثلي ومثلكم مقالاتٍ وفصولاً إلى أصحاب الجرائد ولا ينشرونها في وقت مثل هذا، فإنّ ورقةً من الكاغد الرديء تتكلّف بفرنك وقلماً بفرنك ودواة حبرٍ رديءٍ أزرق ـ واللون الأزرق عند المسلمين مذموم[2] ـ تتكلّف بعشرين فرنك، ويضيّع الكاتب ليلاً أو نهاراً في التحبير والتعبير ويُرسلها بتحرير ستة فرنك، ويكون ذلك كلّه منبوذاً وراء ظهر مدير الجريدة أو المجلة لأسباب كما ذكرنا أو لقوانين أنها لا ترد نُشرت أم لم تنشر!! كيف يكتب الكاتب في مثل هذا ويبلغ به (الرُّخص) وإن شئت قلت: «السَّفَه» إلى هذا الحدّ؟ فعلامَ يكتب؟ ولمن يكتب؟ وفيما يكتب؟ ومَن يُرضي؟ ومَن يُسخط؟

هنا في قولنا هذا: «ومَن يرضي؟ ومَن يسخط؟» مفرَق الطرق، ومذهبنا أهل السنّة والجماعة لا منزلة بين المنزلتين. فهذا قرارُ وتقريرُ الحسن البصري ردّاً على واصل بن عطاء أول معتزلٍ قال بمنزلةٍ بين منزلتين، وعملُ الحسن هذا الواعظ السّلفي التابعي الشهير مبنيٌّ على قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿62﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ

(1) لم أجده بهذا اللفظ.
(2) لعله يقصد بالمسلمين الجزائريين كما هو مصطلح تلك الفترة، وباللون الأزرق لون العلَم الفرنسي.

ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: 62 ـ 64]. وبهذا عملَ أبو إسحاق الشاطبيّ مؤلّف كتاب «الاعتصام»، ذكرَ في كتابه هذا أنّه لما تولّى الإمامة وأخذ بنَهج الإصلاح كثُر فيه القيل والقال فقال رحمه الله ما مُلخّصه: «فلا بدّ من ترضية جانب الناس وإسخاط الله ـ عياذاً بالله ـ أو العكس» فاختار ترضيةَ جانب الله جلّ جلاله، وهذا هو الصّواب بل هو الحقّ الذي ينبغي بل يجب أن نسير عليه ونتّبعه معشر الأئمة والعلماء والسّادة المتصوّفة، وقد علمتم أنّنا أمةٌ مقيّدةٌ بالدّستور.

وما هذا الدستور؟ وما يريد أبو يعلى الزواوي بهذا الدستور؟ وما معنى الدستور لغةً؟ معناه لغةً: قاعدةٌ يُعمل بمقتضاها، ومعناه اصطلاحاً: أنّ الدولة إما ذات مُلك مستبدّ أو هي ذات مُلك مقيّد بالدستور كإنكلترة مثلاً، وقد وقع الإجماع أن دستور إنكلترة أحسن دستور وأن الإنكليز أكثر تطبيقاً وعملاً بدستورهم، ومع هذا كلّه فإنّني يا معشر الإخوان الأئمة العلماء المسلمين العاملين لم أرد ولم أقصد بالدستور من قولنا: «أننا أمةٌ مقيدةٌ بالدستور» إلاّ كتاب الله الذي جاء به محمد ﷺ وفيه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ الآية [طه: 123 ـ 124].

هذا وبمقتضى قولكم: «وبما أنّ لقلمكم السيّال مواقف مشرّفة في ميدان الدين والعلم والأخلاق الذي هو موضوع مجلتنا رجَونا أن تساهموا في الكتابة فيها»، فالجواب أنّي أشكركم شكراً جزيلاً على حُسن ظنّكم وبقائكم على حسن العهد ـ وحسن العهد من الإيمان[1] ـ فأحمدُ إليكم الله الذي جعلني وإياكم من المتحابين في الله الوارد فيهم أنهم على منابر من نور يوم القيامة[2]، وأعدكم وعداً غير مكذوب أنّي أكتب شيئاً في الأخلاق مع عجزي عن خوض ذلك البحر الزّاخر، فالأمر كما قيل: «ليس كلّ زخّار

(1) كما صح في الحديث.

(2) أخرجه الترمذي (1948) من حديث معاذ بن جبل وقال: «حديث حسن صحيح».

يُخاض ولا كلّ جَموحٍ يُراض»، ولكن مَن عمل بما علِم ووقف عند حدّه وعلمِه فهو محسنٌ ومصيب، ثم إنّي أقول لكم ما أشير به عليكم، وإن كان مقامكم أعلى من مقامي ولكن سنّي وشيخوختي قد يُظنّ بها أنها على شيء من الاختبار والاعتبار، وأما العلم فلو بلغ فيه أحدٌ ما بلَغ فيردُّ عليه قولُ الشافعي: كلّما ازددتُ علماً زدت علماً بجهلي، فللّه درّه مثلُه يقول هذا!! فكأنّه ولا شكّ عاملٌ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، فأقول رأيي ـ إن كنتم تعتبرونه ـ أن نأخذ في موضوع الأخلاق بطريقة الفقهاء والمفسّرين التخلية والتحلية ولا تجمُل التحلية بدون تخلية، وذلك أن فساد الأخلاق وسوء المَلَكات قد استحكمت في الناس أشدّ الاستحكام كما علمتم، وما أحسن قول الرّاغب الأصفهاني أحد شيوخ الغزالي وناهيكم به إذ قال في الإنسان: «فقد كاد أن يكون قولُنا الإنسان لفظاً مطلقاً على معنًى غير موجود واسماً غيرَ معهود، كعنقاء مغرب ونحو ذلك من الأسماء التي لا معاني لها كما قال تعالى في صفة الأصنام المسماة آلهة: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: 23]، وقال جلّ جلاله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: 40]، فجعلها أسماءً بلا مُسمّى ولم أعنِ بالإنسان كلّ حيوانٍ منتصب القامة عريض الظّفر أملس البشرة ضاحك الوجه ممن ينطقون، ولكن عن الهوى ويتعلمون ولكن ما يضرّهم ولا ينفعهم، ويعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون، ويكتبون الكتاب بأيديهم ولكن يقولون: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ويؤمنون ولكن بالجِبت والطّاغوت، ويعبدون ولكن من دون الله ما يضرّهم ولا ينفعهم، ويقولون ولكن ما لا يرضَى من القول» إلى أن قال: «فهؤلاء إن كانوا بالصّورة المحسوسة ناساً فهم بالصورة المعقولة لا ناس ولا نسناس». انتهى المقصود من إيراده من كلامه العسجدي الذي التزم فيه فلسفة القرآن.

وأختم طالباً ومنبّهاً إلى لُزوم استرجاع حقوق وظائفنا أي: لوازمها من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ووظيفة الحِسبة، وأن تترك لنا الحكومة ديننا قولاً وفعلاً وعَملاً بأن نأمر وننهى ونزجُر ونسجّل ونحاكم ونثيب

ونعاقب جميع الفَسَقة والمرقة وبالأخص السكارى المستهترين والمجاهرين بالفسوق من الأقوال البذيئة، والحالِقة كسباب جناب الله وجناب الرسول ﷺ، وجريان مثل هذا ونحن نسمع ونرى فبطنُ الأرض خيرٌ لنا من ظهرها، والأنكى من ذلك أنه مما يزعم أنه من حريّة الدولة والشخصيّة وهي إباحة كُفرية، والموتُ لنا خيرٌ من البقاء والسلام.





● القرآن عند المسلمين ما هو؟[1]

وكذلك عند النصارى فهم ـ النصارى ـ فيه فريقان، وأعني بالنصارى: نصارى أوروبا وأمريكا.

القرآن عند المسلمين بإجماعهم سنيّهم ومعتزلهم، عربهم وعجَمهم كما عرّفه العلماء الأصوليون أنّه: «كلام الله المنزّل على محمدٍ ﷺ المتعبَّد بتلاوته، المعجِز بأقصر سورةٍ منه».

قلت: وقولهم هذا: «المعجز بأقصر سورةٍ منه» نهايةٌ في التحدّي باعتبار العباقرة من القدماء وقت النزول، أي: الطبقة الناشئة بعد قسّ بن ساعدة الإيادي وورقة بن نوفل وابن أبي الصّلت، وبعد أصحاب المعلقات من أصحاب سوق عُكاظ، وذي المجاز معارض الكلام من نظم ونثر عالي الطّبقة، والذين جعلوا من لغة حِميَر مُضَريّة ومُضَريّة قريش، فهذه آخر دائرة معارف عندهم وهي كـ «الأنسكلوبيديا» ـ دائرة معارف ـ في هذا العصر عند نصارى أوروبا وأمريكا، وبهذه القرشية أُثبتَ القرآن في المصحف الآل الرّسمي عند الخلاف بين كاتبه من شُبّان المهاجرين والأنصار، وإن كان نازلاً على سبعة أحرف ومشتملاً على شتّى اللغات. وكيفما كان فهو معجز بجميع ألفاظه ومعانيه، وبالَغ الله جلّ جلاله في التعبير بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿88﴾﴾ [الإسراء: 88]، وهكذا التحدّي قطعت جهيرة قول

---

(1) عدد (3 و4 و5).

كلُّ خطيب، وما أحسن قول البُوصَيري[1] في همزيّته:

أعجزَ الإنسَ آيةٌ منه والجنّ ... فهلّا تأتي بها البُلغاء
كلّ يومٍ يهدي إلى سامعيه ... معجزاتٍ من لفظه القراء

وقال في بُردَته وأجاد:

آيات حقٌّ من الرحمٰن محدثةٍ ... قديمةٍ صفةَ الموصوف بالقدمِ
لم تقترن بزمانٍ وهي تخبرنا ... عن المعاد وعن عادٍ وعن إرمِ
دامت لدينا فقامت كل معجزةٍ ... من النبيين إذ جاءت ولم تدُمِ
محكماتٍ فلا تُبقين من شُبهٍ ... لذي شقاقٍ وما تبغين من حكمِ
ما حوربت قط إلا عادت من حرب ... أعدى الأعادي إليها ملقي السلمِ
ردت بلاغتها دعوى مُعارضها ... ردّ الغَيور يد الجاني عن الحرمِ

هذا هو القرآن الذي تسلّمه وسلّمه ثلاثمائة مليون مسلم فأكثر، جاء به أمّي نزل عليه وما بعث به إلى كُتّاب قطّ، وما تناول قلماً وما أُجلس بين يدي معلّم ولا درَس اللغة من نحوها وصرفها ومعانيها وبيانها وإعلالها وإبدالها وغريبها وإعرابها وبنائها، وما سمع منه لحنٌ قطّ بل يُلحِّن ولا يلحَن ويُصوِّب ولا يُصوَّب له، وقد أعجزت هذه اللغة الغنية الأئمة العباقرة الذين درَسوها على عهده وبعد عهده حتى لقد قامت الحرب على ساق بينهم في الصواب والخطأ، وأمضَوا أعمارهم الطويلة في الأخذ والردّ من دراستها وإثباتها في المعاجم، وما قدروا ولا أحاطوا. قال الفيروزآبادي في «القاموس المحيط»: إنّ للسيف ألفَ اسمٍ فأحصيناها كلها في رسالة خاصّة

(1) محمد بن سعيد البوصيري، المتوفى في الإسكندرية سنة 695هـ، ناظم الميمية (**البردة**) والهمزية في المديح النبوي، وفيهما من الغلوّ ومخالفة الكتاب والسنّة ما لا يخفى أمره على مَن عرف عقائد أهل السنّة، وقد نبّه على ذلك جمعٌ من العلماء منهم الشوكاني في رسالة «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» وغيره.

ومع ذلك فقد تبعه «الجاسوس على القاموس»[1]، واستدرك عليه، وكذلك صاحب «لسان العرب» وصاحب «المحكم» وو. . .

ويَعجب المعجَب من منازعة أبي حيّان الزمخشريَّ وابنَ عطيّة، ويعجب أكثر مَن حَمله على ابن مالك صاحب «الألفية» ويخطِّئه، وأكثر من هذا أيضاً من أبي حيان فإنّه أورد عجائب الشّواذ من القراءات ويردُّ ويصوِّب ويعجز هو نفسُه عن بعض القراءات، ووجدته حائراً في إعراب قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]. فقلت له ـ وهو يسمع ولا يجيب[2] ـ: «لو يقوم ابن مالك لقال لك: بيِّن لي اثنين وسبعين وجهاً التي تضمنّها بيتٌ واحد وثُلث من خُلاصتي وهو:

فارفع بها وانصب وجُرَّ مع (ال) ودون (ال) مصحوبَ (ال) وما اتصل
بها مُضافاً أو مُجرّداً

ولتحيّرتَ أيضاً، فعلامَ التحامل؟ ولقد أسمعَك ابن تيمية في استدلالك بقول: «سِيبَويَه» ما تكره «أن سيبويه قد وُجدَ له خطأً في أكثر من سبعين موضعاً» اهـ، فللّه درّ مالك رحمه الله في قوله: «وما من أحدٍ إلاّ أُخذ عنه [ويترك][3] إلاّ صاحب هذا القبر ـ يشير إلى النبيّ ﷺ.

ـ وأما ما هو عند النصارى؟

ففريقٌ منهم وهم الأكثرون، ومنهم أصحابُ الإرساليات متعصبو الماضي الأسود في عهود القرون الوسطى التي انقضت بانقضاء سياستها وويلاتها[4] غير مأسوف عليها كانوا يقولون: «القرآن تأليف محمد إله العرب

---

(1) لأحمد فارس الشدياق، وهو مطبوع بمطبعة الجوائب سنة 1299هـ.

(2) الصحيح أن الموتى لا يسمعون كلام الأحياء، والقول: أنهم يسمعون مذهبٌ ضعيفٌ لا يُعوّل عليه.

(3) إضافة من عندي والتصحيح من الأصول.

(4) كذا قال ويكفي أن يقرأ ما كتبه معاصره «كارل بروكلمان» عن الإسلام وصاحبه ﷺ وهو أشهر مستشرق أوروبي خدم العلوم الإسلامية ليتبين له العكس ويقف على حقيقة هؤلاء وحتى لا يقال: أنهم لا يعرفون الإسلام. ولا يزالون إلى يومنا هذا ـ كما كانوا=

والمسلمين!! تعلّمه من حدّاد كان يجلس إليه في مكة!! وأخذ عن ورقة بن نوفل وعن بحيرى الرّاهب وفي سفره مع عمّه وفي تجارته لخديجة!! وأخذه من التوراة والإنجيل!! وكان أحبَّ أن يكون كاردينالاً ولم يقبل منه ذلك «الباب» فغضب!! وصار يملي ضدّ النصارى ويأمر بقتل المخالف!! ويُحرّم نعمة الخمر!! ويُبيح تعدد الزوجات وهو ـ القرآن ـ كلّه متناقض!! وكذلك يُحرّم الميسر والرّبا تلك الفوائد الكبرى!! ويعمل بالاسترقاق والاستعباد!! ويشدّد في عقاب السرقة بقطع اليد ولا يرحم الزّاني بل يرجم ويغرّب ويجلد ويشهّر وما إلى هذا، فلنكتفي بهذا القليل من الكثير من زورهم وبهتانهم للحصول على قصدهم وهو التنفير، وسائقهم هو التعصّب السائد في ذلك الزمان[1].

وأما الفريق الآخر وإن هم قليلون، ولكن لا ينبغي أن يقال في قليلهم: قليل، كيف يقال في أمثال (كارليل) الإنكليزي والكونت (هنري

= ـ يشنون حملاتهم المسعورة على الإسلام ونبيه ﷺ وما قضية الدانمارك عنا ببعيدة، فاللَّهمَّ أعِز الإسلام والمسلمين. نعم بينهم منصفون وأحرار لكن آراءهم هناك منبوذة بل ومحاربة وهي في حكم الشاذ، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه كما هو مسطر في الأصول. وقد يكاد لا ينعدم زمن من الأزمان من وجود أمثال هذا الصنف سنّة الله في الخلق، والإسلام يحكم عليهم بإنصاف، ولكن لا يجعلهم أبداً مقياساً فتنبه.

(1) يضع الكثير من المسلمين اليوم نفسه أمام هذه الاتهامات موضع المنهزم ويقف موقف المدافع عن نفسه دفاع المتهم، وتكتب المجلدات، وتحرر المقالات في الرد على هذه الاتهامات، ولكن بمنطق المنهزم أمام هذا الهجوم الماكر، ولا يزال المسلمون للأسف إذا عرضوا الإسلام على الآخرين يعرضونه على استحياء... إن القرآن علمنا كيف نرد على الكفار اتهاماتهم وكيف نهاجمهم بدل أن نضع أنفسنا في قفص الاتهام، قال تعالى ردّاً على قريش قولها: إن المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام وقتلوا وأسروا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217]. ومعنى الآية: إذا كان القتال في الشهر الحرام كبيراً فعلاً ولا يجوز فأنتم فعلتم أكبر من هذا، أخرجتم المسلمين من البلد الحرام وفعلتم ما هو أشنع وهو الكفر بالله والصد عن سبيله وفتنة المؤمنين عن دينه... هذا هو أدب القرآن في مناقشة الخصوم ولا يهمنا حينئذٍ أن يغضب غير المسلمين أو نظهر أننا غير مهذبين!!

ديكاستري) الفرنساوي والدكتور (مادريس) و(جول لابوم) الفرنسيِّين أيضاً، وأمثالهم الكثيرين.

فأما (كارليل) الإنكليزي الذي ألّف كتاباً سمّاه: «الأبطال وديانة الأبطال» موضوعُه انتخاب الأفضل من كلّ فاضل يعني: من طوائف البشر، فانتخب واختار من الأنبياء نبيّنا محمد ﷺ فقال: محمدٌ بطل الأنبياء، فاعتقَدَ صدقَه وثبوتَ نبوَّته وبرهنَ على ذلك وقال: «إنّ القرآن كلام الله وليس من شأننا أن ننتقده وإنما ينتقده العرب أهل لغته وهم أدرى بذلك، حتى ضربَ مثلاً بورَق البنوك إنما يعرف صحيحُها ومزيّفها أصحاب البنوك لا غير، وكذلك اللّورد هدلي الإنكليزي فإنّه قد أسلم هو والكثير من عقلاء الإنكليز.

وأما الكونت (هنري ديكاستري) الفرنسي فإنّه قد ألّف كتاباً سمَّاه: «الإسلام خواطر وسوانح» ترجمَه إلى العربية أحمد باشا زغلول أخو سعد باشا زعيم مصر ومجمَع أحزابها، وقد أُعجبَ بهذا الكتاب صديقنا وحِبُّنا الأستاذ حُجّة الإسلام الشيخ رشيد رضا وأثبتَ في تفسيره كلاماً عجيباً في الإنصاف والاهتداء والاعتدال لهذا الفرنساوي المستشرق المؤرِّخ المحقّق ونصُّ ذلك: «وما جنابُ الدكتور مادريس الذي قال وكتب حديثاً عن القرآن بطلبِ من الحكومة بأن يترجم اثنين وستين سورة من السور الطوال والمئين والمفصَّل التي لا تكرار فيها، فقال في مقدمة ترجمته التي صدرت سنة **1926**: أمّا أسلوب القرآن فإنه أسلوبُ الخالق جلّ وعزّ فإن الأسلوب الذي ينطوي كُنهَ الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلٰهيّاً» اهـ.

قلت: فليجيبه القائلون أنّه ـ القرآن ـ من تأليف محمد إله المسلمين!! فليفهموا مثله القرآن، وكذلك جناب (جول لابوم) الذي كلّفته الحكومة لأخذ آيات الأحكام من القرآن فقد قال في مقدّمة كتابه ذلك ما حاصله: «إنّ القرآن جاء بالهدى والنور، ولتعتبر أوروبا كيف كانت عند نزول القرآن، فإنها كانت تتخبط في ظلمات الجهل والباطل والاعتداء والعدوان. . .» إلخ ما ضربَ مثلاً من الضلال في أقوام أوروبا وما كانوا عليه في ذلك العهد،

ويقول: «ما ظهر الهُدى والعلم والنور إلاّ بعد القرآن وأهله وفتوحاتهم». اهـ باقتصار.

وأما جناب العلاَّمة المؤرخ (جوستاف لوبو) الذي قال فيه شبابنا الذين أخذوا بالحظّ الوافر من اللغة الفرنسيّة وليس لهم مثل ذلك بل ولا جزؤه من عربيتهم: أنه أخذ كثيراً من «مقدمة ابن خلدون» فقال ـ أي: جناب المؤرخ الفرنساوي ـ عن الفتوحات العربية الإسلامية: «إنها أرحم وأرفق وأصلح من جميع الحكومات وأنّ القرآن إذا قدّرنا أنّنا وجدناه في الصحراء مُلقى ثم طالعناه وقرأناه فلا نجده إلاّ كتاباً إلٰهيّاً». اهـ باقتصار أيضاً.

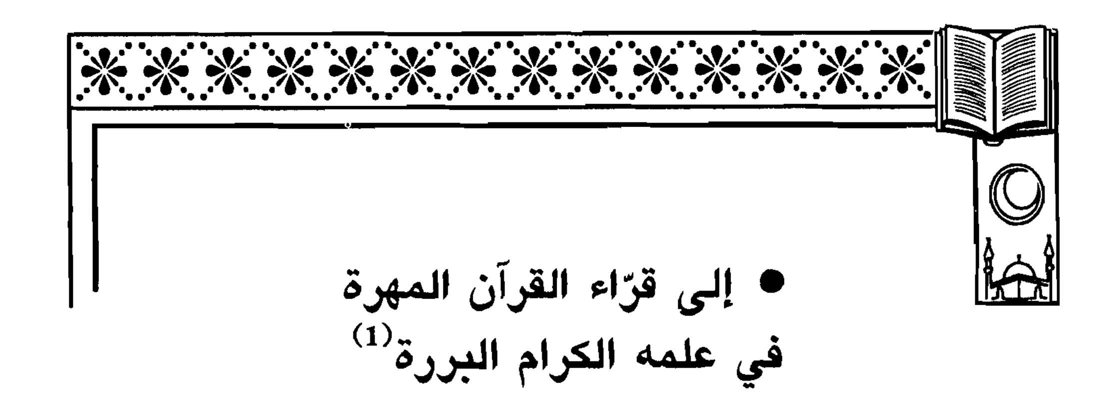
وأما الفيلسوف الموسكوفي العلاَّمة الصالح (تولتسووي) فقد أثنى ثناءً جميلاً وموصفاً بأنّ النبيَّ محمداً رسول الله، وفي مجلة الإسلام المصرية ما لفظه: «وإنّا لنقدِّم هنا الدليل القاطع على أنّ ترجمة القرآن نفسِه لم تكن فكرةً حديثة فضلاً عن ترجمة المعاني، بل هي غايةٌ قديمة عندما وضع كبار علماء أوروبا القرآن الكريم تحت أشعّة الاستقراء والبحث التحليلي منذ سبعين سنة تقريباً وانتهى بهم البحث إلى مقدارٍ من حُسن التقدير يسرُّ الأمم الإسلامية أن تطّلع عليه وأن تتخذ ما كتب الغربيون شهادةً ناطقة بما تكنّه قلوبهم لهذه الشريعة الفطرية من الإجلال والإكبار ودقّة الفهم مع اليأس المطلَق من إمكان تحويره أو الدسّ له، وكل ذلك بفضل تراجم وضعتها طائفةٌ من أساطينهم للقرآن العظيم اعترفوا فيه بأنه كتاب السّاعة وإلى القراء الكرام طرفاً مما كُتب بهذا الصدد بأقلام المشاهير المثقفين والفلاسفة في القارة الأوروبية: جاء في المجلد السادس من «دائرة المعارف الإنجليزية» تأليف (تشمبرس) عند كلمة «قرآن» ما تعريبه: وأهمُّ تعليم القرآن هو الإيمان بأنّ الله واحدٌ وأنّ دينه واحد والإيمان بيوم البعث والنشور وأنّ الله تعالى قد أرسل الأنبياء قديماً ليردُّوا الناس عن ضلالهم باتباع الهدى، وكلام القرآن بديعٌ متين فإذا قيل: إنه كلام الله ومعجزته فليس للناقدين عليه من سبيل، لأنه فوقهم ولم يُضاهَ بفصاحته وأسلوبه وسائر فضائله. وقال المستر (استانلي لان بل) في مقدمة كتابه «منتخَبات لبان القرآن» ما تعريبه: كلّ مَن يتتبّع القرآن يعلم كيف نما دين محمد ويرى أعمال فكره الثاقب العجيب

ومكافحته لأسرار مصنوعات الله البديعة ومكافحته أيضاً للأوهام التي ملئت بها صدور الكافرين حتّى لاشاها، فمن يدرُس القرآن بتروٍّ يظهر له جليّاً أنه غير مملَ ولا مكلٍّ لبال، يجب أن يعرف أنه نفس عظيمة خاضت معالم ومعامع التجارب وعادت بالفوز ظافرة، وإنّا نرى من السُّوَر الموحاة بمكة أن قصده واحد وهو الله، وموضوعه واحد وهو دعوة الناس وردّهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله وحده، فتراه مخبراً عن الله عزَّ وجلَّ بأمثالٍ بديعةٍ حسنة تأخذ باللُّباب صادرةٌ عن قلبٍ مملوءٍ غيرة، وكثيراً ما يدلّهم بمظاهر الطبيعة على خالقها القادر لكن بتصورات عربية بلغت الغاية من الحسن واللطف ـ كذا ـ، وتراه باذلاً جُهده ليعلّمهم مَن هو الله مقنعاً إياهم بعظيم قدرة الله وحكمته وعدله. . . فالقرآن من أوله إلى آخره كتابٌ جوهرٌ مفيد يجب استماعه، وفي السور الموحى بها في المدينة ترى نصوص الشرائع التي هدّت الرجال والنساء منذ زمانه حتى الآن. وقال المستر (رودول) في مقدّمته على الترجمة الإنجليزية التي ترجم بها القرآن الكريم ما تعريبُه: إنّا إذا تدبّرنا سور القرآن بوجه العموم تشرئبُّ نفوسنا لنعرف قائلها ابتداءَ منذ نشأته، فاحصاً عن الحق مثبتاً إياه بطرق فصيحة جدّاً لجلب قومه تدريجيّاً حتى صار مؤسساً لسياسة متينة سنّ لها شرائع وقوانين بحسب اللزوم. وقال (بيتن بنس) في كتابه دائرة المعارف على الأشياء المقيدة في المجلد الرابع عند كلمة «قرآن» ما تعريبُه: «إنّ مصحّح ومحوّل علوم الأخلاق والأدب والتمدين والسياسة والقصاص وتجنيد الجنود في الإسلام هو القرآن وأهم تعاليمه توحيد الله تعالى. وورَد بالكتاب نفسه عند كلمة «محمد» ما يأتي: لقد نظّم محمدٌ وعدّل شريعة تعدّد الزّوجات وحرّم شرب المسكرات والميسر ونحو ذلك من القبائح وحرّم وأد البنات وحضّ على اكتساب الفضائل والآداب. وجاء في كتاب تاريخ البرازيل المطبوع سنة **1865** بمطبعة جمعية طبع الكتب الدينية بلندن ما تعريبه: وجميع العبيد سكّان البرازيل الأصليين لم يزالوا متمسكين بالعقائد الإسلامية أشدَّ التمسّك. وقال الدكتور (استنكا) في مقالٍ بعث به إلى صاحب كتاب «قاموس العقائد والمعاملات الإسلامية» مؤلّفه ما تعريبُه: لقد طلبتم إليّ أن أصف لكم القرآن وإني لا

أرى له وصفاً صادقاً كالوصف الذي وصفه به (كوز) ونقله عن المستر (رودول) في مقدّمته على الترجمة القرآنية حيث قال: إنّا إذا عزمنا على قراءة القرآن نملُّ بادىء بدءٍ ثم نرى منه لنا جذباً قويّاً يُجبرنا على تلاوته باستغراق، ونراه يجبرنا على احترام ذاته من تلقاء نفسه وفصاحته منطبقاً على مضامينه العظيمة، وقصدُه عظيمٌ مخيف صادقٌ متين، ولسوف يبقى هذا الكتاب مدى الدّهر متسلِّطاً قويّاً أميناً - كذا - القرآن كتابٌ مدهشٌ عجيب، ومثال نفعٍ وفائدةٍ لأولي الألباب المفكّرين لسعادة الجنس البشري، ولقد قلنا كثيراً فيما سبق على الاعتراف بفضل القرآن وعلومه وأدبه، وأقول الآن: إنه أعظم كتابٍ يُخبرنا بصدق عن طبائع وحياة أعظم إنسان تنفّس الهواء في هذه الدّنيا ولذلك صدق العلاّمة (كارليل) وأحسن فيما يقول فيه: لقد ظهر لي الإخلاص». اهـ من مجلة الإسلام.

قلت: هل من أحدٍ من الموسرين يجود بترجمة هذا الكتاب؟





• إلى قرّاء القرآن المهرة في علمه الكرام البررة[1]

وقفت في هذه الأيّام على كتابٍ صغيرِ الحجم كبيرٍ في العلم لشيخ مشايخنا الأستاذ الكبير الشيخ محمد أبو القاسم البوجَلّيلي سمّاه: «تبصرة لما قرأته وأقرأناه»[2]، وفيه كثيرُ الخطأ للناسخ لا للشيخ إذ قال الناسخ هكذا بالحرف: «تبصرة لما قرأته وقرأناه عن أستاذنا السادات». اهـ[3]. وهو ممّا لا شك فيه أنه خبطٌ أو جهلٌ وتصرّفٌ للناسخ الناقل عن نسخة لغير نسخة الشيخ رحمه الله فما أبلغ المكروه إلاّ مَن نَقل، والمراد الآن أنّ الشيخ محمداً أبا القاسم نقل تنبيهاً عن الشيخ السيّد أحمد بن الزرّوق ـ كذا[4] ـ عن شأن أوقاف القرآن ما لفظه: «لا يحلُّ لكلّ مسلم مؤمنٍ بالله واليوم الآخر أن لا يقف ـ كذا والمراد ظاهر ـ في تلاوة القرآنَ العظيم على سبعة عشر موضعاً، وإن وقف على هذه ويتعدّى فإنّه يكفي سواء كان في الصلاة أو خارج الصّلاة فإنّ الصّلاة تفسُد، فلا يجوز الوقف على قوله تعالى:

---

(1) عدد (6 و7).

(2) واسمه: «التبصرة في القراءات العشرة» ويسعى أحد الأساتذة في تحقيقه، وللأستاذ عمار الطالبي بحث عن البوجليلي وأثره في القراءات، انظره في الملتقى **15** للفكر الإسلامي.

(3) ولعله أراد تبصرة لما قرأناه عن أساتذتنا السادة (الزواوي). قلت: ورد في التاريخ الثقافي (**7/35 ـ 36**) وصف لهذا الكتاب قال: «وقد بدأه بقوله: فهذه تبصرة لما قرأناه في روايات العشر عن أساتذتنا المشائخ الأعلام...».

(4) اسمه الصحيح أحمد زروق.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾. ويبدأ بقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17].

الثاني: أن يقف على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: 181].

والثالث: أن يقف على قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: 243].

الرابع: أن يقف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64].

والسادس[1]: أن يقف على قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: 73].

السابع: أن يقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: 84].

الثامن: أن يقف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 30].

والتاسع: أن يقف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 30].

والعاشر: أن يقف على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ [إبراهيم: 22].

والحادي عشر: أن يقف على قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 8، 9].

والثاني عشر: أن يقف على قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: 111].

---

(1) لم يذكر الشيخ الخامس.

والثالث عشر: أن يقف على قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: 35].

والرابع عشر: أن يقف على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿153﴾﴾ [الصافات: 152، 153].

والخامس عشر: أن يقف على قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿23﴾﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿24﴾﴾ [الغاشية: 23، 24].

والسادس عشر: أن يقف على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿2﴾﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: 2، 3].

السابع عشر: أن يقف على قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿4﴾﴾، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: 4، 5]». انتهى.

ثم إنّ الأستاذ الشيخ محمد أبا القاسم قال: «كذا وجدته تقييداً غير لفظ (تعالى) منّي، وقد أخبرني بهذه المواضع شيخُنا ابن الحداد رحمه الله تعالى وجرى واشتهر الخبر بها بين أكابر القُراء». انتهى.

قلت: لم يعلّق الأستاذ محمد أبو القاسم على هذا النقل الذي نقله عن الشيخ سيدي أحمد زرّوق غير ما ذكر، فأقول: أما التنبيه فحسنٌ ووجيه في الإجمال، وإنّ القرّاء في المغرب يقفون على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ [البقرة: 17]، وكذلك مصاحف المغرب، وإني قد ضربت عليه في مصحفي الذي نسخته بخطي، ولكن بقي أن الشيخ زرّوقاً رحمه الله قد بالغ في كون الصلاة تبطُل وسلّم ذلك الأستاذ الشيخ محمد أبو القاسم، ولم يقيّد عمداً أو خطأً أو جهلاً، ولا سيّما أنّ بطلان الصلاة فيما يتعلق بالفاتحة وبقيود وشروط معروفة ذكرها شُرّاح المختصر عند قول المصنف: «وألكن»، وأما في غير الفاتحة فبأيِّ آيةٍ قرأ كافيةٌ للسنّة، وكفى أنّ قراءة السورة بعد الفاتحة مستحسنٌ فقط. فالملخّص أنه قد يكتفي بقراءة القرآن ولو كآية واحدة أو أقلّ آية، وخصوصاً إذا كانت الآية طويلة كآية الدَّين فيها نحو ثُمن حزب فأكثر.

وهذا الكتاب الذي أشرتُ إليه في صدد هذا المقال مفيد، ذكر فيه الأستاذ سنَدَه في القراءة وذكر شيوخاً مهرة في القراءات والفضل والعلم والعمل وعلى الخصوص المعروف بل المشهور بـ «أعنتر» ورسَمه المؤلف: «السيد محمد بن عنتر»، والمعروف أن «عنتر» قرية من قرى جبال الزواوة المسماة جرجرة، والنسبة في لغة البربر بألف في أول الكلمة كالياء في آخر الكلمة العربية، وذكر الشيخ محمد أبو القاسم أنّ هذا الحبر الشيخ العنتري نسخ بيده تسعةً وتسعين مصحفاً وترك تمام المائة غير كامل فمات رحمه الله ودُفن في الزاوية المشهورة بسيدي عبدالرحمٰن، عاش في القرن الحادي عشر إذ كانت وفاته عام **1105** ودفن معه العنتري رحمهما الله[1].

هذا ومن العجائب والعجائبُ جَمّةٌ أنّ هؤلاء الشيوخ القرّاء بجبال الزواوة قليلو الكتابة والتأليف ولا سيّما أن صادفهم الحُكم التركي في القرن العاشر، فهم جنسان أعجميان وهم كما قال الحريري: «وافقَ شنٌّ طبَقة» بالرُّغم من أنّ الزواوة من قبائل صَنهاجة، وصَنهاجة عربية من حِميَر، ولكنّهم استعجموا فامتنعوا من التعرّب والاستعراب وامتنعوا من الصّرف، علّتان إذا وُجدت في اسمٍ مُنع من الصّرف.

وبالجدّ أنهم كانوا قبل وباء القرن السابع والثامن حمَلة العلم والدين أي: العمل، قال ابن خلدون: «إنّ ناصر الدين المِشِدّالي جدّد العلم في أواخر القرن السابع يعني في شمال أفريقية ببجاية وتلمسان». اهـ.

قلت: كان الإمام ابن مرزوق رحمه الله معجباً بالعالم الشاب محمد بن أبي القاسم المشدّالي أيضاً وقال: «كنت في تلمسان مع طلبة العلم أقول كما أحبّ ولا أتحرّز ممّا عسى أن أُصيب فيه أو أخطئ، ولكن لما قدم علينا هذا الشاب الزّواوي تحرّزت وتحفظت كثيراً، وإنّه ليتفجّر علماً» إلخ ما قال. ولما توجه المشدّالي هذا تلقاء مصر واجتمع بجلال الدين السيوطي الحافظ الذي قال: «لا أعلم أحداً أعلم مني بالعربية والحديث

---

(1) انظر مقدمة الأستاذ عمار الطالبي لكتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعالم مدينة الجزائر الشيخ عبدالرحمٰن الثعالبي.

وادّعى الاجتهاد» قال: «إنّ هذا الشاب الزّواوي آية في العلم والحفظ نادرة الزمان وفائق الأقران...» إلخ ما قال فليراجع «تطريز الدِّيباج».

هذا والمراد بهذا الاستطراد أنّ العلماء قلّوا كثيراً بعد الوباء ولا نفوذ للبقية الباقية منهم وإلاّ فكيف يسكتون عن بدعٍ ومنكراتٍ جارية ولا تزال تجري في الزواوة إلى اليوم وحتى اليوم، مثلُ منع الإناث من الميراث، وعدم وجود القضاء فإنّ هذين الأمرين ليسا مما يُستخفّ به فإنّي قد لخّصت القول فيهما من رسالتي «جماعة المسلمين»: إنّ بلدةً عربيةً إسلامية سنيَّة لا ميراث للإناث فيها ولا قضاء شرعي بشرطه والحكم والتحاكم إلى العرف والعادات وكلّ تحاكم للمسلم إلى غير شريعته فهو تحاكم إلى طاغوت وهو ردّة.

وإنّي لأتعجب أشدّ التعجب لسكوت المتأخرين بعد الوباء مثل الشيخ محمد امزيان ابن الحدّاد وشيخ مشايخنا السيد محمد أبو القاسم البوجَلْيلي والشيخ القاضي الفقيه والشيخ محمد بن علي بن مالك من قرية تقآبة[1]، وهذا الحبر عليه أخذ الشيخ محمد أبلقاسم ووالدي فقهاً ونحواً وقراءات، وأظنّ أن سكوتهم بل عجزهم لعدم وجود مَن يؤيّدهم ويأخذ بقراراتهم، ولأنّ دولة الترك لم تتمكن من تلك القبائل حق التمكن، والحال أن التصحيح والتأصيل في علم الميراث ليسا بالسّهل، ويُضاف إلى ذلك تمكن العصبة والمغتصبين من الأموال والعقارات فحازوها، وكذلك خشية تغلّب النساء واستثقال القسمة وذهاب البنات والعمّات إلى أزواجهن الأجانب، فسوّل الشيطان ذلك كله والحكومة التركية اسمٌ فقط، وهكذا بقي الأمر على ما كان عليه القديم على قدمه فغشي قبائل الزواوة ما غشيهم من ظلمات الجهل، وكانوا قد أوقفوا الميراث بسبب الوباء مؤقتاً إلى أن ينتهي ذلك الوباء الذي قال فيه ابن خلدون أن فيه مات أبوه وطوي محاسن عمران

(1) هؤلاء الأعلام تجد أخبارهم مفرقة في التاريخ الثقافي للأستاذ أبي القاسم سعد الله القماري، ولم يفرد لهم الحفناوي ترجمةً في كتابه الذي خصَّه بأعلام الجزائر، وسنتطرق لترجمة بعضهم في الأعداد الآتية من هذه السلسلة إن شاء الله.

شمال أفريقية، ولهذه الأسباب كلها تمادى جهّال الزواوة على عدم توريث الإناث كأنّ لهم أصلاً في بعض قبائل الحجاز قبل نبوته ﷺ لا يورثون الإناث، فتمكنت هذه القضية المنكرة في قبائل الزواوة(1) وعلى عهد فرنسا ينكرون القضاء الذين تولّيهم عليهم، فساعدتهم على ذلك ومع طول الأمد فقست القلوب عياذاً بالله.

وأعود فأقول: كيف سكتوا أعني: العلماء المذكورين بل والحاضرين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا!؟ أم يخافون أن يقول لهم الولاة الأتراك: وايش دخلكم؟ فهابوا من شدة البطش، أفلا تتدبرون الآية. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: 2].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة: 16]، هذا وأثني ثناءً جميلاً على فئةٍ منهم من «بني يراثن» هاجروا وقومهم إلى الشام، ووجدت أولادهم هنالك وهم السادة الشيخ السكلاوي ومن معه من الشيخ ابن أعراب وابن عمّنا في النسب الشيخ محمد المبارك، ثم إنّ الشيخ ابن الحداد عاتبهم على الهجرة وترك الوطن فارغاً من العلماء(2)، ولكن إذا سلّمنا هذا جدلاً فلا نسلّم أن يسكت هو وأتباعه الغلاة فيه والمفتخرون به، وما وقفنا لهم على أيّ إنكار ولا غضب لله وللرسول وللإسلام الذي أكلوا به الدنيا، وما وقفنا لهم وما بلغَنا عنهم إلاّ مراتب التلقين والتقديم والمشيَخة والأوراد القُطبية والغَوثية والولاية في الجملة، كيف تُرجى الولاية لقوم لا قضاء لهم ولا ميراث!؟ والله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

---

(1) لا تختص هذه العادة بقبائل الزواوة بل تتعداها إلى غيرها فقد ذكر الونشريسي في المعيار (11/297، 293) مسألة منع النساء من الميراث ببلاد القبلة ـ بفتح القاف المعقودة ـ بالمغرب الأوسط، وقيل: إنه حدث منذ القرن الخامس.

(2) مسألة الهجرة وترك البلد الذي تغلب عليه العدو الكافر من المسائل التي خاض الحديث عنها مطولاً بين علماء الجزائر، وسنفرد لها عدداً خاصاً.

﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٤﴾ [النساء: 13، 14]. ولله درّ صاحب المثل العامي: «يستحفَظ على الكمّون ويتلّف الزَّعفْران». هذا وكأنّي بكلٍّ واحدٍ منهم أو جميعهم منهم أبي وشيخي أجديد يقولون لي: «والحيّ قد يغلب ألف ميت، وأنت ماذا فعلت؟». أجيب: قلتُ كثيراً وكتبت أكثر وناديت وأسمعت وقد نشرت في الجرائد وخطبت في المساجد وكاتبت الخواص من طلبة العلم من الزواوة فأجابوا بالاستحسان مع العجز عن الإصداع بالأمر لعدم النفوذ لهم، ولم أعذرهم ما داموا مقصّرين في التبليغ والتذكير بل والتقريع والتنديد الشديد، ويبتدأون بالتدريج كما في آية يس: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: 14]، ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ١٦﴾ [يس: 16]، وقد سطّر العلاّمة الغزالي شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما به كفاية.

هذا وقد سرّني غاية السرور ما قد بلغني في هذه الأيام من قيام جميع شيوخ الطُرق في الزواوة منادين بأجمعهم ومطالبين بالتوبة والإنابة إلى إعطاء هذه الحقوق الميراثية، وقد أحسنوا والذي أثار ذلك ـ ولا شك أن قد سمعه أو بلغه عني ـ هو أحد السُّراة من الشرفاء الأعيان التاجر السيد مقران اليراثني تلك القبيلة الشهيرة الشديدة المراس، فطلب من شيوخ الطرق الذين هم كلهم من شرفاء مسلمون أصلهم عرب أبناء الفاتحين فأجابوا بما قد نُشر في الجرائد ممّا لي عليه ملاحظة تنفع ولا تضرّ إن سنحت الفرصة.

هذا وأختم بتنبيهين عظيمين مناسبين أحدهما كثرة تسمية «بلقاسم» في وطننا، وهو لحنٌ وتحريف عن أبي القاسم كُنية النبيّ ﷺ الذي نهى عن التكنّي بها كما في صحيح البخاري، وعليه فالتحريف لا يجوز وهو ركيك ولا محل له من الإعراب.

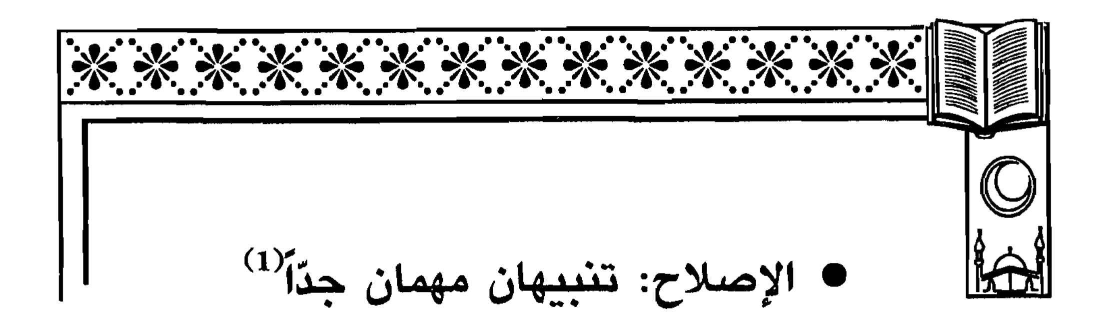
والثاني محمد ـ بفتح الميم ـ لا يجوز أيضاً، ويحرم على القادر أن يتلفّظ به، وذلك مما تركه الترك هنا إذ كان غالباً، والناس كما قال ابن خلدون: مولعون بتقليد الغالب حتى صار هذا التغيير علَماً مقابلاً أو قيداً من

محمد، أما الترك فبعجزهم مثل الفرنسيين «ماحومى» و«محمطان» للمحمدية.

وعجبت كثيراً للعلاّمة الحَجَوي إذ وفد على الجزائر منذ أربعين سنة، وقد كتب أسماء الذين اجتمع بهم من الأعيان والعلماء فأتعب نفسه عند تسطير أسمائهم في رحلته تلك، ويقول مَحمد - بفتح الميم - وأكثرَ من ذلك وهلاّ نبّه أو تنبّه؟؟ وأشكره إذ ترك لي محلاّ للقول كما تركه لي أهل العربية كلّهم، إذ لم أقف أنّ أحداً سبقني إلى هذا بل إلى جميع ما سطّرت في هذا المقال، ثم هل يسامحونني إذا أنشدتهم قول أديب المعرة:

وإنّي وإن كنتُ الأخيرَ زمانَه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ





• الإصلاح: تنبيهان مهمان جدّاً[1]

أحدهما: يتعلّق باسم رسول الله ﷺ «مُحمَّد» للناطقين به بفتح الميم الأولى حتى صار علَماً ممتازاً أو مقابلاً للأول الأصليّ، وهو خطأ محض جرى وسرى من عجمة الترك وقد عجزوا عن التلفظ به بالرفع، ولما كانوا كبراء وولاة بهذا القطر تبعهم العامة، وتبع الخاصّة العامة لأن الترك كانوا غالبين والمغلوب كما قال ابن خلدون مولَعٌ بتقليد الغالب، وقد نبّهت إلى هذا في كتابي «الأمة العربية» ولم أقف على أنّ أحداً نبّه إلى هذا وهو مهمّ كما قلت: إذ لا يجوز للقادر على النطق به، ومن العجب والعجائب جمّة أنّ العلاّمة الشيخ الحَجَوي ذلك البحر الخِضَم في العلم لما قدم هذا الوطن منذ نحو أربعين سنة كتب أسماء السادة الذين اجتمع بهم، وكانت أسماؤهم كما ذكرنا أتعب نفسه بالتنصيص بهذا القيد وهذا اللفظ «مَحمَّد» بالفتح، وكان الأولى أن ينبّه إلى هذا وهو هو، ولكنني أشكره إذ ترك لي مجالاً ومحلاًّ لهذا التنبيه. وبالجملة إن تغيير اسم النبيّ ﷺ «مُحمَّد» للقادر على النطق به يكون ممنوعاً والناطق به يكون مسؤولاً ولم؟ وفي القرآن: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 29]، وأما العاجزون من العجم مثل البربر والترك فيُعذرون[2].

---

(1) عدد (8).

(2) قد حصر الشيخ علة النطق به كذلك بالعجز فقط وفيه نظر، فقد ذُكر أن أهل الزواوة ينطقون باسم محمد هكذا «محند» بالنون بدل الميم. وسببه تحاشيهم التسمي باسم النبيّ الأعظم ﷺ تهيباً من مكانة صاحبه واحتقاراً للنفس من التطاول إلى مرتبته، فاستبدلوه بمحند لتحصل البركة باسمه على كل حال. وهذا التعليل غير بعيد فقد عرف=

والآخر: أعني التنبيه الثاني جملة «الحمد لله وحده» طُغرى دولة الموحدين، وقد قال المؤسس ابن تومرت: إنه الإمام المعصوم المهدي المعلوم حسبما في كتابه وتأليفه المصدر بقول: «أعزّ ما يُطلب»[1]، بل فلا أذهب بالقراء بعيداً إنّ أبا إسحاق الشاطبي قال في كتابه «الاعتصام»: أنّه - ابن تومرت - قال: به قامت السماوات والأرض فليراجع.

والمقصود: التنبيه إلى العالم العربي والإسلامي كافّة والمغربي خاصة لزوم الضرب عن هذه الجملة وإن كانت مشتملةً على اسم الله، ولكن لا ينبغي العدول عن عمل السلف بل عمل الرسول ﷺ أنه كما قلت أيضاً ونبهت غالبَ مَن كاتبتهم بهذا الوطن، لم يرد أنّه ﷺ كتب بغير البسملة ولا خطب بغير الحمدلة، ولا قرأ بغير التعوذ، فعلام العدول عن هذه؟ وكذلك من أسلوب السلف بعد البسملة: من فلان إلى فلان، وقد وقفتُ أن صحابيّاً كتب هكذا: من فلان إلى رسول الله مبتدئاً هكذا باسمه لصدور الشيء منه لأنه الحقيقة الثابتة والعلم بها متحقّق.

= عن أهل المغرب عموماً التواضع والتسمي بأسماء توحي بتصغير النفس واحتقارها فاستبدلوا قادر بقويدر، وعبدالقادر بعبدالق «كذا وفيه ما فيه» وكذلك أحمد بحميدة وغيرها، في حين أن المشارقة عكسوا الأمر إلى التفاخر وتزكية النفس فتسموا بنور الدين وشمس الدين... والمعتصم بالله... ولما دبت هذه الألقاب إلى أهل الأندلس كرهها أهل المغرب وفي ذلك يقول القائل:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وقد اشتهر عن الشيخ تقي الدين رحمه الله أنه كره التسمي بهذه الأسماء التي تزكي النفس، وذهب ابن الحاج صاحب المدخل إلى كراهة التسميتين المشرقية والمغربية واختار الوسط. أما اعتراض الشيخ على الحجوي ففيه نظر إذ أن غاية الأسماء هي التمييز بين الأعيان ولو كتبها بغير ما هو منطوق بها لما عرفه أهل بلده فضلاً عن غيرهم، وليس الحجوي في هذا الصنيع بفريد ودونك كتاب فهرس الفهارس للكتاني لتقف على حقيقة ما ذكرت.

(1) مطبوع بالجزائر.

وقد اتخذت دول أوروبا هذه القاعدة من ابتداء الرسائل باسم المرسل ويقولون: من وزارة دولة كذا... إلى دولة كذا... فالرجوع إلى الأصول عند الخلاف قاعدة أصولية وبها كفاية.





• كتاب مفتوح إلى الإخوان الكرام الكاتبين[1]

نذكّركم والله تعالى يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: 55] أنّ الكتابة في القضايا المسلّمة ينبغي أن تكون في غاية الاختصار، وإنّما يلزم الاعتناء بتوجيه الأنظار إليها على طريق التحلية والتخلية مثال ذلك: في الخمر والميسر والربا والزنا وسائر الفواحش ما ظهر منه وما بطن، والإثم والبغي وسائر الفسوق والعصيان، فإنها من القضايا المسلّمة المجمَع في هذا الزمن على أنها منكرة ديناً وطبعاً فالكلام في ذمّها من تحصيل الحاصل وكذلك في تحريمها عندنا معشر المسلمين.

وكذلك الكلام في معرفة الله عزَّ وجلَّ ومراقبته والإيمان به والصلوات والزكوات والصوم وحتى الحجّ، وكلّها من القضايا المسلّمة وأنها محمودة وحقّ، وإنما لعمل قليل وأقلّ من القليل فيلزم الكاتبين أن يعتنوا بالتحلية والتخلية وتوجيه الأنظار إليها والاحتيال على الترك فيما يلزم تركه وعلى العمل فيما يلزم العمل به، وعن ذكر الخمر لتعلموا معشر الإخوان المسلمين أن النصارى من أوروبا وأمريكا أعرف وأعلم منا بأضرارها، وقد حرّمته حكومة أمريكا عند الحرب الأولى (14 ـ 18) وقال بعض العباقرة من الأطباء الفرنسيين: إنّه يتعجب من الحكومات التي تحرّم بيع السموم وتُبيح بيع الخمور، وعقدوا مؤتمرات وألّفوا جمعيات لمنع المسكرات على الإطلاق

(1) عدد (9) بتوقيع «أحدكم»، وهو الزواوي كما ورد في فهرس المجلة.

لأنها مهلكةٌ للأبدان والأديان، وأنها تقضي بقطع النسل وأنّ الأولاد الضعفاء المقعنسين والمحدودبين والمشتدّ بهم النحول وحتى الجنون أن ذلك كله من أسباب الخمر، وكذلك قالوا ونبهونا إلى أنّ الذي يسكُر يسهّل تمكن الإصابات منه ولا سيما السلّ الذي أعيىٰ الأطباء المكتشفين والمخترعين وجود دواء له بلهَ ما يصيبه من العثرات والسقوط والنحول والبطلان وسائر الخسران البدني والديني أو كما قال الله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: 11].

فالكلام والكتابة رتبة ثانية في الكلام في مثل هذه القضايا المسلمة تعدّ من باب تحصيل حاصل أو كنحوي يقول: السماء فوقنا والأرض تحتنا، وإنّما الكلام والحيلة في كيفية تركه الذي عجزت عنه أمريكا العجيبة وذات العجائب التي قهرت ألمانيا وغلبتها.

هذا وممّا أفاد أوروبا وأمريكا للانتباه إلى مضار الخمر وسائر المسكرات الإحصاءات المعمول بها في هذا الزمان، وهي أنّ الحكومات في المدن الكبرى وغيرها تأمر بإحصاء الجنايات الواقعة يوميّاً أو أسبوعيّاً أو سنويّاً فتتحصل على الجملة، مثال ذلك: وقع في مدينة الجزائر مائة جناية في أسبوع كذا من سنة كذا فتستنتج أن تسعين في المائة سببها الخمر فتتعجب، وكذلك الإحصاء في المستشفيات من المجانين والمنتحرين والذين يرمون أنفسهم من المنافذ في المساكن والقاتلين لنسائهم وأولادهم الصبية فيجدون أن 99 في المائة أسبابها وحاملها أو الحامل عليها الخمر وهلم جرّا، بلهَ مباحث الأطباء في المؤتمرات وفي وفي.

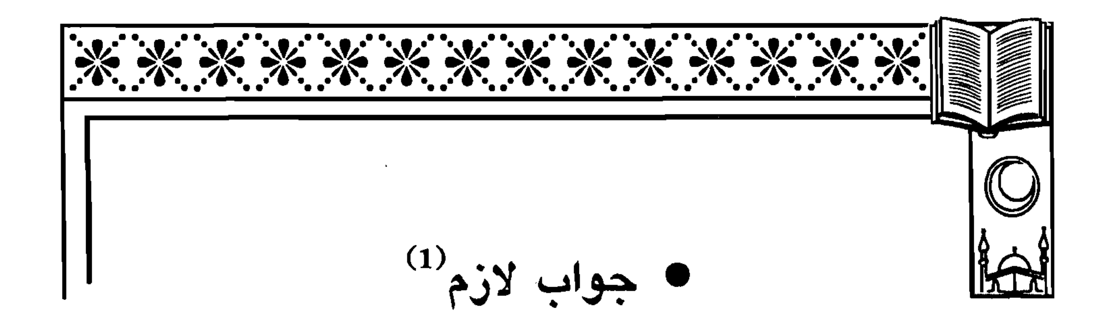
هذا وأعجبني ما بلغني هذه الأيام من إحصاء وقع في إنجلترا من أنّ عدد النساء تجاوز الحد على الرجال فقرروا تعدّد الزوجات، وهو مصداق الحديث عندنا معشر المسلمين مما أثبته عبقري هذه الأمة العلاّمة محمد بن إسماعيل البخاري في كتابه العجيب «باب يقلّ الرجال ويكثُر النساء حتى يكون لأربعين امرأة قيّم واحد وفي رواية خمسين امرأة»، وقد ألّف أبو يعلى رسالةً في ذلك فاطّلع عليها أمير البيان شكيب أرسلان فأُعجب بها وكاتب

الجريدة «البلاغ»[1] التي نشرتها مثنياً عليها وشاكراً لها. . . إلخ.

فالملخّص الآن أن تكتبوا في التحلية والتخلية وفي الكيف الذي نأخذ به ونطلبه من الحكومة، أن تقرر ما نرفعه إليها من اعتداء السكارى والفساق من السّباب والفحش والتفحُّش، وأن توافق الحكومات في كلّ محلّ على ما يطلبه منها المفتون والأئمة من العقاب وذلك من الاحتساب الواجب في ديننا الإسلام، وليس من الحرية الشخصية التي تزعمها المدنية الإفرنكية فإن رضيته فإن الإسلام لا يرضى، وهكذا الكلام في الميسر والزنى أي: يكون في منعها لا في مضارّها، وأنّ تقرير المعلوم ضربٌ من الجهل وفي هذا القدر كفاية لمن يريد أن يكتفي.



(1) جريدة أسبوعية تحت إشراف الطريقة العليوية، تأسست سنة 1926 دافعت عن الطريقة الصوفية ووقفت أيضاً ضد التنصير ودافعت عن اللغة العربية واهتمت بالحياة العامة بما فيها السياسة ولكنها كانت تقف في الصف المعارض لجمعية العلماء. انظر التاريخ الثقافي (260/5)، وكان الزواوي يراسلها أحياناً ويتصل بصاحبها أحمد العليوي أو العلاوي رغم أنه محسوب على الإصلاحيين، الأمر الذي جلب له كثيراً من النقد راجع ما كتبناه عن هذه القضية في ترجمة الزواوي ضمن مقدمة كتاب الخطب بعنايتنا.



• جواب لازم[1]

جاء في جريدة البصائر لسان العلماء بتاريخ يوم الإثنين الثّاني من شعبان سنة التاريخ مقالٌ يستحقّ بل يستلزم الجواب ولا يليق السكوت عنه، وعلى الأخص جملةٌ واحدةٌ أو جملتين، فلا بدّ من اعتبارهما شرعاً إن أمكن الجواب من حيث القدرة على الكتابة أو الكلام، والمقال بعنوان: «مجلة صوت المسجد والقضية الدينية» لكاتب باسم مستعار «فقيه سلفي»، فالأَولى التصريح وعدم الاستتار إذ القضية دينية شرعية[2] ولكن لا مشاحة في الاصطلاح العصري لأهل المطباعات.

فإحدى الجملتين هي: «كيف يسوغ لمسلم أن يطلب وظيفاً دينيّاً من حكومة غير مسلمة؟ والأخرى: ولو كان العاصّمي ذا إنصاف لما أعطى لنفسه أيّ حقٍّ في التدخل في هذه القضية فضلاً عن الاستئثار بها والاعتراف بأنّه وأمثاله من الموظّفين الحكوميين جزء لا يتجزّأ من الحكومة ولو أسخطوا الله ورسوله والمؤمنين ويعملون لتأييدها على باطلها، ولو كان ذلك لا يلتقي مع الإسلام في شخص من حكومة غير مسلمة». انتهى.

الجواب: إنّ الأصل في الوظائف الإسلامية أن لا تُطلب وعلى الخصوص القضاء وإنّ رسول الله ﷺ هو الذي يُولّي القضاة والأمراء،

---

(1) عدد (10).

(2) أخفى الكاتب اسمه خوفاً من بطش السلطات الاستعمارية الجائرة وليس خوفاً من المواجهة كما قد يُظن.

والأمراء هم الأئمّة المقدّمون للصلوات، وثبت في صحيح البخاري ومسلم قوله ﷺ: «**إنّا والله لا نولّي هذا العمل أحداً سأله أو أحداً حرص عليه**»[1]، وقد حرّر ﷺ كثيراً من الإمارة لما فيها من المسؤولية والتّبعة الكبيرة حتى قال: «**نعم المرضعة وبئست الفاطمة**»[2]. وعلى ذلك جرى عمل الخلفاء الرّاشدين من بعده إلى أن صارت ما صارت ولبئس المصير. ثمّ حدث بعد القرون الثلاثة الترشيح للقضاء والإفتاء والتدريس والإمامة وهو المعبّر بالإجازة في علوم تستلزمها تلك الوظائف، والإجازات بالامتحان والمباراة وحدث في الوظائف الدينية لزوم العدالة والشّهادة ويختار الخلفاء والسلاطين القضاة والأئمة. وقال الخِرَشي شارح المختصر ما لفظه: «فقد أقام الإمام حولاً يُجبر سُحنوناً على القبول للقضاء فلم يقبله فلمّا تخوّف منه قبله، ولما ولي سُحنون القضاء قال له رجلٌ من أهل الأندلس: وددنا والله أن نراك فوق أعواد نعشك ولا نراك قاضياً». اهـ. بالحرف.

وهكذا كان تجافيهم وتباعدهم عن تَبعات الوظائف ولا سيّما الإمارة، وناهيك بإمارة الشيطان الحجّاج بن يوسف السفّاك، ولما ذكرت قول الخِرَشي عن سُحنون لبعض مَن تذاكرنا معهم عن القضاء تعجّب وهو دارسُ المختصر والخرشي عليه فقال: «فكأنّا لم نقرأ هذا ولم نطّلع عليه»، فقلت له وهو بقيد الحياة وربما يطلع على هذا المقال: أني لم أتعجب من سُحنون إذ هو هو في العلم والزهد والعدالة بل تعجبت من هذا السلطان الذي لم يحاب أحداً من ذويه وأهله وحاشيته وأصحابه من العلماء الكثيرين في الأندلس.

وقال ابن كثير في تاريخه: «بعث عمر بن عبدالعزيز عديّ بن أرطاة على البصرة نائباً وأمره أن يجمَع بين إياس والقاسم بن ربيعة الجرشي فأيّهما كان أفقه فليولّه القضاء، فقال إياس وهو يريد أن لا يتولى: سل فقيهي

---

(1) أخرجه مسلم (1733) من حديث أبي موسى الأشعري.

(2) أخرجه البخاري (7148) من حديث أبي هريرة بلفظ: «**إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة...**».

البصرة الحسن وابن سيرين وكان إياس لا يأتيهما، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به - يعني: بالقاسم - لأنه كان يأتيهما، فقال القاسم لعدي: والله الذي لا إلٰه الا هو إنّ إياساً أفضل منّي وأفقه منّي وأعلم بالقضاء فقال إياس: هذا رجلٌ أُوقف على شفير جهنّم فافتدى منها بيمين كاذبة يستغفرُ الله، فقال عدي: أما إذا فطنتَ إلى هذا فقد ولّيتك». اهـ.

قلت: كذا كانوا أما نحن الآن فلسنا ذوي شيء من الأمر لا من التولية ولا من العزل، فقد تعطّلت الخلافة واختلّ القضاء وانعدمت الحسبة، ولم نقف عند هذا الحدّ فحسب بل صرنا أسارى وقد وقع الاستيلاء علينا فكان ما كان، أيها الكاتب، الذي طعنت في عدالتنا وتوظّفنا وإقامتنا على يد دولةٍ غير مسلمة وانتزعت منّا أمر التولية والعزل، والهجرة لعشرة ألف من المسلمين في الجزائر وأنت واحد منهم واجبة مع عسرها بل وعدم إمكانها بأن لا محلّ لها ولا أرض تسَعها فكيف العمل؟ أفنجمع أمرنا وشركاءنا فلا نعمل لأنفسنا ولا لهذه الدولة فتدبّر وأنا أتدبر معك!! والهجرة باقٍ حكمها إلى يوم القيامة كذا أجمع الفقهاء، وقوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»[1] وذلك عند استيلائه على مكة وفتحها فقط فما حكمك أيها الفقيه على مَن قبلنا منذ طرأت علينا هذه الدولة؟ في أولئك العلماء والأئمة والقضاة والمفتين والمدرّسين من أشياخنا وآبائنا وأجدادنا أم هم عدول ونحن فسّاق؟[2]

---

(1) أخرجه البخاري (**4311**) من حديث عبدالله بن عمر.

(2) أجاب الشيخ الإبراهيمي رحمه الله على هذه الشبهة فقال: «سكوت الأوائل لا يجعل المنكر معروفاً، بل هذه بلية عظمى أصيب بها المسلمون وهي وراء ما شاع في المجتمع الإسلامي من بدع ومنكرات يسكت عليها الأول فتصير عادة، وتستحكم فتصير سنّة، وتتكاثر أنواعها فتغطي على الدين الصحيح وعلى السُّنن المأثورة فيه، وعلى المناهج القوية في شؤون الدنيا». اهـ من عيون البصائر ص(**154**).

وقال أيضا: «إن سكوت علماء الأرض كلهم على الباطل في الدين لا يصيره حقّاً، وإن تواطؤهم جميعا على منكر فيه لا يصيره معروفا، وإننا لسنا من الكرامة على الله أن ينسخ أحكام دينه لأجلنا أو ينسخ صواب دينه لخطئنا فيه، وما ثَمَّ إلا ما خُتمت به الرسالة». اهـ من آثار الإبراهيمي (**156/2**).

وقد عمّمت إذ قلت: «من الموظّفين الحكوميين جزءٌ لا يتجزأ من الحكومة يهمّهم إرضاؤها ولو أسخطوا الله ورسوله والمؤمنين» وهل هناك موظّفون غير حكوميين أفي دولة دولة؟ ويا ليتك لم تعمّم[1] فإنّ من أولئك الموظفين وهم ألوف منهم ثقات وعدول وأمناء وذو الغيرة والحميّة والمدافعة إلا أنّهم مسالمون ولكن في أشياء دون أشياء، وفيما لا يضرّ بدينهم وإخوانهم وإليك ما قال العباقرة قبلك وقبلي في أهل جزيرة صقليّة حين استولى عليهم الإفرنج في فتاوى الشيخ علّيش من الجزء الأول[2] (ص27): «وسُئل أبو عبدالله المازَري رحمه الله تعالى عن أحكام تأتيه في زمانه من صقلّية من قاضيها وشهود عدولها هل يُقبل ذلك منهم أم لا؟ مع أنها ضرورة ولا نرى إقامتهم هناك تحت أهل الكفر هل هي اضطرار أو اختيار؟ فأجاب: القادحُ في هذا وجهان، الأول: يشمل القاضي وبيّناته من ناحية اختلال العدالة إذ لا يُباح مُقامٌ في دار الحرب في قياد أهل الكفر، والثاني: من ناحية الولاية إذ القاضي مولّى من قِبل أهل الكفر. والأول: له قاعدة يُعتمد عليها في هذه المسألة وشبهها وهي تحسين الظنّ بالمسلمين ومباعدة المعاصي عنهم، فلا يُعدل عنها لاحتمالاتٍ كاذبة وتوهّمات واهية، كتجويز من ظاهرُه العدالة وقد يجوز في الخفاء ونفس الأمر أن يكون ارتكب الكبيرة إلاّ مَن قام الدليل على عصمته، وهذا التجوّز مطروح والحكم للظاهر إذ هو الأرجح إلا أن يظهر من الحال ما يوجب الخروج عن العدالة فيجب التوقف حينئذٍ حتى يظهر بأيّ وجهٍ زوالُ موجب راجحية العدالة ويبقى الحكم لغلبة الظن بعد ذلك، وهو مستفاد من قرائن محصورة

(1) يقول الشيخ الإبراهيمي رداً على هذه التهمة: «إن كلامنا على عمومه، في الوظيفة على عمومها لا في الموظف. . . كلامنا في أصل القضية، وهو غير قابل للاستثناء ولا كلام لنا في الفضل والعلم والاستقامة فنحن أعرف الناس بأهلها، وبحظوظهم من العلم أو الفضل ولكنهم مغمورون بهذه الطائفة كلها». اهـ من آثار الإبراهيمي (2/208).
وقال أيضاً: «الوظيفة الدينية الإسلامية أصبحت عند الحكومة ـ بتهافت هؤلاء القوم عليها ـ مشروطة بالجوسسة، والقوم أصبحوا بها جواسيس على الأمة على حساب دينها، إلا القليل ولا حكم للقليل. . .». اهـ من آثار الإبراهيمي (2/207).

(2) وأوردها أيضا الوزاني في النوازل الجديدة الكبرى (3/32 ـ 33).

فيعمل عليها، وقرائن العدالة مأخوذة من أمر مطلق متلقّى، وقد أمليتُ من هذا طرَفاً في «شرح البرهان» وذكرت طريقة أبي المعالي لما تكلّم فيما جرى بين الصحابة من الوقائع والفتن رضي الله عنهم.

وهذا المقيم بدار الحرب إن كان اضطراراً فلا إشكال أنه لا يُقدح في عدالته، وكذلك إن كان تأويلُه صحيحاً مثل إقامته ببلد الحرب لهداية أهل الحرب ونقلهم عن ضلالتهم كما أشار إليه الباقلاني وكما أشار إليه أصحاب مالك في تجويز الدخول لفِكاك الأسير» إلى أن قال ـ أعني: المازري ـ: «وأما الوجه الثاني: وهو توليةُ الكافر القضاة والأمناء وغيرهم لحجز الناس بعضهم عن بعض، فقد ادّعى بعض أهل المذهب أنّه واجبٌ عقلاً وإن كان باطلاً تولية الكافر لهذا القاضي، إما بطلب الرعيّة أو إقامته لهم الضرورة كذلك، ولا يُطرح حكمه وينفّذ كما لو ولاّه سلطان مسلم». انتهى بالحرف[1].

أقول أنا المتفقّه للأخ الفقيه: إنّ الأمر كما قلت آنفاً وكما قلت في

---

(1) قد بيَّن الشيخ البشير الإبراهيمي أن الكلام في بطلان الصلاة راجع إلى الوظيفة على عمومها لا إلى الموظف كما سبق، فلا معنى من إيراد فتاوى العلماء في شروط الإمامة وأركانها... ثم لا شك أن فتوى المازَري متعلقةٌ بحال الضرورة، والضرورة تقدر بقدرها كما هو مقرر في الأصول، اللّهمَّ إلا إذا اعتُبر أن ضرورة بداية الاحتلال هي ضرورة اليوم وضرورة الغد... وحينئذٍ يجمد المسلمون ويرضون بواقعهم وينتظرون خروج المهدي ليخلصهم. وبمثل هذه العقول يظل المسلمون تحت سطوة الاستعمار الكافر يستبيح دماءهم وأعراضهم، وينهب أرضهم وخيراتهم ويستعبدهم، ولا تتعجب ـ أيها اللبيب ـ بعد هذا لماذا ظل أولئك العلماء والأئمة والقضاة والمفتين والمدرّسين من أشياخنا وآبائنا وأجدادنا ـ كما قال الزواوي ـ على ذلك الحال ولم يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم... إنه التقليد المذموم.

وهاهنا يظهر الفرق بين الزواوي والإبراهيمي في المعرفة الصحيحة بالواقع والفقه الصحيح بالسياسة الشرعية، يقول الشيخ البشير: «جهل المسلمون حقائق دينهم، وجهلوا الحكم المنطوية تحت أحكامه، ومن أسباب ذلك جفاف الفقه عند الفقهاء لأخذهم إياه من كتب تعلم الأحكام ولا تبين الحكم...» إلى آخر كلامه.

رسالتي «جماعة المسلمين» بسبب أنّ الخلافة غير موجودة والقضاء تابعٌ لها ومن شرطه أن يولّيه الخليفة وكذلك سقوط الحسبة واستيلاء الإفرنك على تسعة أعشار وزيادة من المسلمين، لم يبقَ لنا إلاّ جماعة المسلمين لنعمل لها وعليها إلى أن ينصّب الخليفة ويرجع القضاء والحسبة إلى نصابهما وإلاّ فالعالم الإسلامي كلّه مسؤول، وبأنّهم عاملون على غير نظام الشريعة الغرّاء، فالتحامل على الموظّفين في الحكومات العادلة ـ وأين الحكومات العادلة؟ ـ دعوى لا تؤيّده حجّةٌ شرعية، فهذه مصر أرقانا وأملكنا لأمرها منّا أُبيح فيها الخمر والميسر والبغاء أن جعلت فيها جمعية لمنع الخمر رئيسها الأمير الثريّ الصالح المتبرّع عمر طوسون باشا وهم يتلون ليلاً ونهاراً قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: 51] إذ صار المسلمون ينقادون للجمعيات ولو هي [غير][1] مُسلِمات ولا ينقادون لكتاب الله فبطنُ الأرض خيرٌ لنا من ظهرها، هذا ما يقول أبو يعلى المتفقّه لغةً لا اصطلاحاً، والله تعالى يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.



(1) زيادة مني يقتضيها السياق.



• إلى الحسنى[1]

بهذا العنوان كتب مجدّد العلم والتعليم وزعيمهما صديقنا الأستاذ الشيخ عبدالحميد بن باديس رحمه الله في جريدته «الشهاب» يخاطب العلويين أصحاب «البلاغ» عند كثرة الأخذ والردّ بينه وبينهم فليراجعه مَن شاء[2].

وعلى هذا يقول أبو يعلى كاتب هذا الفصل: إنّي أدعو الإخوان

(1) عدد (11).

(2) عنوان المقال: «دعوة إلى الحسنى فهل من مجيب» عدد (102) ص(2 ـ 3)، وهو ليس موجهاً إلى العليويين بل «لجميع الكتاب» كما هو مذكور في المقال، وموضوعه هو الدعوة إلى استعمال الموعظة الحسنة في النقاش والبعد عن السب والشتم لا كما قد يُفهم منه أنه دعوة إلى التقارب والاتفاق من دون شروط، وقد بيّن ابن باديس شروط الهدنة مع الطرقيين المنحرفين في جوابه للزواوي وقد كان كتب يدعو إلى الهدنة والاتفاق معهم، فقال: «إذا كان أبو يعلى يعني بالهدنة والاتفاق مع الطرقيين السكوت عن ضلالاتهم والتي جنَوا بها على العقول والقلوب والأموال والأبدان، وشوهوا بها سمعة الإسلام، وسوّدوا صحائفه البيضاء، فإن دعوته من الضلال الذي يجب أن يستغفر الله منه، ولا نستجيز لأنفسنا أن نعينه عليه بنشره، وإن كان يعني أن نسكت لهم عن بعض الباطل ليقبلوا منا بعض الحق فإن هذا لا يرضاه من أنزل عليه ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾، وإذا كان يعني السكوت عن أعراضهم وأشخاصهم فإن الطعن في الأعراض والتعرض للشخصيات مما قد تنزه عنه كتاب الإصلاح قبل دعوته وإن اتخذه سلاحاً قومٌ آخرون». اهـ من الشهاب عدد (92) ص(10). وراجع مقالاً آخر ضمن الشهاب لأحد الإصلاحيين بعنوان: «متى تجاب الدعوة إلى الحسنى».

أصحاب «البصائر» وأصحاب مجلة «صوت المسجد» أتباع باديس باعتبار أن الشيخ العاصمي كان يكتب في الشهاب ـ المجلة ـ ومحبّ لباديس وأنه من الإصلاحيين والمعلّمين إلى أن تولى الإفتاء بتسمية من الجمعية الدينية لأول تأسيسها وافقت عليها الحكومة، فحصل تناول الديانة عن الحكومة وكتبنا فيها كثيراً وما زلنا ولن نزال نكتب فيها إلى أن تنفصل، وقد اشتدّت وطأة صديقنا الشيخ الإبراهيمي على صديقنا الشيخ العاصمي فيما يتعلق بهذه القضية ـ فصل الديانة عن الحكومة ـ وكان ذلك من شأن الكاتبين أهل العصر فلا بأس به ما لم يتجاوز الحد اللازم إلى المطاعن في الشخصيات والإذايات، وإنّي الآن أدعو الفريقين إلى الحسنى كما قال الأستاذ الشيخ باديس رحمه الله.

وعهدي أن أصحاب «البلاغ» سكتوا ولم يجيبوا الشيخ باديس فتعجبت كثيراً، وكان الشيخ عليوة رحمه الله بقيد الحياة فكاتبته معاتباً ومنها: أيّ وجهٍ لكم وأيّ دليل وجواب لكم لمن يقول لكم إلى الحسنى إن كنتم تعلمون ما هي الحسنى؟ وكذلك لمن يقول لكم إلى القبلة أو إلى لا إلٰه إلا الله؟ أما إنّي أقول لكم بما أشهد الله به على نفسي وهو خير الشاهدين، لا أستطيع ولا أُجيز لنفسي أن أتوقّف لحظةً كلمح البصر فيمن يقول لي ما ذكرت ـ من الدعوة الحسنى ـ إلاّ مبادرتي: وأنا من أهلها.

ثم تهكّمتُ بما لا يليق التهكم به وفيه فقلت لكم: ولكنكم لا تعتبرون إلا لا إلٰه إلاّ الله، فأجابني رحمه الله ـ وكتابه لديّ ـ يقول مقسماً أنه لم يدرِ بذلك، وإنما المكلّفون بالجريدة غفلوا ولم يخبروه فشكرني رحمه الله.

والآن أيها الإخوان ناشدتكم الله أن تنتهوا وتعملوا بهذه التذكرة التي اخترتها لي ولكم وأعمل بها بفضل الله وبرحمته وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9]. علّق ابن كثير المفسّر على هذه الآية: «قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثنا

عبدالأعلى عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «**إنّ المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمٰن عزَّ وجلَّ بما أقسطوا في الدنيا**»[1].

ثم إن المفسّر قال: «وهذا الإسناد جيد قويّ رجاله على شرط الصحيح». اهـ.

قلت: لا أزيد في هذا التذكير إلاّ حديثاً واحداً وهو قوله ﷺ: «**أنا زعيم بيتٍ في ربَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقّاً وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً وبيت في أعلى الجنة لمن حسُن خُلقه**»[2]. قال النووي: حديثٌ صحيح.

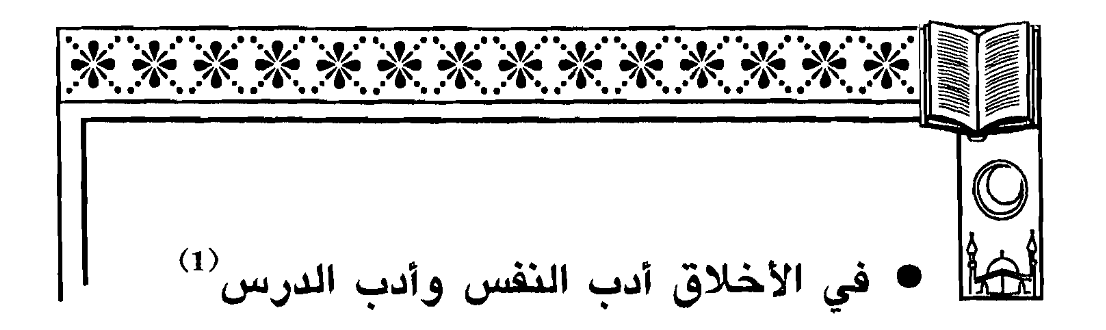
وكذلك أقول: إنكم جميعاً إذا لم تفعلوا بدعوتي هذه التي هي كما علمتم أهجركم ولو علمت أن هجراني لا يضركم ولا ينفعكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.



---

(1) وأخرجه مسلم (1827) عن ابن عمر بلفظ: «... **على منابر من نور عن يمين الرحمٰن...**».

(2) أخرجه أبو داود في السنن (4800) وحسنه الألباني كما في الصحيحة (273).



• في الأخلاق أدب النفس وأدب الدرس(1)

أحببت بل اضطررت إلى أن أكتب شيئاً قليلاً في أدب النفس وأدب الدرس، وهو موضوع كبير وشأنه خطير يحتاج إلى قلم العلماء المعتبرين، وعليه فأنا أنبّه فحسب لعلّي أكون كمن أرشد إلى تعليم وهدى إلى صراطٍ مستقيم، والأمة وبالتالي أهل الوطن في حاجةٍ أكيدة إلى ذلك، هذا مرادي، والله تعالى أعلم بذلك.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها [قالت](2): «كان خُلق رسول الله ﷺ القرآن»(3)، فبمجرّد اطّلاعي على هذا الحديث ووقوفي عليه وسماعي المحدثين والمتكلمين يلفظونه ويكتبونه ظهر لي أنّ أمنا عائشة اختصرت القول كثيراً، فوددت أن لو زادت في القول والإرشاد، وذكرت ما رأت وشهدت من أدبه ﷺ الجمّ وفضله الذي عمّ، فانتبهت حالاً ورجعت واستغفرت وأخزيت نفسي ورضيت لها بالعقاب والزّجر، ولا سيما بعد التأمّل في القرآن الذي أتتعتع فيه مدّة عمري هذا الطويل بدون استفادة ولا إفادة، ويا أسفي على ما فرّطت في جنب الله، فإنّ القرآن كلام الله هو الهدى والنّور، فاطلعت أيضاً أنّ أمنا عائشة هي التي روَت ما ثبت في الصحيحين: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ فيه مع السفرة الكرام البررة، والذي**

---

(1) عدد (12).

(2) زيادة مني.

(3) أخرجه مسلم (746) من حديث عائشة.

يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاقّ له أجران»[1]، فظهر لي أن ما يسمو إليه الأدب النفسي الذي هو أَولى وأفضل من الأدب الدرسي موجودٌ في القرآن بأبلغ وأعلى وأسمى ما يُظنّ أو يُخيّل أن يوجد في كتاب غيره، وكذلك نتشدق ـ أعني: نحن الذي نقرؤه ـ أنه يوجد فيه جميع ما يطلب الطالب، ونذكر الآيات: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: 51]، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿41﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿42﴾﴾ [فصلت: 41، 42]، ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿77﴾﴾ [النمل: 77]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾ [الأنعام: 153]. إلى غير ذلك من الآيات البيّنات، وإنه يكفينا إذ شمل الأمر والنهي من ربنا، وما الشريعة وما الأخلاق وما السعادة وما الفلاح وما النجاح إلاّ ذينَ الأمرين: الأمر والنهي، فمن أتى الأمر وتوقّى النهي فهو الذي على خلق عظيم.

ولكنا لم نعمل به حق العمل وإن آمنا به وصدّقناه، بل نطلب الهدى في غيره حتى لقد انصرفنا إلى العوائد والقوانين. وإن تعجب فعجبٌ أنّ في مصر جمعية ـ لا جماعة ـ تعمل بقانون منع الخمر مثل جمعيات أوروبا، وهذا معنى الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: 51] بل معنى الحديث أيضاً: «**ومَن ابتغى الهُدى في غيره أضلّه الله**»[2]. وكما قال الجاحظ: «فالفقيه وإن برّز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برّز على أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وان كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علَك اللغات بقوة لحيَيه، لا يتصدّى أحدٌ منهم لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص

---

(1) أخرجه البخاري (4937) ومسلم (798).

(2) أخرجه الترمذي (3072) من حديث علي بلفظ: «**ألا إنها ستكون فتنة**»، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله فيه نبأ مَن قبلكم وخبر ما بعدكم...**» وفي إسناده الحارث الأعور وهو ضعيف.

على شيء من تلك الحقائق، إلاّ رجلٌ قد برع في علمين مختصّين بالقرآن، وهما المعاني والبيان» اهـ.

قلت: فعجبٌ وأعجب أن قد انصرفنا على الذي جاء به القرآن الذي هو لسان جنسنا وأبناء جلدتنا ولسان قائدنا في الدنيا والآخرة عليه الصلاة والسلام، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢١١ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢١٢﴾ [البقرة: 211، 212]، ولهذا قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: «إنّ الجاهلية الأولى خيرٌ من هذه الآخرة»، وقال هذا رحمه الله لأنّ أهل الجاهلية الأولى عمل فيهم القرآن فبهرهم وقهرهم بالحقّ وحاجّهم به فرجعوا إليه ممتثلين لأوامره ونواهيه، وسجد بعضهم لفصاحته وبلاغته قبل أن يؤمن به وهو من الرّعاة أي: رعاء الشاء.

وقال جبير بن مطعم ما ثبت في صحيح البخاري وفي مسلم[1]: «سمعت النبيّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطّور فلمّا بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾ [الطور: 35 ـ 37] كاد قلبي أن يطير». وقال ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية: «وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبيّ ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام». انتهى. قلت: هل من أحد من متفرنجينا أو من غير متفرنجين يؤثّر فيه القرآن؟ كلاّ ثم ألف مرّة كلاّ! وعن هذه الآية بل وعن جملتهن وهن أربع عشرة توالى فيهنّ الاستفهام بـ «أم» خمس عشرة مرّة كنت ولم أزل ولا أزال في غاية الإعجاب بها والالتفاف إليها والاعتبار لها، وكثر مثلهنّ في القرآن كما في سورة المؤمنون: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) البخاري (4854)، مسلم (463).

ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿86﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿87﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿88﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿89﴾﴾ [المؤمنون: **84 ـ 89**].

وكذلك في سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿59﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿60﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿61﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿62﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿63﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿64﴾﴾ [النمل: **59 ـ 64**].

هذه الآي كلّها عجيبةٌ مقنعةٌ قاهرة ولكن تمادي الاستفهام والتقريع بـ «أم» في سورة الطور أعجب وها أنا أذكرها وأسطّرها هنا طالباً تدبرها فهي الحلو والحلياء:

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿29﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿30﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿31﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿32﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿33﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿34﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿35﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿36﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿37﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿38﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿39﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿40﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿41﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿42﴾ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿43﴾﴾ [الطور: **29 ـ 43**]. فليتأمّل المتأمّل في تلك الفواصل أيضاً كيف اتّسقت وانتسقت وانسجمت كالصيّب من السماء،

فانصرفت الأمة أو كادت تنصرف عن هذا القرآن وخُلقه العظيم، وإنّ الأتراك الذين أسلموا من لدن القرن الثاني ترجموه في هذا العهد الأخير، وليتنا وليتهم وقفوا عند حد الترجمة، لأنهم عجزوا عن فهمه وحفظه وإدراك معانيه، وهو لا محالة مُعجز ولكن بعد عشرة من القرون؟! ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ [النور: 50].





• استدراك واقتراح[1]

قلت في توسّلي وتوسّطي إلى الإخوان أصحاب «البصائر» وأصحاب «صوت المسجد»: أن نتخذ الطريقة الحسنى جعلني الله وإياهم من الذين وعدهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿26﴾﴾ [يونس: 26]، فإذا فعلوا ـ والظن الجميل أن يفعلوا ـ لأن ذلك من باب التذكير فحسب إذ هم هم، وقد علموا أنّ الله جلّ جلاله قال لنبيه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿55﴾﴾ [الذاريات: 55].

وعلى هذا فالاستدراك أننا نتناول المسائل والقضايا النافعة للأمة والوطن وعلى الأخص قضايا الدين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ما تركته أمة إلا عمّهم الله بعذابٍ من عنده وضرب قلوب بعضهم ببعض، فلنتعظ. . . وأنّ السكوت عن المقدور على تغييره وتنكيره جنايةٌ لا تُغتفر، وأنّ قصدي الانتهاء عن الشجار والطعن والقذف والرمي ونحو ذلك مما يضرّ ولا ينفع، كأقوال بعض الكاتبين: «فلان حكومي ومن أين له كذا وكذا، وفلان كان لا يملك شيئاً ثم صار. . .»، وكقول مَن حمل على الموظفين على يد حكومة نصرانية وتعميمه ذلك مما بيّناه من أقوال المازري. وأن لا نفعل مثل كتاب الإفرنج حتى يؤدّي بهم الأمر إلى طلب المبارزة والمحاكمة وطلب الأرش والرهان، فهذه كلها محرمةٌ عندنا، وهذا هو

---

(1) عدد (16).

استدراكي وسأُثبت آخر هذا الفصل جملةً في معنى البراز عند الأفرنك، وأذكر الآن شيئاً قليلاً من الاقتراح مذكّراً فقط ومنبّها بل أتحفّظ من تنزيل العالم منزلة الجاهل فكلّ مَن أخاطبهم حارث همّام فأقول: يلزم أن نأخذ بأساليب أسلافنا الصلحاء من الاكتفاء بالتعريض إن أغنى فيه ذلك ونعمت، وإن لزم التصريح لمقتضٍ فيؤخذ بالرّفق كأن يقول: «بلغنا» أو «قرأنا» أو «وقفنا» على كذا وكذا من القول أو العمل من بعض الإخوان، ويتناول ذلك بالثبت من غير زيادةٍ ولا نقص مما يعدّ تحريفاً بالزيادة ثم يستفهم ويقف ويستوقف، وله أن يعمل بطريقة السلف من الموافقة والمخالفة برفقٍ ولين ليكون قوله نافذاً ومعتبراً، ولا بأس أن يقول: «وهلاّ قال كذا وكذا أو فعل كذا وكذا».

هذا وأورد طريقة التأديب عند الإنجليز وقد أعجبتني في الجملة ولا أدري موقعها عند الإخوان، وهي أنّ مَن رأى منهم خطأً ويذكُره أو لا يذكُره باسمه فعلى الاختيار واللزوم فيقول: «أما أنا فلا أعمل كذلك ولا أقول ذلك إنما أعمل وأقول» فيبيّن مراده.

وقد رأيت هذه الطريقة مفيدة حتى أنّها كعرض حال عقول وآداب ومدارك، ليقف العارفون على الصواب والخطأ في الأقوال والأعمال، وهذا حسن ولكن الأحسن ما عندنا من موافقة أدب الشرع كما قال عمر رضي الله عنه: «مَن لم يؤدّبه الشرع فلا أدبه الله». استوقفني ردٌّ بكلمة «لو» في حاشية من حواشي شُرّاح مختصر خليل في فقهنا المالكي ولم أنسَه منذ أكثر من نصف قرن لما فيه من أدب النفس وأدب الدرس، وهو ـ الردّ ـ أنّ المصنّف قال في «باب الحج» مبالغاً في الزاد والثمن اللاّزم للحاجّ: «وإن بثمنِ ولد زنى» يعني: إذا ملكه وباعه. فردّ عليه المحشّي بقوله: «لو ترك خشونة هذا اللفظ في مثل الحجّ لكان أولى». اهـ. فتأملتُ جيّداً هذا الردّ اللازم الشامل للأدب فوردت عليّ الآية حالاً أسرع من الراديو وهي قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 197] وأنّ ملاحظة المحشّي هي غاية ما يسمو إليه الأدب الشرعي إذ الكلام في الحجّ لبيت الله الحرام، ولا ينبغي للمؤلّف المصنّف أن يذكر ذلك اللفظ أعني: الزنا وهو في الحج

وغير مناسبٍ أصلاً ولا ما يضطرّه إلى ذكره، ولو كان حيّاً ـ أعني: المصنف ـ وخاطبه المحشّي بردّه هذا وتنبيهه لقام وبادره بتقبيل ما بين عينيه، وعن ذكر أدب النفس وهو المطلوب أكثر من أدب الدرس، لأن أدب الدرس من باب العلم والعلمُ كما أخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 85]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾، وأما أدب النفس فألزم من أدب الدرس كما لا يخفى وكلاهما بحر زاخر، أنّ حواراً جرى بين عيسى ويحيى على نبيّنا وعليهما الصلاة والسلام فقال عيسى ليحيى: أنت أفضل منّي، فأجابه يحيى: أنا لا بل أنت أفضل منّي فبرهن عيسى عليه السلام أنّ الله جلّ جلاله هو الذي سلّم على يحيى وأنه ـ عيسى ـ سلّم هو على نفسه. وتضمّن هذه القضية تصديق قوله تعالى حاكياً عن بشارته لنبيّه زكرياء عليه السلام: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [مريم: 7] إلى قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥﴾ [مريم: 15]، وأما عيسى فقال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [مريم: 30] إلى قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ۝٣٣﴾ [مريم: 30].

هذا وإنّ لغير الموظفين أن يعترضوا على الموظّفين فيما يظهر من التقصير ولكن مع حسن الظنّ وقبول العذر، وأن يتحمّلوا بعض الحملات ويجيبوا عنها بكل اعتذار، وبيان أداء ما في الوُسع وخصوصاً عدم القيام بالوظيفة كما ينبغي، وهذا مما يلزمنا معشر الموظفين أن نتلقاه بسعة الصدر بل والشكر إذا صدر بوجه حسن، وقصد خالٍ من الإحن، ولم يكن المنتقد أو المعترض ذا ضغن.

وأرجع الآن إلى القول الذي وعدتُ به من الكلام على المبارزة عند الإفرنج فإنّه قد يليق لفريقٍ مارقٍ منّا معشر المسلمين وما أكثرهم فينا، والله نرجو أن يقلّلهم فإنّهم سفهاء جهلاء لا مبالاة لهم بآفات اللسان من الغيبة والنميمة والقول بالظنّ والوهم والخيال وسوء القصد، فإنهم أثقلوا الحَفظة من الكرام الكاتبين بإذاية المؤمنين والمؤمنات بل بإذاية الله ورسوله في العباد، لأنهم لا يبالون بجريمة الرمي والقذف والإفك والبهتان وسائر ما توسوس به لهم نفوسهم والشياطين منهم ومن الجن، ذلك بأنهم في مأمنٍ

ومنعة من إقامة الحدود مثل أن يثبت ما يقول أو يُقاد لثمانين جلدة، ولأنهم قد مرقوا من الإسلام شعروا أو لم يشعروا، نعم لأنّهم بمجرد عدم مبالاتهم بما يقولون من المنكر وقول الزور الذي ارتاع نبيهم منه وغضب بل اغتاظ عند ذكره: «**ألا وقول الزّور**»[1] حتى أشفق الصحابة وودّوا أن يسكت ﷺ.

فهؤلاء المرَقة من أحكام الإسلام تليق بهم قاعدة المبارزة من الآفك أو الطاعن أو القاذف، إمّا أن يُثبت ما يقول أو يعتذر من حيث لا يدري أنه يقبل منه العذر أو لا يقبل، أو البراز بالأسنّة والحديد أو البارود فيكون الجبران بالدم، ولو علموا بهذه القواعد وهذه الرجولة لكفّوا ألسنتهم عن إذاية الخلق، ولكن هؤلاء الكلاب ليسوا من المسلمين فيراقبوا الله والرسول فيما يقولون ويخشون الجزاء يوم الجزاء بأن يوقفوا على جسر جهنّم حتى يخرجوا مما يقولون، ولا هم من شجعان الإفرنج وشرفائهم يتحفّظون مما يقولون قبل أن يؤدوا بأنفسهم إلى العار والشنار والنار والعياذ بالله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.



(1) أخرجه البخاري (2654) ومسلم (87) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه بلفظ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر...**».



• أسرار الحج وحقائقه[1]

قد اعتبر كثيرٌ من العارفين أسرار الحجّ فنبّهوا إليها كما في شرح العلاّمة الفقيه الشيخ أحمد ميارة لمنظومة ابن عاشر عند شرحه باب الحجّ فهو معتبر فليراجع، ولكنني قد رأيت ما في تفسير العلاّمة الإصلاحي مفتي بغداد الآلوسي أبلغ وأفيد وأسدّ، وإنّ للقارئ لهما أن يقارن بينهما، وسبحان الله القائل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]. قال الآلوسي حاكياً ما لفظه: «يُحكى عن بعضهم أنه قال للشبلي: إني حججت، فقال: كيف فعلت؟ فقلت: اغتسلتُ وأحرمتُ وصلّيت ركعتين ولبّيت. فقال لي: عقدت به الحج؟ فقلت نعم، قال: فسختَ بعقدك كل عقدٍ عقدته منذ خُلقت مما يضادّ هذا العقد؟ قلت: لا، قال: فما عقدت. ثم قال: نزعتَ ثيابك؟ قلت: نعم، قال تجرّدت من كلّ فعل فعلت؟ قلت: لا، قال: ما نزعت. وقال: تطهّرت؟ قلت: نعم، قال: أزلت عنك كل علّة؟ قلت: لا، قال: فما تطهرت. قال: لبّيت؟ قلت: نعم، قال: وجدتَ جواب التلبية مثلاً بمثل؟ قلت: لا، قال: ما لبيت. قال: دخلتَ الحرَم؟ قلت: نعم، قال: أعقدتَ بدخولك الحرم ترك كل محرّم؟ قلت: لا، قال: ما دخلت. قال: أشرفت على مكة؟ قلت: نعم، قال: أشرفَ عليك حالٌ من الله، قلت: لا، قال: ما أشرفت. قال: دخلتَ المسجد الحرام؟ قلت: نعم، قال: دخلت الحضرة؟ قلت: لا، قال: ما دخلت المسجد الحرام.

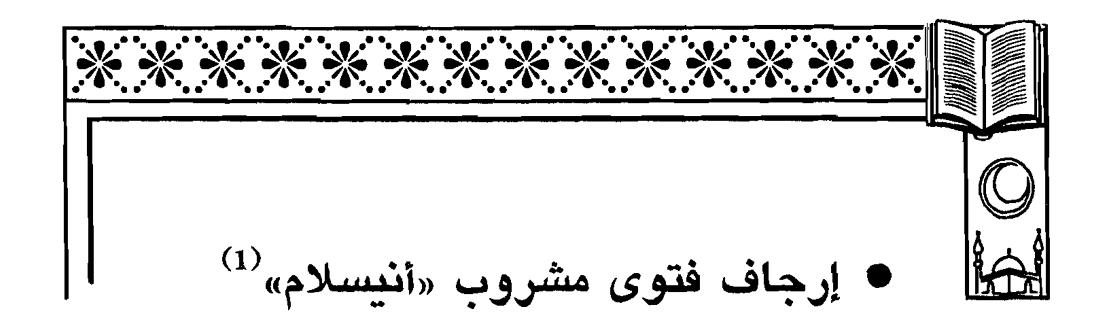
---

(1) عدد (17).

قال: رأيتَ الكعبة؟ قلت: نعم، قال: رأيتَ ما قصدت؟ قلت: لا، قال: ما رأيت ما قصدت من الكعبة. قال: رميت وسعيت؟ قلت: نعم، قال: هربت من الدنيا ووجدت أمناً مما هربت؟ قلت: لا، قال: ما فعلت شيئاً. قال: صافحت الحجر؟ قلت: نعم، قال: مَن صافح الحقّ ظهر عليه أثر الأمن أفظهر عليك؟ قلت: لا، قال: ما صافحت. قال: صلّيت ركعتين بعد؟ قلت: نعم، قال: أوجدتَ نفسك بين يديّ الله تعالى؟ قلت: لا، قال: ما صلّيت. قال: خرجتَ إلى الصّفا؟ قلت: نعم، قال: أكبّرت؟ قلت: نعم، قال: أصفى سرّك وصغُرت في عينك الأكوان؟ قلت: لا، قال: ما خرجت و لا كبّرت. قال: هرولتَ في سعيك؟ قلت: نعم، قال: هربتَ منه إليه؟ قلت: لا، قال: ما هرولت. قال: وقفتَ على المروة؟ قلت: نعم، قال: رأيت نزول السكينة عليك وأنت عليها؟ قلت: لا، قال: ما وقفت على المروة. قال: خرجتَ إلى منى؟ قلت: نعم، قال: أُعطيت ما تمنيت؟ قلت: لا، قال: ما خرجت. قال: دخلت مسجد الخيف؟ قلت: نعم، قال: تجدد لك الخوف؟ قلت: لا، قال: ما دخلت. قال: مضيتَ إلى عرفات؟ قلت: نعم، قال: عرفت الحال الذي خلقت له والحال الذي تصير إليه؟ وهل عرفت من ربك ما كنت منكراً له؟ هل تعرّف الحق إليك بشيء؟ قلت: لا، قال: ما مضيت. قال: نفرت إلى المشعر الحرام؟ قلت: نعم، قال: ذكرتَ الله فيه ذكراً أنساك ذكر ما سواه؟ قلت: لا، قال: ما نفرت. قال: ذبحت؟ قلت: نعم، قال: أفنيتَ شهواتك وإراداتك في رضى الحق؟ قلت: لا، قال: ما ذبحت. قال: رميت الجمرات؟ قلت: نعم، قال: رميتَ جهلك منك بزيادة علم ظهر عليك؟ قلت: لا، قال: ما رميت. قال: زرت؟ قلت: نعم، قال: كوشفتَ عن الحقائق؟ قلت: لا، قال: ما زرت. قال: أحللت؟ قلت: نعم، قال: عزمتَ على الأكل من الحلال قدر ما تحفظ به نفسك؟ قلت: لا، قال: ما أحللت. قال: ودّعت؟ قلت: نعم، قال: خرجت من نفسك وروحك بالكلية؟ قلت: لا، قال: ما ودّعت وما حجَجت وعليك العود إن أحببت، وإذا حججت فاجتهد أن تكون كما وصفتُ لك» انتهى من روح المعاني للآلوسي.

قلت: يليق بالحاج أن يأخذ بهذه الإشارات والتنبيهات المرتبة من الإحرام إلى الانتهاء والتمام إلى أن يكون الدليل الأمين.





• إرجاف فتوى مشروب «أنيسلام»[1]

وقفت في مجلة «صوت المسجد» وحُدّثت عن القيل والقال في فتوى المفتيَين الشيخَين السيّدَين محمد بابا عمر ومحمد العاصمي في المشروب المسمى: «أنيسلام» ونص الفتوى:

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وبعد:

فنحن المفتيَين المالكي والحنفي بالجزائر قد اطّلعنا على سؤالٍ واردٍ من الشركة الصناعية الإفريقية بشارع «فور لامي» رقم **34** بالجزائر، مؤرخ بيوم **21** جوان الحالي معرّب بقلم الترجمة الشرعية الرسمية تستفتينا في مشروب تحت اسم: «أنيسلام»، مركّب من حبة الحلاوة المطبوخة والمستعملة بكيفية فنية مخصوصة في الماء المقطّر، وليس كالكحول أو مخدّر، وصُحبة هذا السؤال نسخة معرّبة أيضاً بقلم الترجمة الشرعية الرسمية مؤرخة بيوم **8** جوان الجاري وهي نص تحليل كلية علم الطبيعيات بالجزائر بإمضاء أستاذ الكيميا، وجاء فيها أنه بعد تحليل قارورة ذات ليترة من المشروب المعنون بـ «أنيسلام» وبعد التحليل كانت النتيجة أن المشروب المذكور المصنوع من نبات الحلاوة ليس فيها كحول، فالجواب بناءً على أنّ هذا المشروب مركّب من نبات حبة الحلاوة وأن العلم أثبت بأنه ليس فيه ما يُسكر ويخدّر حسبما جاء في رسالة الاستفتاء، ووفق تأكيد الشركة بأن

---

(1) عدد (17).

المشروب خالٍ تماماً من كل مسكر مخدّر وما حقّقه التحليل العلمي بصفة رسمية، ونظراً من جهة أخرى أن حبة الحلاوة المادّة التي تألّف منها هذا المشروب هي النبات الذي أطلق عليه الأنطاكي في تذكرته اسم: «الأنيسون»، وأتى بأوصاف بذره وزهره وكيفية علاج عدّة عوارض مرضية به وبمطبوخه مضافاً إليه السكر أو بعض نبات آخر شرباً ودهناً وبخوراً، بناءً على هذا كلّه واعتماداً على نص السؤال وعلى ما صرّحت به الشركة من التفاصيل، فهذا المشروب المسؤول عنه هو كسائر المشروبات المبرّدة الطاهرة التناول والاستعمال شرعاً، وهذا ما به الفتوى وبه المفتيان بالعاصمة محمد بابا عمر المفتي المالكي ومحمد العاصمي المفتي الحنفي، وكتب يوم الإثنين تاسع رمضان عام **1369** الموافق ليوم الخامس والعشرين من جوان سنة **1950**م».

انتهت الفتوى فأقول: وليس لي ما أقول لولا لزوم بيان سبب الإرجاف كما قال الكاتب الذي نقلت من مقاله المنشور في المجلة «صوت المسجد» وهو السيد صالحي عبدالقادر بن علي ولم يترك لي ما أقول فقد جاء بما جاء به المفتيان صديقاي الشيخان السيد محمد بابا عمر والسيد محمد العاصمي من الأسلوب الحكيم، وقد أسهبوا وأطنبوا فكأنهم عرفوا وعلموا دأب المحرّفين للكلم عن مواضعه من قومنا فجاؤوا بأسلوب الحكيم، فكان قد لزم ذلك احتياطاً وإقناعاً وسدّاً لذرائع القول والإرجاف والخوض في الباطل أشدّ آفات اللّسان وأضرّ لبني الإنسان ومع ذلك فقد وقع ما حذر المفتيان، وماذا يفعلان؟ أيمنعان مَن كان دأبهم الإرجاف والخوض في الباطل والتقوّل والخوض في الباطل كما قال في تعليقه الكاتب المجيد السيد صالحي: «إنّ تحريف المحرّفين وتشويههم كان عن قصدٍ وبثّ دعاية كاذبة بالإعلان في مجالسهم عن هذا المشروب بـ: «أنيزيت الإسلام» إلخ ما قال وأطنب، وهذا التحريف بالزيادة وذكر «أنيزيط الإسلام» هو مثار هذه العُجاجة وإن شئنا قلنا: الزّوبعة حتى أثّر ذلك في المفتيين ولا ينبغي أن يؤثّر، وذكرت لهما مكانتي عندهما وحسن ظنّهما بي أن لو اكتفينا بتأكيد عدم الإسكار وإثباته الذي ليس بالصعب ولو لم يبرهن الأطباء والحكماء

بعدم الإسكار وأنه ـ هذا المشروب ـ من قبيل سائر المشروبات والمطعومات عند أهل الكتاب كـ «القريناديـن» والمعمول من الرمان و«الروجاطة» و«القرموزيل» و«القازوز» وهلم جرّا، فعلام الزيادة في القول الذي وجده العوام مساغاً ومجالاً للإرجاف في المدينة؟ وأن «لاينزيت» المشهورة عندهم أنها منكرة مثل «لابسنت» سيِّئ التأثير في العقول منذ عهدٍ غير بعيد، وبطل الآن والحمد لله فظنّ العامة المرجفة أن هذا المشروب «أنيسلام» مثل «لاينزيت» و«لاينزيت» مثل «لابسانت» فأدهشهم ذلك فأساؤوا الظن بالمفتيين ولا يليق، فليستغفروا الله ولتكفّ بعض الجرائد عن الخطأ في النقل وعدم التثبت وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: 6]، وقُرئ: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ والقراءتان مشهورتان.

هذا وقد كان ﷺ يُنتبذ له، ففي كتاب زاد المعاد: فصلٌ، وثبت في صحيح مسلم أنه ﷺ: «كان يُنبذ له أول الليل ويشربه إذا أصبح يومه ذلك والليلة التي تجيء والغد والليلة الأخرى والغد إلى العصر، فإن بقي منه شيءٌ سقاه الخادم أو أمر به فصُبّ»[1]، وهذا النبيذ هو ما يطرح فيه تمرٌ يحليه وهو يدخل في الغذاء والشراب وله نفعٌ عظيم في زيادة القوة. وحفظ الصحة ولو لم يكن يشربه بعد ثلاث خوفاً من تغييره إلى الإسكار». اهـ بالحرف.

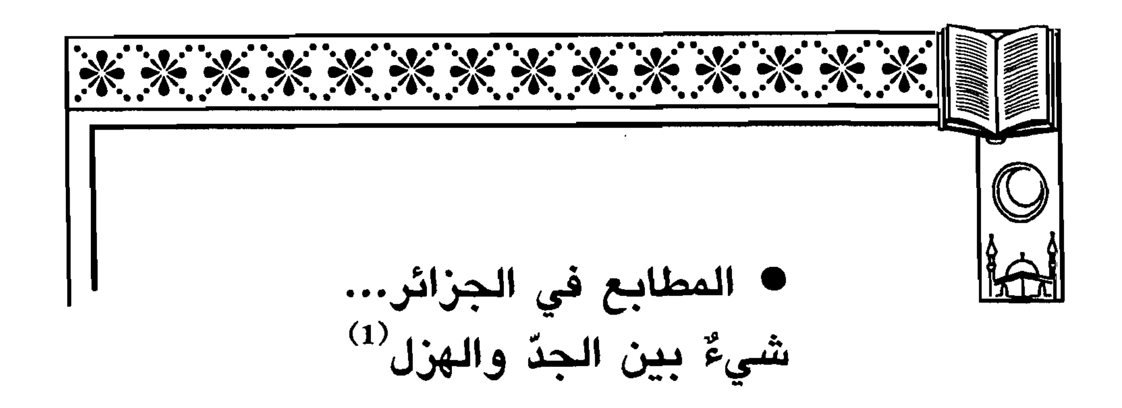
أقول مكرّراً ومذكّراً: أن ما ليس بمسكر فليس بحرام «**كلُّ مُسكرٍ حرام**»[2]، فاتقوا الله يا أولي الألباب.

تنبيه: ما أغنى الشركة عن هذه التسمية لأنها فتحت باب التحريف لهوّاته وإن كان لا معنى في الاسم ما لم يكن المعنى في المسمّى والعبرة في المسمّى.



(1) مسلم (1998).

(2) أخرجه البخاري (4377) ومسلم (1733) من حديث أبي موسى الأشعري.



المطابع في الجزائر... شيءٌ بين الجدّ والهزل[1]

انفردت الجزائر بفقدان المطابع معامل المطبوعات أعني: العربية من الجرائد والمجلات والكتب وسائر ما يؤذن بنشر العلوم والمعارف، ولم يُعنَ الأهالي بذلك الأمر المهم ذي الفضل العميم والصراط المستقيم، بل المعدن الكريم والربح العظيم، والسبب في ذلك ضعف العربية وقلّة القراءة وغلَبة الأميّة المتمكّنة في هذه الأمة العربية قديماً، ولكن السبب الأكبر وجود الدولة التركية قبل فرنسا بنحوي ثلاثة قرون، وهي عجمية لا عناية لها بالعربية، ذلك الأمر الذي انتقدها عليه الشيخان الإصلاحيان جمال الدين ومحمد عبده الإمام وسائر المؤرخين من حملة الأقلام حتى لقد كان ذلك سبباً للتنافر بين الأمتين العربية والتركية وحاجزاً وتفريقاً بين المؤمنين وضعفاً ووهناً لعدم الاعتصام بحبل الله جميعاً فذاق الجميع وبال أمره. ومنذ الحرب العالمية الكبرى خفّف الاستعمار وطأته، إذ هلَك من أهالي الجزائر في تلك الحرب ما لم يهلك من أهالي فرنسا، فأخذت المطبوعات بالظهور ولكن عن قصور فوقعت هذه الحرب الأخيرة فانخنقت المطبوعات في مهدها قبل فطامها. والحال أن أغنياء الجزائر لا يُحسنون بل لا يعلمون ولا يعرفون الإنفاق والبذل في ذلك السبيل المجهول عندهم ولم يُعرف قطّ فقد بقي نكرة. ما سمعنا وما علمنا ولا رأينا جزائرياً طبع كتاباً على نفقته خدمةً

(1) عدد (20).

للعلم والعلماء ولا شجّع كاتباً مؤلّفاً بإمدادٍ ما إلاّ السيد الحاج محمد المانصالي الذي أشار على كاتب هذه الفذلكة لتأليف كتابه «الإسلام الصحيح» الذي عرفه الإخوان، وهو كتابٌ صغير الذي كان السبب في اختصاره خشية أن تكبر نفقته فطبعه رحمه الله في مصر.

وبالجملة فقد انفرد الجزائريون بعدم تأسيس المطابع وأبَوا أن يقتدوا بمصر بل ولا بتونس وبمراكش الجارتين فإنّ في تونس عشرات من المطابع والجرائد، وسكان تونس ثلث سكان الجزائر، إنما ينفق الجزائريون الأغنياء في الولائم والأعراس فقد ينفق أحد أغنيائهم مئات الألوف بل الملايين في الأعراس وأطعمتها التي قال فيها النبيّ ﷺ: «**شرُّ الطعام طعامُ الوليمة يُدعى إليه الأغنياء ويُذادُ عنه الفقراء**»[1] أو كما قال ﷺ، وها قد نبّهناهم لعلّهم يهتدون، ولدينا كتبٌ مؤلّفةٌ مفيدة، وبالأخص كتاب «تعدّد الزّوجات في الإسلام» الذي شهد له أمير البيان شكيب أرسلان ـ رحمه الله ـ بأنه لم يؤلَّف مثله، ولا يتجاوز ثلث ملازم ـ أي: كراريس ـ فهل منهم من أحد تهزه النخوة العربية الإسلامية وتبعثه الغيرة لطبع هذا الكتاب الصغير حجماً الكبير علماً؟؟ وبالأخص إذا تُرجم فإنّي ضامنٌ أن لا يعود نصرانيٌّ إلى الطعن في الإسلام في تعدّد الزّوجات المنكر عندهم[2]، وهو المعروف ونص ما قال أمير البيان:

«حضرات أصحاب «البلاغ المبين»، أكتب إليكم بكل عجلة لما أنا فيه من الشواغل المحيطة بي التي لا أملك معها من الوقت ما أعبّر فيه عن كل ما يلوح في خاطري، أو يحك في صدري ولكني أقول: إنّي بمجرد أن قرأت الفصل البديع الممتع الوارد في عدد واحد ذي القعدة من بلاغكم تحت عنوان: «يُسر تعدّد الزوجات في الإسلام» أخذتني هزة الطرب ولم أملك نفسي أن بادرت إلى تهنئة «البلاغ» بهذا المقال الفصل الذي فيه من الحكمة البالغة، والحجّة الدامغة، وقوة التعبير، وشدة التأثير، وعلوّ النفس

---

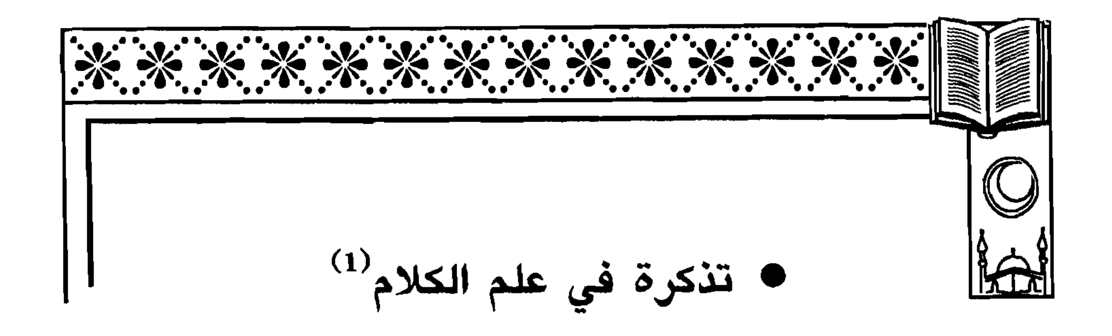
(1) أخرجه البخاري (5177) ومسلم (1432).

(2) هذا أمرٌ بعيد!

ما يجعله من أفضل ما كتب في هذا العصر، ومن حيث أن كاتب ذلك المقال لم يُبق في القوس منزعاً، فلا أجد في نفسي حاجةً إلى إيراد شيءٍ يزيد الشمس ضياءها».

قلت: كتبت بهذا المعنى إلى أغنى الأغنياء بالجزائر قد يدعى «ملياردي»، والحال أنه تزوّج بامرأتين إحداهما: مسلمة، والأخرى: نصرانية، وقلت له: إذا أردت أن تخدم الإسلام ونبيه الذي كثر فيهما الطعن بهذا السبب ـ تعدّد الزوجات ـ أنه إن ترجم الكتاب فإنّي ضامنٌ أن لا يعود نصراني بل ولا نصرانية إلى الطعن في الإسلام بهذا السبب... فالجواب.





• تذكرة في علم الكلام[1]

الكلام في علم الكلام أعني: التوحيد صعب، وقال ابن خلدون في مقدمته العجيبة: «لم يكن هذا الفنّ مدوّناً عند سلف الأمة من الصحابة رضوان الله عليهم ومَن بعدهم إلى القرن الثاني وكذلك الفقه وقد اكتفوا بتلقي الدين مشافهةً وحفظاً وتحفّظوا في نقل الحديث وتدوين الفقه تحفظاً عجيباً خوفاً من التبعة. . .».

قلت: وكذلك التحفّظ في علم الكلام ينبغي أن يكون أشدّ للمزالق التي فيه، وقال العلاَّمة حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي أنّ الشافعي يقول: «لأن يلقى العبد ربه بكل ذنبٍ ما عدى الشّرك خيرٌ من أن يلقاه بعلم الكلام» لأنه قد جرى بينه وبين حفصٍ الفرد شيء من ذلك فأدهشه حتى إنّ بعض الناس سأل الشافعي في ذلك فأجابه: «سل عنه حفصاً الفرد أخزاه الله». انتهى.

قلت: فإذا أنكر الشافعي القرشي الإمام المجتهد وله الميزة بين أصحابه الأئمة المجتهدين في الناسخ والمنسوخ، وكذلك الإمام مالك أنكر على مَن سأله عن معنى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5] فأجابه: «الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عن هذا بدعة»، فإذا أنكر هؤلاء العباقرة الكلام في علم الكلام فما بقي لمن بعدهم؟ قال سعد الدين التفتزاني من المتأخرين في شرحه للعقائد النسَفية عند الكلام على الصفات

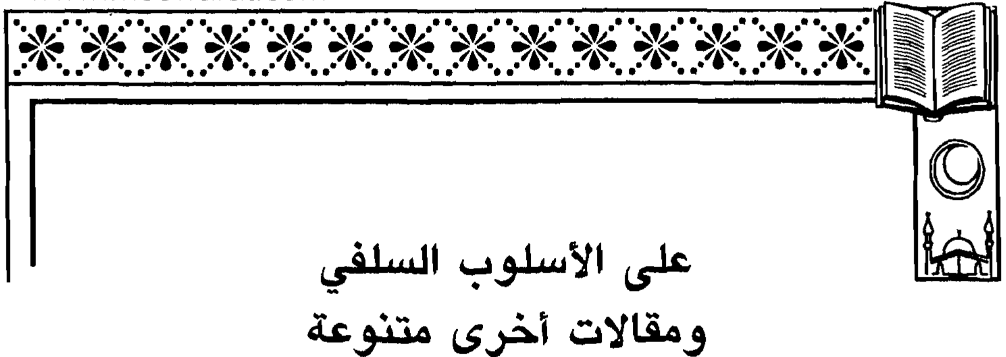
(1) عدد (20).

ما لفظه: «ولصعوبة هذا المقام ذهب المعتزلة إلى نفيها والكرّامية إلى نفي قِدَمها والأشاعرة إلى نفي عينيتها وغيريتها». انتهى. وقال الأستاذ محمد عبده في رسالته التوحيدية الشهيرة: «لا ينبغي الكلام في الصفات». انتهى. قلت: الكلام في علم الكلام بحرٌ لا ساحل له بل أكبر من البحر لأنه خيالي وتصوّري من الدوائر التي لا نهاية لها، وأعجبني في ذلك كلام الحنابلة الذين منهم أسد العلماء في عصره ابن تيمية فإنّهم قالوا: «نصف الله بما وصف به نفسه لا غير» وهو صواب، أوَ لم يكفنا كتاب الله أوَ لم تكفنا قضية خلق القرآن التي أودت بضرب الإمام أحمد بل قتل جملةٍ من العلماء الصالحين ولا سيما أحمد بن ناصر الذي قتله الخليفة نفسه، وما أعظمها من مصيبة مدلَهِمّة ابتدأها المأمون وتولّى كبرها أخوه المعتصم ومَن بعد، بل الذي تولّى كبرها القاضي ابن أبي دُؤاد الذي مات شرّ موتة، وكذلك أعجبني ما قال ابن خلدون من أن الأشاعرة القدماء قالوا: «إن عدم الدليل يستلزم عدم المدلول، فقام المتأخرة من الغزالي والفخر الرازي فاعتذروا وتقهقروا قالوا: لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول فتداركوا القضية التي يأباها العقل والمنطق».

هذا وإنّي لما تعيّنت إماماً بهذا المسجد «سيدي رمضان»، وكان من العادة أن يدرّس الإمام في رمضان بين المغرب والعشاء التوحيد فدرّست «السنوسية» السنَة الأولى على ظاهره، لكنّي انتبهت أنّي عاجزٌ في السنة الثانية أكثر من السنة الأولى وفي الثالثة أكثر من الثانية وهكذا، فقلت في نفسي: كيف هذا العجب المخالف للقاعدة أن كلّما درّسنا علماً وكرّرناه وجدنا أنفسنا أعلم وأقوى، وفي هذا خلاف المألوف والمعقول، ثم ورد على ذهني قولهم: «ليس كل زخّارٍ يُخاض، ولا كل جَموحٍ يُراض»، انته يا نفسي خيرٌ لك فانتهيت.







على الأسلوب السلفي
ومقالات أخرى متنوعة

الموضوع	الصفحة





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com





خطب أبي يعلى الزواوي

للفقير الضعيف الراجي عفو ربه اللطيف
السعيد بن محمد الشريف
الشهير بأبي يعلى الزواوي
(١٨٦٦ - ١٩٥٢)

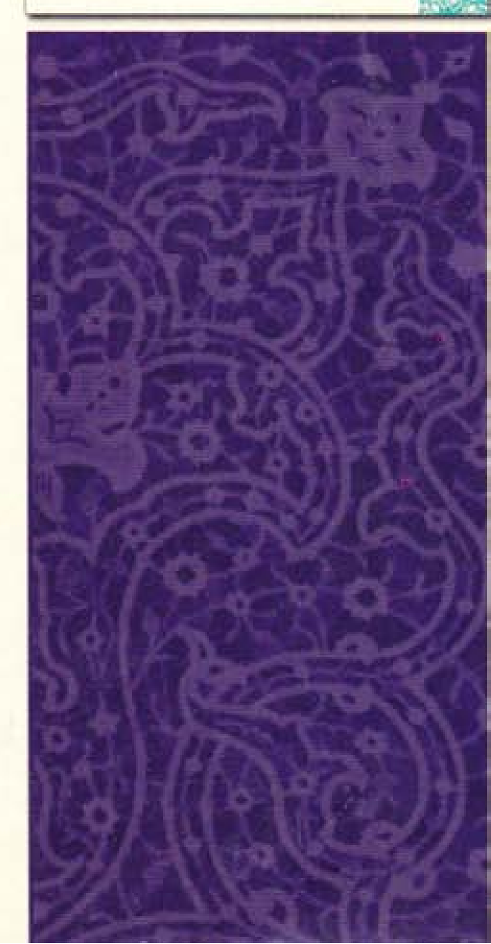
ويليه
على الأسلوب السلفي
ومقالات أخرى متنوعة

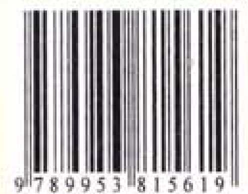
بقلم
أبي يعلى الزواوي

اعتنى بها
عادل بن الحاج جمال الجزائري



دار ابن حزم





9 789953 815619